

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي بقرطاج
معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

علاقات تونس مع دول أوروبا الغربية المتوسطة وتأثير
البحرية فيها في عهد حمودة باشا من 1782م إلى
1814م.

مذكرة شهادة الماجستير في تخصص التاريخ الحديث

إشراف: أ. د/ عمّار بن خروف
المشرف المساعد: د/ صالح بوسليم

إعداد الطالب:
كمال مايدي

السنة الجامعية: 1432 - 1433هـ / 2011 - 2012م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي بغيرداية
معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

علاقات تونس مع دول أوروبا الغربية المتوسطة وتأثير
البحرية فيها في عهد حمودة باشا من
1782م إلى
1814م.

مذكرة شهادة الماجستير في تخصص التاريخ الحديث

إعداد الطالب: إشراف: أ. د/ عمّار بن خروف
كمال مايدي

المشرف المساعد: د/ صالح بوسليم

لجنة المناقشة

رئيسا	فلة قشاعي	الدكتورة:
مشرفا ومقررا	عمار بن خروف	أ/ الدكتور:
عضوا مشرفا مساعدا	صالح بوساليم	الدكتور:
عضوا مناقشا	ارزقي شويتام	الدكتور:
عضوا مناقشا	ابراهيم سعيود	الدكتور:

السنة الجامعية: 1432 - 1433هـ / 2011 - 2012م



شكر وتقدير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم، إن كمال شكر الله شكر الناس، وعليه أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور عمار بن خروف الذي منحني من وقته الثمين القدر الكثير، وقبل الإشراف على دراستي، ولم ييخل عليّ بنصائحه القيمة وتوجيهاته السديدة، من أجل إخراج هذا العمل في أبهى مضمون وشكل . كما لا يفوتني أن أتقدم بشكري إلى المشرف المساعد الدكتور أبو سليم صالح، الذي قدم لي المساعدة ولم ييخل عليّ بتوجيهاته القيمة. كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل الأساتذة الذين ساهموا في تكويني أثناء مرحلة م ا بعد التدرج، وإلى لجنة المناقشة التي صبرت على قراءة عملي هذا وتقويمه . دون أن أنسى القائمين على المكتبة الوطنية بتونس، على ما قدموه لي من مساعدة . وفي الأخير أتقدم بالشكر إلى كل من أمدني بالدعم لإنجاز هذه المذكرة.

الطالب: كمال مايدي.

قائمة المختصرات الواردة في الدراسة

العربية:

الرمز	المعنى
ص	صفحة
ص ص	صفحات عديدة متلاحقة
ط	طبعة
ج	جزء
ب. ت	بدون تاريخ
مج	مجلد
م. ت. م	المجلة التاريخية المغربية
م. د. ت	مجلة الدراسات التاريخية
د. م. ج	ديوان المطبوعات الجامعية
ك. ت	الكراسات التونسية
م. ت. ع. د. ع	المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية
د. ت. م	دفاتر التاريخ المغربية
م. ز	المجلة الزيتونة
غ. م	غير منشورة

الأجنبية:

A. E. S. C	Annales Economies Sociétés Civilisations
C. T	Cahiers de Tunisie
N°	Numéro
P	Page
pp	Pages continues
R. T	Revue Tunisienne
R. O. M. M	Revue de l'occident Musulman et de Méditerranée
R. M. P. N. C	Revue. La Méditerranée, Politique, Négoce et Culture
S. D	Sans Date
T	Tome

تمثل العلاقات في مجملها جسر التواصل الحضاري بين الشعوب في العالم، لذا أولى المسلمون عناية خاصة للعلاقات السياسية، والاقتصادية مع غيرهم من الأمم الأخرى، سواء في حالة السلم أو الحرب، وعليه فإن العلاقات بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط، تفاعلت مع بعضها خلال العصر الحديث، بسبب حصول بعض الدول الأوربية على امتيازات داخل الإيالات المغاربية منحتها لها الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر، فكان هذا بمثابة الأمان الذي ساهم في انتقال الأوربيين إلى الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط.

ومن العوامل التي أثرت في هذه العلاقات تلك التحولات الكبيرة التي مرت بها أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر، والتي أثرت بصورة مباشرة على مسار العلاقات بين الضفتين، ولعل أبرزها قيام الثورة الفرنسية (1789 - 1798م)، وما أعقبها من الحروب التي مارسها نابليون على دول أوروبا الغربية، إضافة إلى محاولة إنجلترا في البحث عن مكان لها في هذا الحوض المتوسطي، بعد خسارتها لمستعمراتها في قارة أمريكا.

إن هذه الأوضاع التي فرضتها الظرفية المتوسطية في هذه الفترة؛ واستقرار الأوضاع الداخلية لتونس ساهمت في بروز شخصية "حمودة باشا" في الحوض الغربي للمتوسط، حيث استطاع أن يبني علاقاته وفق ما تستوجبه مصلحة بلاده، وهدفه في ذلك استعادة مكانة تونس وهيبته في الحوض الغربي للمتوسط؛ والتخلص من السيطرة الأوربية على اقتصاد البلاد بوجه عام، والسيطرة الفرنسية بوجه خاص

وقد تأثرت العلاقات الخارجية لتونس في عصر "حمودة باشا"، بجملة من العوامل الداخلية والخارجية، جعلت هذه العلاقات تتأرجح بين السلم والتوتر . لكن الباي استطاع أن يثبت كفاءة عالية، في التعامل مع كل الظروف، لتحقيق مشاريعه الإصلاحية داخل تونس، واستعادة مكانة تونس في الحوض الغربي للمتوسط.

دوافع اختيار الموضوع:

إن أهمية الأحداث التي شهدتها الحوض الغربي للمتوسط في هذه الفترة، وما أحدثته من تغيرات في خريطة العلاقات بين الضفتين، جعلتني أصب جام اهتمامي على حيثيات هذه العلاقات، وذلك بالتركيز على العلاقات الخارجية لإيالة تونس، فرأيت أن يكون عنوان مذكرتي لنيل درجة الماجستير: "علاقات تونس مع دول أوروبا الغربية المتوسطية وتأثير البحرية فيها في عهد حمودة

باشا من 1782م إلى 1814م.

وفي الواقع هناك دوافع أخرى جعلتني أختار هذا الموضوع ومنها:

1- أن الأستاذ الدكتور "عمار بن خروف" هو أول من لفت انتباهي نحو تونس، حيث كلفني بانجاز بحث حول المصادر والمراجع العربية، التي تخصصت بدراسة إيالة تونس في العصر الحديث . ومن هنا بدأت رؤيتي للموضوع تتضح أكثر بعدما تصفحت فهرس بعض الكتب التي حصلت عليها، وتكونت لدي فكرة على أوضاع تونس بشكل عام.

2- بعد اختياري للإطار الجغرافي الذي سأحوض فيه بحثي، بدأت بالتفكير في الفترة الزمنية التي تمثل مرحلة هامة في تاريخ تونس من جهة، ومن جهة ثانية توفر لي المادة من مصادر ومراجع وحبذا لو تكون هذه الفترة في نهاية العصر الحديث، حتى تكون ترجمة المادة الأجنبية سهلة.

3- إن اهتمامي بدراسة الشخصيات جعلني أربط بين الإطار الجغرافي، الذي اخترته وبين فترة حكم فيها أحد بايات تونس، وبهذا أكون قد حددت الإطار التاريخي، فوقع اختياري على عصر "حمودة باشا"، الذي حكم لفترة قاربت ثلث قرن. مما يدل على أنها فترة مزخمة بالأحداث، في ظل التطورات الكبيرة التي شهدتها أوروبا.

4- وفرة المصادر والمراجع التي سلطت الضوء على سياسة "حمودة باشا" الخارجية، مما دفعني لانجاز هذا البحث.

5- قلة الدراسات والأبحاث التي تناولت الموضوع، على الأقل من خلال البحث الذي قمت به في بعض فهرس الرسائل الجامعية.

- الهدف من الدراسة:

إن الهدف من هذه الدراسة، هو تسليط الضوء على العلاقات الخارجية لتونس في عصر "حمودة باشا"، وذلك بالخوض في العوامل المؤثرة في هذه العلاقات الخارجية، وخاصة تأثير نشاط البحرية التونسية. ثم محاولة التعرف على حيثيات هذه العلاقات الخارجية، وإلى أي مدى نجح الباي في استغلال الأوضاع التي شهدها الحوض الغربي للمتوسط. لتحقيق أهدافه و مشاريعه الإصلاحية داخل تونس.

- الإطار الزمني والمكاني للدراسة:

عندما نبحت في أي موضوع متعلق بحاكم ما، فإنه من الواضح أن يكون تحديدنا للإطار التاريخي مرتبط بتاريخ توليه السلطة، إلى غاية نهاية فترة حكمه، والتي تعتبر في بحثنا هذا تاريخ وفاة الباي. وعليه فإن الإطار التاريخي للبحث ممتد من: (1196 - 1229هـ / 1782م - 1814م)

وقد رجعت إلى الفترة التي سبقت عصر الباي، ليتمكن القارئ من فهم الإطار العام للعلاقات الخارجية بين تونس، و الدول الأوروبية خاصة فرنسا، بحكم المكانة التي حظيت بها في تونس، قبل عصر "حمودة باشا".

– إشكالية الدراسة:

بعد أن تبلورت لي فكرة البحث، بدأت في صياغة الموضوع وفق المادة التي قمت بتجميعها، وقد حملني هذا على طرح جملة من التساؤلات، تتمثل في:

- كيف كانت العلاقات الخارجية لتونس مع دول قبل عهد حمودة باشا؟.
- ما هي الظروف التي نشأ بها "حمودة باشا"، وما هو الدور الذي لعبه والده "علي باشا" لتوليته على حساب ابن عمه "محمود باي"؟.
- ما هي العوامل المؤثرة في العلاقات الخارجية لتونس مع دول غرب أوروبا في عهد حمودة باشا؟.
- كيف استغل حمودة باشا الظرفية المتوسطة في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر لبناء علاقاته مع دول أوروبا الغربية؟.
- إلى أي مدى ساهمت العلاقات الخارجية في انجازات حمودة باشا داخل تونس؟.

– الدراسات السابقة:

إن أهمية هذه الفترة في تاريخ العلاقات بين الضفتين، جعلت الباحثين يهتمون بكل تفاصيل أحداثها، سواء المؤرخين الأقدمين منهم والمحدثين، فألفوا فيها كتباً ومقالات من عدة جوانب وحظيت تونس بنصيب وافر من هذا التأليف، ولعل أبرز الدراسات التي تناولت موضوع بحثنا كانت للدكتور رشاد الإمام في كتابه بعنوان: **سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814م**. والدراسة التي قام بها الدكتور محمد فوزي المستغامي في أطروحة جامعية بعنوان: **بلاط باردو في زمن حمودة باشا 1782-1814م**.

ورسالة الدكتوراه للأستاذ شكيب بن حفري التي تناول فيها العلاقات التونسية الإسبانية وهي بعنوان: **-Las Relaciones Entre Espana, El Imperio Otomano y Las Berberiscas En el Siglo XVIII (1759- 1792)**

والدراسة التي قام بها "Gaston Loth"، والتي تناول فيها العلاقات مع إسبانيا وهي بعنوان: **-Arnoldo Soler Chargé D'Affaires D'Espagne A Tunis Et Sa Correspondance 1808 – 1810.**

كما لا يفوتني الإشارة إلى الدراسة التي قام بها الأستاذ الدكتور عمار بن خروف بعنوان :
علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات 1671 - 1830م. التي أشار فيها إلى
علاقات تونس الخارجية في هذه الفترة التي نحن بصدد دراستها.
وما يجب الإشارة إليه أن هذه الدراسات، قد تناولت العلاقات في عصر "حمودة باشا" من
عدة زوايا، فوفرت لنا مادة تاريخية تساعد الباحث في انجاز دراسة جيدة التوثيق.

– المنهج المتبع في الدراسة:

لقد اتبعت في دراستي هذه المنهج التاريخي الوصفي التركيبي التحليلي، باعتباره منهجا صالحا
لتتبع الوقائع والأحداث التاريخية و الأوضاع التي سبقتها، وتحليلها تحليلا علميا بعيدا عن الذاتية و
الأحكام الفردية، للوصول إلى النتائج المرجوة، و الإجابة عن التساؤلات التي طرحت في فصول هذه
الدراسة.

– الخطة المعتمدة في الدراسة:

اعتمدت في دراستي على خطة اشتملت على مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة ألخصها فيما يلي:
الفصل الأول: بمثابة الفصل التمهيدي، وهو بعنوان : **جوانب عن العلاقات الخارجية قبل
1196هـ/1782**. وقد قسمت هذا الفصل إلى مبحثين، ففي المبحث الأول حاولت إعطاء جوانب
عن العلاقات الخارجية لتونس منذ أن اعتلى البايات الحسينيين وصاية عرش تونس على حساب
الدايات المراديين في بداية القرن الثامن عشر، إلى غاية بداية عهد حمودة باشا، وهذا لإدراك المنحى
الذي سارت عليه العلاقات بين تونس ودول غرب أوربا قبل عصر حمودة باشا.
أما المبحث الثاني أشرت فيه إلى مولد حمودة باشا، ونشأته و الظروف التي ساهمت في تكوين
شخصيته، وتميزه منذ صغره عن باقي أفراد العائلة إلى غاية أن أصبح بايا لتونس.
أما الفصل الثاني عنوانه: العوامل المؤثرة في العلاقات الخارجية أثناء عهد حمودة باشا .
وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاث مباحث، تناولت في المبحث الأول العوامل الداخلية المؤثرة في
العلاقات الخارجية لحمودة باشا مع دول غرب أوربا . مركزا بذلك على الظروف الصعبة التي حكم
فيها الباي، والمتمثلة في العجز المالي، والأوبئة التي اجتاحت تونس في عهده . هذه المخاطر فرضت
عليه أن يرفع شعار السلم، حتى يحصل على أموال تساعد على مجابهة هذه المخاطر الداخلية، وفي
نفس الوقت سيحصل على الأسلحة، و الذخائر الحربية مقابل هذا السلم مع دول غرب أوربا، وهذا
ما يجعله يأخذ بأسباب القوة لتعزيز سلطته في الحوض الغربي للمتوسط.

إضافة إلى هذا فقد أدرجت الدور الكبير، الذي لعبه رجال البلاط من الوزراء والمستشارين، في توجيه سياسة حمودة باشا، فأثروا بذلك على العلاقات الخارجية، خاصة مع فرنسا.

أما المبحث الثاني فقد خصصته للعوامل الخارجية المؤثرة في العلاقات الخارجية، مسلطا الضوء على تأثير العامل الديني، باعتباره المحرك الأساسي في التصادم بين الضفتين طيلة العصر الحديث. وقد تجسد هذا الصراع الديني، في النشاط الذي مارسته البحرية التونسية، ونقصد به نشاط القرصنة البحرية، حيث وجد فيه "حمودة باشا" مصدرا كبيرا للأموال، لذا حظي هذا النشاط بدعم الباي، خاصة ضد الدويلات الإيطالية، وعليه كانت العلاقة في توتر مستمر، إلى غاية أن أصبحت بعض هذه الدويلات مثل مملكة نابل، وصقلية، ومالطة من توابع فرنسا وإنجلترا، اللتان دخلتا في مفاوضات مع الباي باسم هذه الدويلات، لتقوم بعملية افتداء أسراهم. ومنه نستطيع القول أن عملية افتداء الأسرى، فتحت بابا آخر في العلاقة بين تونس ودول غرب أوروبا.

والمبحث الثالث أشرت فيه إلى تأثير النشاط الثاني، الذي مارسته البحرية التونسية، حيث شكلت التجارة الخارجية عاملا مؤثرا في علاقات الباي مع دول غرب أوروبا. وقد تجسد هذا في عقد معاهدات تجارية بين تونس وهذه الدول، مما جعل نشاط التجارة الخارجية يتفوق على نشاط القرصنة. مما أعطى لتونس مكانة أكبر في الحوض الغربي للمتوسط، حتى وصفت في عهد حمودة باشا، بأنها شنغهاي البحر المتوسط.

أما الفصل الثالث بعنوان: العلاقات الخارجية لتونس مع دول غرب أوروبا، وقد قسمته

بدوره إلى ثلاث مباحث تناولت في أولها السياسة التي انتهجها حمودة باشا مع دول غرب أوروبا بشكل عام، ثم عرجت على الظروف التي شهدتها الحوض الغربي للمتوسط في هذه الفترة، حتى ندرك خلفية سياسة "حمودة باشا". وبعد هذا تناولت علاقة الباي مع بعض الدويلات الإيطالية، وخاصة التي كانت في عداوة مستمر مع تونس، ونخص بالذكر كل من جمهورية البندقية. ومملكتي نابل وصقلية عندما أصبحتا، في مطلع القرن التاسع عشر، من توابع فرنسا وإنجلترا.

وفي المبحث الثاني أشرت إلى علاقة "حمودة باشا" مع فرنسا، وكيف استغل ظروف الثورة الفرنسية، بإلغائه للمعاهدات معها من أجل تجديدها، حتى يضمن أمولا وهدايا أكثر. وقد خصصت المبحث الثالث لعلاقة "حمودة باشا" مع إسبانيا، هذه الأخيرة التي تبنت سياسة المهادنة مع الإيالات المغربية والمغرب الأقصى، في نهاية القرن الثامن عشر. وقد ختمت دراستي هذه، بخاتمة تناولت فيها أبرز النتائج، التي توصلت إليها

- التعريف بأهم مصادر ومراجع الدراسة:

اعتمدت في إعداد هذه الرسالة على وثيقة مترجمة من اللغة العثمانية إلى العربية، و صفحات من مؤلف مخطوط، إضافة إلى بعض المصادر والمراجع العربية والأجنبية، والدراسات و بشكل أكبر على المقالات و الدراسات المختصة في موضوع العلاقات الخارجية لتونس، في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر.

أولا: الوثائق المخطوطة:

* أثناء عملية البحث سلمني أحد الزملاء وثيقة عثمانية تمثل نص للمعاهدة المبرمة بين تونس وفرنسا في 1216هـ / 1802م، باللغة العثمانية، والترجمة العربية . وهي موجودة ضمن مجموعة وثائق الخط الهمايوني، عدد 14081.

ثانيا: الوثائق المنشورة:

لقد نشر الكثير من الوثائق الخاصة بعلاقات تونس مع دول غرب أوروبا في زمن حمودة باشا . سواء في بعض المؤلفات أو المجالات التاريخية، التي استفدت منها كثيرا وهي:

1- مجموعة الوثائق التي نشرها Plantet (E)، والتي أطلق عليها اسم : مراسلات بايات تونس وقنصل فرنسا مع بلاط فرنسا (1770-1830).

-Correspondance Des Beys de Tunis et Des Consuls De France avec la Cour (1770- 1830).

وقد نشرها في ثلاث مجلدات مابين 1893- 1899 بباريس، فكانت استفادتي من الجزء الثالث الذي يغطي الفترة التاريخية التي حكم فيها حمودة باشا . ويعتبر هذا الكتاب أهم كتاب موثق لتاريخ تونس الحديث، وترجع أهميته إلى كون وثائقه أصلية تعالج الجانب السياسي والدبلوماسي أكثر من الجانب العسكري والاقتصادي.

2- الوثائق التي نشرها "بيرغرانشان" "P. Grandchamp" في مجموعتين الأولى أسماها:

- Document Concernant la Course Dans la Régence de Tunis, de 1764 à 1769 et de 1783 à 1843.

وهي منشورة في الكراسات التونسية في العدد (19-20). والمجموعة الثانية نشرها في تونس سنة 1925م في كتاب بعنوان:

-Documents Relatifs Aux Corsaires Tunisiens (2 octobre 1777- 4 mai 1824).

وكلا المجموعتين تتضمن إحصائيات هامة عن ممولي نشاط القرصنة، وأسماء وعدد السفن التي مارست هذا النشاط وحمولتها من مدافع وذخائر حربية، كما حدد بها مكان الانطلاق ووجهتها في هذه الفترة المشار لها في العنوان. وفي نهاية المجموعة الثانية أعطى تعريفا لكل سفينة.

3- مراسلات أرنولد سولر Arnoldo. Soler المكلف بشؤون اسبانيا في تونس ما بين 1808-1810، والتي نشرها في المجلة التونسية عدد 12، سنة 1905 بعنوان:

- Chargé d'affaires d'Espagne a Tunis et Sa Correspondance 1808 – 1810.

وقد استفدت منها كثيرا فيما يخص علاقة تونس مع اسبانيا ما بين 1808-1810م.

4- الوثائق التي نشرها نور الدين الحلاوي حول **العلاقة بين تونس واسبانيا**، في المجلة التاريخية المغاربية عدد (15-16)، في سنة 1979م، تحت عنوان: وثائق عن العلاقات بين تونس واسبانيا يشير فيها إلى علاقة تونس مع إسبانيا بعد إبرام معاهد الصلح، ثم يتعرض للعلاقات الثنائية بينهما من خلال عرضه للمجموعة من الرسائل باللغة العربية.

ثالثا- المؤلفات المخطوطة:

استفدت من بعض المؤلفات التي لا تزال مخطوطة، والمتعلقة بالفترة التي نحن بصدد دراستها، ومن أهم تلك المخطوطات:

- **الكتاب الباشي**: لمؤلفه حمودة بن عبد العزيز، الذي توفي في 1202هـ/ 1788م، وهو الوزير الكاتب في عصر علي باشا بن الحسين بن علي الحسيني والد حمودة باشا، والكتاب يعتبر مصدر مهم في هذه الفترة، وقد قام محمد ماضور بتحقيق جزء منه ونشره باسم " قسم السيرة" سنة 1980م بتونس، أما القسم الثاني مازال مخطوطا بدون نشر أو تحقيق موجود بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 1794. وقد استفدت من الجزء الأول أكثر من الجزء المخطوط الذي تحصلت على بعض الصفحات منه فقط.

رابعا- المصادر العربية والمعربة:

1- المصادر العربية:

- **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**: لمؤلفه أحمد بن أبي الضياف، الذي عاش في الفترة الممتدة من (1219 - 1291هـ/ 1804 - 1874م)، وعلى الرغم من أن تأليف كتابه الذي يتكون من ثمانية أجزاء كان في فترة متأخرة على الفترة التي نحن بصدد دراستها إلا أنه يعتبر مصدر هام لا يمكن الاستغناء عنه، ذلك أن مؤلفه منذ طفولته كان مخالطا لرجال دولة حمودة باشا،

لأنه كان يصاحب أبيه المطلع على الكثير من خبايا الدولة، وعلي هـ فقد كان المؤلف يسند الحوادث التاريخية إلى المسؤولين الذين عاصروا الأحداث.

وهذا الكتاب يؤلف لفترة طويلة الممتدة من الفتح الإسلامي لتونس إلى غاية الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، مركزا على العهد الحسيني، وقد استفدت بالدرجة الأولى من الجزء الثاني الذي يؤرخ لعصر علي باشا، والجزء الثالث يؤرخ لعهد حمودة باشا، والجزء السابع الخاص بالتراجم لأهم الشخصيات التي عاصرت هذه الفترة.

- **المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي** : لمؤلفه محمد الصغير بن يوسف الباجي، وقد قام فيكتور سيريس Victor Serres، ومحمد الأصرم بترجمته إلى الفرنسية ونشره في سنة 1900م وأعدت مؤسسة بوسلامة نشره بعنوان Chronique Tunisienne، وقد اعتمدت في دراستي على هذه النسخة المترجمة إلى الفرنسية.

- **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار** : لمؤلفه محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي، المتوفي سنة 1228هـ/ 1814م، اعتمدت في هذا الكتاب على الجزء الثاني المخصص لتاريخ تونس في العهد العثماني، مع تركيزه على تاريخ تونس في العهد الحسيني، وبالأخص في عهد حمودة باشا.

- **الكتاب الباشي** : للوزير حمودة بن عبد العزيز، قسم السيرة المحقق، يشير إلى تفاصيل هامة عن سيرة حمودة باشا قبل توليه وصاية عرش تونس، وفيه إشارات للعلاقات بين تونس وفرنسا في عهد علي باشا.

- **الخلاصة النقية في أمراء إفريقيا** : لأبي عبد الله الشيخ محمد الباجي المسعودي المولود سنة 1225هـ، وقد ذكر فيه أخبار أمراء تونس منذ الفتح الإسلامي لها إلى غاية عهد المشير الباشا أبي العباس أحمد، معتمدا في ذلك على ما جاء في مؤلفات أحمد بن أبي الضياف، والوزير السراج، وغيرهم. ويعتبر الكتاب مصدر مهم لأنه ألف بعد عهد حمودة باشا.

- **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** : لمؤلفه محمد بن محمد مخلوف، استفدت من الجزء الثاني، الذي أورد فيه أخبار باجيت الدولة الحسينية، ورغم أنه كان موجز إلا أننا لا نستطيع الاستغناء عنه.

- **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك** : تحقيق المنصف شنوفي، طبع الكتاب بتونس سنة 1283هـ، وقدم لنا دراسة شاملة عن دول غرب أوروبا في القرن التاسع عشر، من حيث جغرافيتها، وقواتها العسكرية، ونشاط البحرية، وتجارتها الخارجية.

- **تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان** : لمؤلفه محمد بن عمر التونسي، وهو رحالة تونسي، والكتاب حققه وكتب حواشيه خليل محمد عساكر ومصطفى محمد مسعد، وراجعه محمد مصطفى زيادة، استفدت من الباب الأول في الكتاب، الذي أورد أخبار وزير حمودة باشا يوسف خوجة صاحب الطابع.

- **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**: لمؤلفه محمد بيرم الخامس التونسي، طبع الكتاب بالمطبعة الإعلامية بمصر، وقام مصطفى قشيشة الأزهرى بتحريره، وقدم لنا الكتاب معلومات هامة عن سياسة فرنسا اتجاه الإيالات المغاربية، بالإضافة إلى طبيعة المبادلات التجارية بين هذه الإيالات وفرنسا، والدويلات الايطالية.

2- المصادر المعربة:

- **رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1732م-1145هـ)**: الكتاب عبارة عن مجموعة من الرسائل، قام الأستاذ ناصر الدين سعيدوني بتعريبه وتحقيقه، وقد استفدت من الوصف الذي قدمه للأماكن التي زارها بتونس، كما أنه أشار إلى العلاقات الخارجية قبل عصر الباي.

خامسا- المصادر الأجنبية:

- **Venture De Paradis: Tunis et Alger au XVIII siècle.**

كتاب يتناول تاريخ تونس والجزائر في القرن الثامن عشر، وقد قام "جوزيف كوك" "J. Couq" بنشره سنة 1983م. والكتاب مهم جدا لأن "فانتور دوبارادي" كان مترجما لدى القنصلية الفرنسية خلال إقامته في تونس خلال الفترة 1780-1786 هذا ما جعله يلم بتفاصيل الحياة في تونس، فكانت استفادتي منه كبيرة لأنه يشير إلى موضوع البحث بشكل مباشر، خاصة فيما يتعلق بتجارة تونس مع دول أوروبا الغربية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

- **M. Thomas Maggil: Nouveau Voyage a Tunis:**

الكتاب للتاجر البريطاني الذي زار تونس في سنة 1808م، واستطاع أن يمكث فيها لمدة من الوقت، هذا جعله يلم بالوضع التجاري في تونس، وعلاقتها التجارية مع مختلف دول غرب أوروبا..

- **Marcel. J. J: Histoire de Tunis Précédée D' un Description de Cette Régence:**

قام ج. مارسيل بنشر كتاب لويس فرانك، وهو الطبيب الخاص للباي، الذي أقام في تونس لمدة ثماني سنوات امتدت من 1806-1814م، و المعلومات التي قدمها حول حكومة الباي، واقتصاد البلاد، تصب في صميم الموضوع، لكنني حصلت على جزء منه فقط عن طريق أحد الزملاء.

- المراجع العربية والمعرّبة:

1- المراجع العربية:

- سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814م: لمؤلفه الدكتور رشاد الإمام، ويعتبر هذا الكتاب أهم ما ألف عن عهد حمودة باشا، لذا كانت استفادتي منه كبيرة، لكن ما يلاحظ انه لم يتناول العلاقات الخارجية في عصر الباي بالتفصيل، واكتفى بإعطاء لمحة قصيرة عن المعاهدات التي أبرمها حمودة باشا مع دول أوروبا الغربية، دون الخوض في حيثياتها.
- الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا: لمؤلفه عزيز سامح ألتر، وقد قام عبد السلام أدهم بتعريب الجزء الخاص بتاريخ تونس وطرابلس الغرب، نشر بلبنان سنة 1969م، وقد استفدت من هذا الكتاب كثيرا لأنه يشير إلى موضوع الدراسة بشكل مباشر، لذا يعتبر أحد المراجع المهمة.
- خلاصة التاريخ التونسي: لعمر الركباني، يمتد إطاره التاريخي من بداية عهد قرطاجنة إلى حادثة الاحتلال الفرنسي لتونس، وقد تناول في أحد فصوله تاريخ أمراء الدولة الحسينية، وخصائص حكمهم، وأبرز إنجازاتهم، وقد تطرق أيضا إلى الحرب التي خاضها حمودة باشا ضد جمهورية البندقية.
- خلاصة تاريخ تونس: لعبد الوهاب حسن حسني، وقد سرد فيها الوقائع التاريخية ومظاهر الحضارة في كل عصر من عصور تاريخ تونس الممتدة من الفتح الإسلامي لتونس إلى غاية نهاية عصر الدولة الحسينية، كما أنه قدم ترجمة لبعض المشاهير التونسيين في كل فترة.
- اباضية جربه في العصر الحديث: للدكتور محمد المريني، تناول الكتاب دور عائلة آل الجلولي في التجارة الخارجية لتونس، ونفوذهم السياسي في بلاط الباي.

2- المراجع المعرّبة:

- الحوليات التونسية: لمؤلفه ألفونصو روسو (A. Rousseau)، وعربه محمد عبد الكريم، وقد صدر هذا الكتاب سنة 1864م بالجزائر وأعدت مؤسسة بوسلامة إصداره بتونس سنة 1980م والكتاب يؤرخ للفترة الممتدة من (1535م- 1830م). وقد استفدت كثيرا من هذا المرجع، لأنه تطرق إلى

العلاقات الخارجية لتونس بالتفصيل، لكن ما يلاحظ أن هناك تشابه في المادة التاريخية مع كتاب إتحاف أهل الزمان لأحم بن أبي الضياف .

- تاريخ تونس من عصور ما قبل التوحيد إلى الاستقلال : لمحمد الهادي الشريف، وقد قام محمد الشاوش ومحمد عجيبة بتعريبه ونشره بدار سراس للنشر سنة 1993م، ويتناول في دراسته أهم العصور التاريخية لتونس من الفتح الإسلامي إلى غاية الاستقلال عن فرنسا، لذا كانت الدراسة مختصرة، أما عن موضوع الدراسة، فقد تطرق إلى الحرب بين تونس وجمهورية البندقية.

- المغرب العربي قبل احتلال الجزائر 1790 - 1830م: للوسات فلنزي، وترجمه إلى العربية حمادي الساحلي بدار سراس للنشر، وهو كتاب هام يتناول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في أقطار المغرب العربي الثلاثة (تونس و الجزائر والمغرب الأقصى)، لذا كانت استفادتي منه كبيرة.

سادسا- المراجع الأجنبية:

- **E. Rouard de card: Traites de la France avec Les Bays de L'Afrique, Algérie, Tunisie, Maroc.**

الكتاب مهم جدا في موضوع العلاقات، لأنه يقدم كل المعاهدات التي أبرمتها فرنسا مع دول شمال أفريقيا الجزائر، وتونس، وطرابلس الغرب، والمغرب الأقصى، من بداية القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، فكانت استفادتي منه في الفصل الثالث المتعلق بالمعاهدات التي أبرمتها فرنسا مع تونس طيلة العهد الحسيني.

- **Pierre Grandchamp: Auteure de Consulat de Frans a Tunis (1577- 1881):**

يقدم الكتاب معلومات مهمة عن حمودة باشا، كما أنه يبين طبيعة علاقاته مع ممثلي الدول الأوروبية في تونس، وخاصة قناصل فرنسا. كما يشير إلى علاقة القناصل الأوربيين مع بعضهم البعض.

- **Khalifa Chater: Dépendance et Mutations Précoloniales La Régence de Tunis (1815- 1857)**

الكتاب مهم جدا في الدراسة لأنه يتناول سياسة حمودة باشا الخارجية، ويركز على العوامل المؤثرة في هذه العلاقات، ونخص بالذكر نشاط القرصنة؛ حيث قدم عدة إحصائيات تبين لنا طبيعة نشاط البحرية التونسية سواء نشاط القرصنة، أو التجارة الخارجية، إضافة إلى السياسة التجارية التي انتهجها حمودة باشا.

- **Daniel Banzak: Les Corsaires Barbaresque a La Fin D'une Epopée 1800 - 1820.**

قدم دنيال بنزاك دراسة قيمة حول نشاط القرصنة في الإيالات المغاربية، وكانت استفادتي منه بالشرط المتعلق بالقرصنة التونسية، والتي قدم حولها عدة إحصائيات متبوعة بالتحليل . كما أنه تعرض إلى التجارة الخارجية لتونس وبين طبيعة المبادلات التونسية مع دول غرب أوروبا في عصر حمودة باشا. أما باقي المراجع الأجنبية، فقد تناولت بعضها العلاقات التجارية بين تونس وفرنسا مثل:

- **F. Armoulet: Les Relation de Commerce entre La France et La Tunis de (1815- 1886).**

- **V. Valensi: Histoire Economique et Sociale de Monde.**

- **Paul Masson: Histoire établissement et de Commerce Français dans L'Afrique Barbarecque (1560- 1793).**

والمراجع المتبقية تناولت العلاقات بشكل عام مثل:

-**Abel Clarin De Larive: Histoire Générale De La Tunis Depuis L'an 1590 avant jusqu' en 1883.**

-**Jules Ferry: La Tunisie Avant et Depuis L'occupation Française, T 1.**

كما أنني استعنت بالكثير من المقالات المنشورة في المجلة التونسية "R. T" ، والكراسات التونسية "C.T" ، ومجلة إيلا "IBLA" ، والمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، وغيرها من المجلات الأخرى. إضافة إلى بعض الرسائل الجامعية، التي استفدت منها كثيرا.

- الصعوبات المعترضة:

لا يخلوا أي بحث علمي من الصعوبات، التي تشكل للباحث عقبة سرعان ما تصبح في طي النسيان بعدما يكتمل عمله . ولعل أبرز هذه الصعوبات التي وقفت عندها، هي عملية البحث عن المادة، مما جعلني أتوجه إلى تونس لهذا الغرض، فكانت وجهتي في البداية إلى مركز عبد الجليل التميمي للدراسات والأبحاث، وجامعة العلوم الإنسانية، والمكتبة الوطنية، ومركز الأرشيف الوطني التونسي. ورغم هذا لم أستطع جلب بعض الدراسات الهامة، خاصة الجزء المخطوط من الكتاب الباشي. لكن أحد الزملاء منحني بعض الصفحات منه.

إضافة إلى بعض المصادر الهامة، ومن بينها كتاب "رسالة في السياسات الشرعية" لأبي عبد الله محمد بن حسين بيرم، وكتاب " الفخرية في فضل الدولة الحسينية " مؤلفه مجهول، وأرجوزة محمد بن الطيب بن سلامة المسماة " الدرّة النفيسة في أمراء تونس الأنيسة ". كما أنني لم أعتز على بعض كتب الرحالة الذين زاروا تونس أو أقاموا بها ومن أبرزهم الكتاب الذي ألفه ديفونتان "Desfontaines" بعنوان "Voyages Dans Les Régences de Tunis et Alger".

كما أن وفاة الأستاذة الفاضلة "عائشة غطاس" رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه، كان صدمة كبيرة لي . فقد ساعدتني كثيرا بنصائحها القيمة، وبالدراسات التي أرشدتني إليها، أو قدمتها لي، أو لزملائي.

وفي الختام أتقدم بالشكر إلى الأستاذ المشرف الدكتور **عمار بن خروف**، الذي وافق الإشراف على عملي هذا بصدر رحب رغم ضيق الوقت، وما يثقل كاهله من أعمال أخرى . كما أتقدم بشكري إلى الدكتور أبو سليم صالح على اهتمامه، ونصائحه وسعة صدره . وأشكر كل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو من بعيد لإنجاز هذا العمل.

و أخيرا وليس أخيرا فان أصبت في عملي هذا فبتوفيق من الله، وإن كان غير ذلك فحسبي أنني حاولت دون كلل أو ملل، طامعا في أن أستفيد من توجيهات لجنة المناقشة، التي وكل إليها عملي للتقويم والمناقشة والتصحيح، والله ولي التوفيق.

غرداية في:

الموافق ل:

الطالب: مايدي كمال.

عرفت تونس في بداية القرن الثامن عشر اضطرابا داخليا كبيرا؛ بسبب الممارسات التعسفية، التي قام بها "إبراهيم الشريف" ضد سكان تونس، أثناء فترة حكمه الممتدة من (1114-1117هـ/ 1702-1705م). إضافة إلى توتر علاقته مع الجزائر؛ التي وجهت له حملة سنة 1117هـ/ 1705م أسر خلالها. ونتيجة لهذا الانهزام تم تعيين "حسين بن علي بن تركي"، على وصاية عرش تونس. وبهذا تأسست الدولة الحسينية في سنة 1705م، والتي توارد على كرسي الإمارة بها تسعة عشر أميرا من العائلة الحسينية.

إن اهتمام الأمراء الحسينيين بتنظيم شؤون تونس الداخلية والخارجية، غير ملامح إيالة تونس خلال القرن الثامن عشر. حيث أصبحت أكثر تنظيما. لأن البايات حاولوا الاستفادة من الامتيازات التي منحت لفرنسا، والمتعلقة بصيد المرجان على سواحلها. ومقابل هذا تقلص نشاط القرصنة التونسية خلال هذه الفترة.

وعليه فإن العلاقات الخارجية في عهد الأسرة الحسينية، قد تأثرت بصفة مباشرة بنشاط البحرية بين تونس ودول غرب أوروبا، سواء نشاط القرصنة البحرية، أو نشاط التجارة الخارجية التي اعتبرت البديل الأساسي لنشاط القرصنة، في ظل التنافس الأوربي للحصول على امتياز صيد المرجان في المياه التونسية.

وفي خضم هذه الأوضاع بدأت تبرز شخصية "حمودة باشا"، الذي ساهمت الظروف في تميزه عن باقي أفراد العائلة الحسينية، مما مهد له الطريق مبكرا لولاية عرش تونس. فهناك مؤشرات تدل على هذا التميز، لا من طرف العائلة فقط، وإنما كذلك من طرف المجتمع نتيجة لما يتسرب من معلومات خارج أسوار القصر. وقد اهتم "علي باشا" بتكوين ابنه في وقت مبكر وهذا يدل على رغبته في تمرير السلطة إليه. حيث خصه بالخروج معه في المحلة العسكرية؛ حتى يتسنى لأعيان البلاد التعرف عليه من جهة، ومن جهة أخرى إدخاله في مرحلة لتكوين العملي الذي يمهده له ممارسة السلطة وانتقالها له في ظروف حسنة، وخاصة عندما نعلم أن ابن عمه "محمود باي" هو الوريث الشرعي لوصاية عرش تونس، باعتباره أكبر من "حمودة باشا". ومن خلال هذا العرض يمكن أن نتساءل: كيف كانت الملامح العامة للعلاقات الخارجية لتونس قبل عصر حمودة باشا؟.

و ما هي الظروف التي ساهمت في اعتلاء حمودة باشا وصاية العرش في تونس؟.

المبحث الأول:

جوانب عن علاقات تونس الخارجية من (1117-1173 هـ / 1705-1759م):

1- لمحة تاريخية عن قيام الدولة الحسينية بتونس:

عرفت تونس في نهاية القرن السابع عشر عدة اضطرابات، بسبب تنافس الأمراء المراديين على كرسي العرش. ففي سنة 1110هـ / 1698م، قام "مراد باي" بسجن عمه "رمضان باي"، الذي كان بايا على تونس، ثم قتله واعتلى عرش تونس⁽¹⁾ بعدما تمت بيعته في 8 رمضان 1110هـ. وبعد استتباب الأمن له في تونس؛ خرج في حرب ضد الجزائر انتهت بهزيمته في 29 ربيع الأول 1112هـ / 1701م، لكنه أراد أن يحاول مرة ثانية؛ فأرسل "إبراهيم الشريف" إلى الباب العالي لطلب العون، فصادف هناك مبعوثين جزائريين عند السلطان العثماني⁽²⁾، الذي عقد الصلح بين "إبراهيم الشريف" ومبعوثي الجزائر. ثم رجع "إبراهيم الشريف" ومعه الصلح إلى "مراد باي"، الذي لم يعترف بهذا القرار، وأصر على خوض الحرب ضد الجزائر، وأثناء خروجه في حرب الجزائر قام "إبراهيم الشريف" بقتل "مراد باي"، قرب منطقة باجة في سنة 1113هـ / 1702م⁽³⁾.

توجه "إبراهيم الشريف" بعد هذا من باجة إلى تونس، وتبعه من تواطؤوا معه في قتل "مراد باي"، وتبعهم الحاضرون. وتمت له البيعة في شهر محرم 1114هـ / 9 جوان 1702م⁽⁴⁾. وبعد أن تمكن "إبراهيم الشريف" من الحكم بدأ في ظلم الناس، وخاصة العرب لكره الشديد لهم، مما أثار غضب الأهالي⁽⁵⁾، وغضب الجزائر التي أرسلت حملة إلى تونس للقضاء على "إبراهيم الشريف"،

(1) Thomas Maggil: **Nouveau Voyage A Tunis**, Publié en 1811, Editeur De Dictionnaire, Des Sciences Médicales, Paris 1815, p 10.

(2) هو السلطان مصطفى الثاني، ولد سنة 1074هـ، وجلس على كرسي الحكم سنة 1106هـ، وعمره 32 سنة؛ ومن أبرز أعماله حربه ضد النمسا، وفي عام 1114هـ / 1702م مسلم السلطة لأخيه السلطان أحمد، وبعد مضي خمسة أشهر من اعتزاله مقاليد الحكم توفي وذلك سنة 1115هـ. أنظر: حضرت عزت ويوسف بك أصف: تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم محمد زينهم محمد عزب، ط 1، مكتبة مدبولي، القاهرة 1995، ص ص 97، 98.

(3) بمقتل "مراد باي" سقطت دولة بني مراد بتونس. أنظر: محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء افريقية، ط 2، مطبعة بيكار تونس 1323 هـ، ص 113.

(4) محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ و الأخبار، تحقيق علي الزاوي و محمد محفوظ، 2 مج، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، مج 2، ص 148.

(5) للإطلاع على الثورات التي واجهت استبداد "إبراهيم الشريف" داخل تونس. أنظر: المصدر نفسه، ص ص 149، 150.

ووقعت الحرب بينهما، في أول محرم 1117هـ / 25 أبريل 1705م. وانتهت الحرب بهزيمة "إبراهيم الشريف" الذي أسر من طرف الجزائريين، بعد حكم دام ثلاثة سنوات وشهرين وخمسة أيام⁽¹⁾. ولما بلغ الخبر أهل تونس اجتمع أهل الحل والعقد وأكابر العسكر؛ فنصبوا ديوانا لتولية من يصلح للقيام بأمر وشؤون أهالي تونس، وفي 20 ربيع الأول 1117هـ / 12 جويلية 1705م⁽²⁾ تمت البيعة "للحسين بن علي التركي"⁽³⁾. المعروف بجزمه وحكمته في تسير شؤون المهام، التي أوكلت إليه سابقا. وهنا نشير أن "حسين بن علي تركي" لم ينتزع العرش بالقوة مثل سابقيه من الأمراء في تونس، بل قدمت له، حتى قيل فيه:

أنته الخلافة منقادة إليه تجر أذيالها.

فلم تك تصلى إلا له ولم يك يصلى إلا لها⁽⁴⁾.

وبهذا دخلت تونس فترة جديدة في تاريخها، وذلك بوصول الأسرة الحسينية إلى الحكم في ظروف صعبة، لكن مؤسس الدولة "حسين بن علي التركي" استطاع أن يضمن له ولأبنائه من بعده شرعية وراثية العرش في تونس⁽⁵⁾. وهذا ما أطال في عمر الدولة الحسينية، التي استمرت إلى غاية سنة 1957م⁽⁶⁾.

بدأ تركيز الأمراء الحسينيين على مقاومة الهيمنة الجزائرية، وتسلب الدول الأوربية المتزايد داخل تونس وخاصة فرنسا، مما أدى بهم إلى توسيع دائرة علاقاتهم الخارجية، حتى يقللوا من نفوذ هذه الدول داخل تونس⁽⁷⁾، ويتضح ذلك من خلال الملامح التالية:

(1) محمد الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 114.

(2) محمود مقديش: المصدر السابق، مج 2، ص 154.

(3) ولد سنة 1086هـ / 1675م، قدم والده من بلاد الروم وأصله من جزيرة كندية، كان أبوه قائدا بها، نشأ ابنه حسين في خدمة محمد باي ومن بعده أخاه رمضان باي، ومن بعده مراد باي، ثم إبراهيم الشريف. أنظر: محمود مقديش: المصدر نفسه، مج 2، ص 155.

كما أنه تقلد منصب خزنه دار، وكاهية دار الخلافة، وآغا الصبايحية، في عهد المراديين. أنظر: محمد الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 114.

(4) نفسه، ص 115.

(5) شارل أندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزايين والبشير بوسلامة، عدد الأجزاء 3، ط 3، الدار التونسية للنشر 1978، ج 2، ص 382.

(6) عبد الوهاب حسن حسني: خلاصة تاريخ تونس، دار الفنون، تونس 1373هـ، ص ص 167-177.

(7) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 382.

- علاقات حسين بن علي التركي (1117-1153 هـ/1705-1740م).
 - علاقات علي باي بن محمد بن علي تركي (1153-1169 هـ / 1740-1756م).
 - علاقات علي باشا بن حسين بن علي تركي (1172-1196 هـ/ 1759-1782م).
- أولاً- علاقات حسين بن علي التركي (1117-1153 هـ/1705-1740م):

1- العلاقة مع فرنسا:

عرف عهد "حسين بن علي" نشاطا اقتصاديا كبيرا، حيث ازدهرت التجارة الخارجية المتمثلة في تصدير زيت الزيتون، والقمح والصوف والجلد والشمع والتمر⁽¹⁾، ويصف "ابن أبي الضياف" الوضع الاقتصادي بقوله: «...وسعدت المملكة وأهلها بيمينه، وامتألت أيديهم بالمكاسب ف ألتثوا الأرض، وعمروها بالحبوب والأشجار...»⁽²⁾.

أبدى "حسين بن علي" رغبته في إقامة علاقات طيبة مع فرنسا، لكن استمرار نشاط القرصنة التونسية ضد السفن التجارية الفرنسية حال دون تحقيق ذلك⁽³⁾. إضافة إلى محاولة الشركة التجارية الفرنسية لخرق بعض بنود الاتفاقية، التي حصلت الشركة بموجبها على امتياز صيد المرجان في جزيرة طبرقة سنة 1121هـ/1710م⁽⁴⁾.

وهذا ما اضطر الباي لا استعمال القوة لإجبار هذه الشركة على الالتزام بالاتفاقية المبرمة، وخاصة فيما يتعلق، بلحترام حدود المنطقة البحرية، المسموح للشركة بصيد المرجان بها. وازداد التوتر بين البلدين بسبب استيلاء إحدى البوارج الفرنسية على سفينة شحن على متنها بضائع تونسية، حيث طالب "حسين بن علي" تعويضات قدرت بعشرة آلاف قرش عثماني⁽⁵⁾، واضطر القنصل، والتجار الفرنسيون إلى القبول بالدفع، لكن الأمر استعصى عليهم فيما بعد، مما جعل حكومة فرنسا ترسل أسطولا صغيرا للتفاوض مع الباي.

(1) Abel Clarin De Larive: **Histoire Générale De La Tunis Depuis L'an 1590 avant jusqu' en 1883**, paris 1883, pp 324, 326.

(2) أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 8 ج، ط 2، تونس ب ت، ج 2، ص 95.

(3) Abel Clarin De Larive: Op.cit, p 326.

(4) ألفونصو روسو: الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تعريب محمد، عبد الكريم، ط 1، منشورات بنغازي 1992، ص 167.

(5) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 168.

وصل الأسطول إلى الإيالة في أوائل ديسمبر 1122هـ/1710م ، وشرع القنصل الفرنسي في تونس " أوجيهه دوسورهايند" (Augier de sorhainde)، في التفاوض مع الباي لاستئناف العلاقات بين البلدين. وانتهت هذه المساعي بتوقيع معاهدة في 3 جوان 1711م⁽¹⁾.

تجدد الخلاف بين تونس وفرنسا في 1129 هـ/ جويلية 1716م ، بسبب احتجاز الصقليين للسفينة الفرنسية التي كان على متنها حجاج تونسيين ، حيث طلب الباي من القنصل الفرنسي ضرورة تحرير هؤلاء الحجاج لأنهم كانوا تحت راية فرنسا، وهدده بالانتقام من مصالح فرنسا التجارية بتونس. انقضت ستة عشرة شهرا دون حل المشكلة، مما جعل الباي يهدد القنصل ورعاياه بأنه سيكبلهم، إذا لم يتم تحرير رعاياه التونسيين المتحجزون في سجون صقلية .

إن هذا الحدث أضر كثيرا بالمصالح الفرنسية التجارية، مما أدى بتجديد معاهدة الصلح عن طريق "دونيجي دوسولت" (Denis du sault)، مبعوث الملك لويس الخامس عشر⁽²⁾ في 1132هـ/ 20 فيفري 1720م. وقد نص البند 27 من هذه المعاهدة على أنه في حالة فشل السيد "دوسولت" - بعد انقضاء سنة كاملة- في استرجاع الحجاج، فإن ذلك لا يبطل صلاحية معاهدة الصلح المبرمة بينهما.

إن التوتر بين البلدين كان الائمة البارزة في هذه العلاقات، حيث قام بعض التونسيين بمطاردة سفن الدويلات الايطالية في المياه الإقليمية لفرنسا، وهذا يتنافى مع بنود الاتفاقية المبرمة⁽³⁾، مما جعل ملك فرنسا يقوم بتسليح أسطولاً صغيراً. وفي سنة 1140 هـ/ 1727م، نجح في الاستيلاء على مركب تونسي كان يطارد سفينة صقلية، بالقرب من الجزر الفرنسية. أين تم تحويل هذا المركب إلى حلق الوادي⁽⁴⁾، لتتم معاقبة صاحبه، لكن قائد السفينة الفرنسية "ديمون" (Demon)

(1) للاطلاع على بنود هذه المعاهدة أنظر: E. Rouard De Card: **Traites de la France avec Les Bays**

De L' Afrique du Nord, Algérie, Tunisie, Tripolitain, Maroc, A.Pédon, Editeur, Paris

1906, pp 161, 162.

(2) اعتلى الملك في فرنسا وعمره أربع عشرة سنة، وامتد حكمه لمدة تسعة وخمسين سنة من 1715 إلى 1774م، ومن

أبرز أعماله انتصاره على الانجليز في حرب السبع سنوات. أنظر: المزارى بن عودة: **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا**، تحقيق يحي بوعزيز، عدد الأجزاء 2، ط 1، دار البصائر، الجزائر 2007، ج 2، ص 71.

(3) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص ص 169 - 173.

(4) لسان بحري يصل تونس بالبحر، وتفصله مرتفعات عن قرطاج، وعرفت عند الأوربيون بـ "la goulette". أنظر:

ايريس: **رحلة العالم الألماني: ج.آو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ/1732م)**، ترجمة و تعليق

ناصر الدين سعيدوني، ط 1، دار الغرب الإسلامي، تونس 2008، ص 97.

نسي الراية الفرنسية، عند دخوله حلق الوادي، فاستغل الباي هذه الفرصة، وطلب من القنصل الفرنسي "بنون" (Bnion) إرجاع المركب دون التفاوض في الأمر⁽¹⁾.

وقد استجاب القنصل الفرنسي لتلبية رغبة الباي، هذا الأمر جعل فرنسا ترسل في سنة 1140هـ/ 1728م أسطولا يتكون من ثلاث بوارج صغيرة قاذفة للقنابل، وعدد من البوارج الضخمة، و الفرقاطات بقيادة "دوجرانبري" (De Grandpré)، الشيء الذي أرغم الباي على تنفيذ جميع المطالب الفرنسية والموافقة عليها. والتي تضمن لفرنسا حرية التجارة بتونس من جهة، ووضع حد لتجاوزات قراصنة الإيالة من جهة أخرى، بإدراج بند يعطي الحق لفرنسا أن تحتجز أي سفينة غزو تونسي عند السواحل الفرنسية. وفي السنة الموالية صادقت فرنسا على هذه المعاهدة التي وقعها قائد الأسطول، والسيد "دي هيريكور" (D'héricourt) المفوض العام للبحرية الفرنسية في 1141هـ/ 01 جويلية 1728م

لقد تعرضت تونس بموجب هذه المعاهدة لإذلال شديد لأنها تضمنت في بندها الأول طلب العفو من الملك الفرنسي لويس الخامس عشر، أما البند الثالث فقد حدد قيمة التعويضات التي ستدفعها تونس لفرنسا، كما تم تحديد نوع القصاص، الذي سيعاقب به قراصنة الإيالة، ونص البند السادس على تحرير الأسرى الفرنسيين، المحتجزين على متن سفينة غير فرنسية⁽²⁾.

2- العلاقة مع اسبانيا :

لقد اتسمت العلاقات خلال القرن الثامن عشر بالتوتر، والتنافس الشديد في الحوض الغربي للمتوسط بين البلدين، ودام هذا التنافس إلى أواخر القرن الثامن عشر، باستثناء الاتفاقية المبرمة بين "حسين بن علي" في سنة 1132هـ/ جويلية 1720م، والراهب "فرانسيسكو خمينيس (Francisco Jimenés) المشرف على منظمة رهبانية الثالث المقدس لافتداء الأسرى. وقد تضمنت هذه الاتفاقية اثني عشر بندا، ترخص لهذه المنظمة متابعة أعمالها في تونس لتسوية بعض الأمور المتعلقة بحقوق، وامتيازات النصارى من أسرى أو طلقاء كانوا بالمدينة. إن هذه الاتفاقية تعتبر وثيقة سياسية تهدف إلى تسوية العلاقات لأنها أبرمت بمباركة الحكومة الإسبانية⁽³⁾.

(1) ألفونزو روسو: المرجع السابق، ص 173.

(2) E, Rouard de card: Op.cit, p p 169, 171.

(3) نور الدين الحلاوي: وثائق عن العلاقات بين تونس وإسبانيا في أوائل القرن التاسع عشر، في م. ت. م، جويلية 1979،

وعلى العموم فقد عرفت البلاد التونسية في عصر " حسين بن علي " ازدهار كبيرا شمل جميع المجالات، وهذا ما أشاد به " محمد بن الصغير بن يوسف " قائلا: «... وأمنت الطرقات، وكثرت في أيامه الخيرات فعمروا الرباع والرياض و بنوا القصور بأمنه المستفاض ما لم يكن في زمن غيره ...»⁽¹⁾، كما انتعشت التجارة الخارجية، نظرا لتوفر المادة الأولية المستعملة في صناعة الشاشية الموجه للتصدير، وكذا تصدير القمح والجلود والشمع العسلي والإسفننج والتمر، مما أدى إلى ارتفاع عدد التجار الأجانب بتونس، لكن المشكل الوحيد الذي كان يعيق هذه التجارة هو الاحتكار الذي مارسه الباي، وخص نفسه ببيع البضائع بأثمان باهضة⁽²⁾.

ثانيا- علاقات علي باي بن محمد بن علي تركي(1153-1169هـ / 1740-1756م):

1- قطع العلاقة مع فرنسا:

إن اهتمام "علي باي" بنشاط البحرية التي كانت تمثل المصدر الرئيسي لمداخيل تونس؛ حتم عليه ضرب مصالح فرنسا التجارية بتونس، حيث بدأ بخلق الحجج فاتهم فرنسا بمساندة معارضيته⁽³⁾ وهما القائد "شعبان السبيعي" المتحصن في مدينة المنستير، و "محمود باي بن حسين" المتحصن في مدينة سوسة، وقد نال القنصل الفرنسي بتونس السيد "جوتيه" (Gauthier) جزاء هذه التهم⁽⁴⁾. وعلى إثر هذه الاتهامات طلب الباي من القنصل الفرنسي أن يقبل يده كلما دخل عليه في القصر مثلما يفعل القناصل الأوروبيين الآخرين. وقد حاول مترجم القنصل الفرنسي إقناع الباي، بأن عدم تقبيل القنصل لفرنسي ليده امتياز تحظى به فرنسا بتونس دون غيرها من الدول الأوروبية الأخرى، فغضب الباي من هذا الرد، وأخبره أنه يرفض كل الامتيازات، التي حصلت عليها فرنسا سابقا . وإذا رفض مسؤولو فرنسا الامتثال لهذا القرار، فإنه سيلحق الضرر بمصالحهم التجارية داخل تونس⁽⁵⁾.

(1) Mohammed Seghir Ben Youssef: **Chronique Tunisienne (1705- 1771)**, Ouvrage Traduit Par Victor Serres et Mohammed Lasram, 2^{ème} Edition, Editions Bouslama, Tunis S. D, p 410.

(2) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج 2، ص 279.

(3) ألفونزو روسو: المرجع السابق، ص 171 - 185.

(4) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 125، 126.

(5) Jules Ferry: **La Tunisie Avant et Depuis L'occupation Française**, Librairie Coloniale, Paris 1893, T 01, pp 161- 162.

هذا الوضع جعل القنصل الفرنسي يجتمع مع الممثلين الفرنسيين بتونس؛ وأغلبهم تجار لإطلاعهم على طلب الباي، فكان ردهم الرفض واكتفوا بإرسال رج لان منهم إلى القصر لتوضيح وجهة نظرهم. لكن "علي باي" كان عنيدا وأصر على تطبيق مطلبه، فقرر القنصل الفرنسي ألا يذهب إلى القصر حتى لا يمثل لأمر الباي، في حين قرر باقي التجار مغادرة تونس على أن يمثلوا لأمر الباي. وكنتيجة لهذا قام الباي بمحاصرة الفن دق الفرنسي، وهدد القنصل بالانصياع لأوامره وفي سنة 1153هـ/ 14 ماي 1740م، انحنى القنصل لتقبيل يد الباي⁽¹⁾. هذا جعل فرنسا تصدر أمرا لقنصلها تطلب منه مغادرة تونس⁽²⁾. لأنها كانت تسعى للاستيلاء على جزيرة طبرقة - التي منحها التونسيون سابقا إلى أسرة لومليني الجنوبي لاصطياد المرجان بها- عن طريق الشركة الملكية لأفريقيا⁽³⁾، la compagnie Royale D'Afrique، التي كانت تسعى دائما لهذا الغرض، والمتمثل في محاولة توسيع حجم التجارة الفرنسية في شمال إفريقيا⁽⁴⁾.

وبدأ التفاوض بين الشركة الفرنسية، وأحد أفراد أسرة لوم يليني "جاك دي لوميليني"، حول إمكانية تحلي هذه الأسرة عن جزيرة طبرقة لصالح الشركة⁽⁵⁾. ولما اكتشف الباي الأمر عندما احتجز رسالة⁽⁶⁾ لمدير الشركة الفرنسية بالرأس الأسود⁽⁷⁾، والذي يدعى "فوقاس" (Fougasse)،

(1) Jules Ferry: Op. cit, pp 161- 162.

(2) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج3، ص 126.

(3) بموجب المرسوم الملكي الفرنسي في فيفري 1741م؛ تكونت الشركة الملكية لأفريقيا لتحل مكان الشركة التجارية الفرنسية التي لعبت دورا هاما في تصدير المنتجات الزراعية لتونس، بفضل علاقاتها مع بعض الوسطاء التجاريين المحليين، وفي سنة 1793م، حلت محلها وكالة اقريقيا. أنظر: لمنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، ج 2، القرصنة الأساطير والواقع، دار القصبه للنشر، الجزائر 2009، ص 389.

(4) للاطلاع أكثر على الوجود الجنوبي في جزيرة طبرقة أنظر: Maria Ghazali: Les Tabarquins De Tunis (1741 – 1799), in R. T, N° 53 et 54, 1^{er} et 2^{ème} Trimestre 1943.

(5) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 189.

(6) تضمنت الرسالة خطة فرنسا لغزو جزيرة طبرقة، وهدفها من الغزو، والمتمثل في تأديب الباي، وتنشيط تجارة فرنسا، بإعتبار أن الموقع إستراتيجي يمكن فرنسا من فرض سيطرتها على كل الايالات المغاربية. أنظر: شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 383.

(7) يدعى بالفرنسية (Cap Negro)، وهو نتوء بحري يقع شرق جزيرة طبرقة، ويتحكم في الملاحة بين بنزرت ومدينة عنابة الجزائرية. أقام به الفرنسيون مؤسسة تجارية لصيد المرجان، ثم استولى عليه "علي باشا" سنة 1154هـ/ 1741م. أنظر: ايريس: المصدر السابق، ص 100.

والتي يكشف فيها عن خطة فرنسية لغزو جزيرة طبرقة . أرسل جنوده بقيادة ابنه "يونس" في سنة 1154هـ / 1741م، الذي قام بهدم القرية وأسر جميع الجنويين المقيمين بالجزيرة⁽¹⁾ ووضع بها حامية من الجيش التونسي؛ ثم توجه إلى جزيرة تامكرت التي كان بها مركز تجاري للفرنسيين - يتاجرون في القمح والزيت والصوف - ؛ الذين لم يكن لديهم قدرة على قتاله فاستسلموا ثم قادهم إلى منزل القنصل الفرنسي بتونس، بعدما استحوذ على كل ممتلكاتهم⁽²⁾.

وعلى إثر هذا قام القنصل الفرنسي "جوتيه" (Gauthier) ببعث رسالة إلى حكومته مفادها أن "علي باي" قد نقض الصلح القائم بينهما . فقامت فرنسا بإرسال ستة سفن حربية نحو تونس لمحاصرة حلق الوادي، وألا يتركوا أحدا يدخل أو يخرج من الميناء⁽³⁾.

إن هذه المشكلة خلقت وضعية سيئة في العلاقات بين البلدين ما بين سنتي 1741-1742م فخسرت فرنسا مركزها بالرأس الأسود و فشلت الشركة التجارية الفرنسية من شراء نصيب الجنويين في جزيرة طبرقة⁽⁴⁾.

2- عودة الوفاق التونسي الفرنسي:

أثناء هذا الحصار أرسلت فرنسا السيد "فرانسوا فور" (François for) للتفاوض مع "علي باشا"، لإعادة السلام بين البلدين⁽⁵⁾. وفي 10 رمضان 1155هـ / 9 نوفمبر 1742م؛ تم توقيع معاهدة السلام⁽⁶⁾ من طرف "علي باشا"⁽⁷⁾. والتي تنص على إرجاع المراكز التجارية إلى ما كانت عليه مع إلزام القنصل الفرنسي للخضوع لمراسيم تقبيل اليد، وعليه تم تعيين السيد "فرانسوا فور" (françois for) قنصلا لفرنسا بتونس سنة 1156هـ / 1743م⁽⁸⁾.

(1) محمد الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 123.

(2) حمودة بن عبد العزيز: التاريخ الباشي، مخطوط يوجد بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 1794، ورقة 197، وجه.

(3) نفسه، ورقة 199، وجه.

(4) Abel Clarin De Larive: Op.cit, p 327.

(5) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 200.

(6) أبرز ما جاء في هذه المعاهدة وضع نموذج لجواز السفر للسفن الفرنسية حتى لا تتعرض لقراصنة تونس، و تم تحديد مدة

صيد المرجان بثلاثين سنة قابلة للتجديد قبل انتهاء المدة المحددة. للاطلاع أكثر على نص المعاهدة أنظر:

E, Rouard De Card: Op.cit, p p 173 – 179.

(7) Montran Robert: **Imentaire Documents D'archives Turcs De Dar El Bey**, Universitaires (7) Presses France, Paris 1961, p 34.

(8) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 383.

أثناء فترة الوفاق التونسي الفرنسي واجه "علي باي" ثورة ابنه يونس⁽¹⁾، وبعد القضاء عليها، كافأ "علي باي" جنوده بإطلاق العنان لهم بتخريب منازل المسيحيين واليهود لمدة خمسة أيام، فكان المشهد مروعا لما أحدثوه من فساد، فسرقوا كل منازل المسيحيين واليهود وحتى الرهبان، الذين توفر لهم فرنسا الحماية. مما أدى إلى زعزعة العلاقات بين تونس وفرنسا من جديد⁽²⁾.

وفي سنة 1165هـ / 1752م، قدم الأسطول الفرنسي المؤلف من ستة بوارج بقيادة "دو قيلارزيل" (De Villarzel)، إلى تونس لتوطيد دعائم السلم بين البلدين. فاستغل "علي باشا" قدوم هذا الأسطول ليبين لمعارضيه كإبنه يونس، أن فرنسا أرسلت قواتها لمساندته. وبعد فترة غادر الأسطول بعد أن ساهم في توثيق العلاقات بين البلدين⁽³⁾.

وعليه يمكن القول، أن الباي عرف بنزعتة الاستقلالية، حيث حاول أن يقلل من نفوذ القناصل الأوربيين و التجار خاصة الفرنسيين، ويثبت لهم أنه سيدا في بلاده، لذا أظهر عداوة لهم منذ توليه عرش تونس.

ثالثا- علاقات علي باشا بن حسين بن علي تركي(1172- 1196هـ/1759-1782م):

هو والد "حمودة باشا" حكم بعد وفاة أخيه "محمد الرشيد"⁽⁴⁾؛ و تميز عصره بالاستقرار في بدايته حيث شجع على بذل الصدقات، واهتم بتنظيم أمور البلاد؛ وأول مجال خصه بالعناية، هو القضاء فكان يسمع شكاوي الناس دون ملل⁽⁵⁾. إضافة لتنظيمه لأمر الجيش والبحرية، وازدهر في عصره الوضع الاقتصادي فزاد الإنتاج، والاستهلاك وارتفع حجم التجارة، في ظل

(1) بدأ "علي باشا" يشعر بالخوف من قوة ابنه "يونس" المتنامية، فتآمر مع ابنه الثاني "محمد باي" لإبعاد "يونس"، فدخل الطرفان في صراع انتهى بانتصار الباي، ولجأ "يونس" إلى قسنطينة سنة 1752م. أنظر:

Jules Ferry: Op.cit, p 163.

Ibid, p 164.

(2)

(3) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص ص 200 - 208.

(4) حكم "محمد الرشيد" ثالث البايات الحسينيين، لمدة ثلاث سنوات فقط من (1756-1759م)، لذا لم أحصل على

معلومات كافية تبين لنا كيف كانت علاقاته الخارجية. وكل ما قيل عنه انه تميز بمعاملته الحسنة للأجانب المقيمين بتونس، وعند وفاته كفل أخاه "علي باشا" ولديه "محمود باي" و "إسماعيل باي". أنظر:

Venture De Paradis: **Tunis Et Alger Au XVIII Siècle**, La Bibliothèque Arabe Sindbad, Paris 1983, pp 80, 81.

Mohammed Seghir Ben Youssef: Op.cit, p 413.

(5)

انعدام الأوبئة، وخاصة في الفترة الممتدة ما بين (1765-1775م)⁽¹⁾.

1- علاقاته التجارية مع فرنسا:

تعتبر التجارة أحد العوامل الأساسية في توجيه العلاقة بين البلدين، وهنا نجد أن التجارة الفرنسية بالإيالة قد تضررت بسبب التوتر القائم بين تونس والجزائر⁽²⁾، لذا حاول التجار الفرنسيون مواجهة عجز تجارتهم المالي، بإضافة رسوم جمركية على سلعهم داخل تونس قدرت ب 1.5 %، وكان هذا في سنة 1172هـ/ جانفي 1759م.

لكن تدهور وضع الخزينة العامة التونسية، أقلق مسؤولي الغرفة التجارية بمرسيليا فأصدرت قرارا يقضي برفع الرسوم الإضافية إلى 3 %، فوافق عليه التجار الفرنسيون بتونس في سنة 1174هـ/ جويلية 1760م، لكن هذه الزيادة شلت جميع المعاملات، والصفقات التجارية بسبب ارتفاع الأسعار، وبرزت منافسة الدول الأوربية بشدة للتجارة الفرنسية بتونس.

ولولا الأرباح السابقة للتجار الفرنسيين لما قدروا على مواجهة هذه العوائق، وعليه تقرر التخلص من ديون فرنسا بالإيالة قبل عام 1764م، وتخفيض الرسوم إلى 1 %، فلم تقدر الدول الأوربية المنافسة وإلحاق الضرر بها، نظرا للتنسيق الكبير بين التجار الفرنسيين إلى درجة تقاسم الأرباح وتجنب المنافسة بينهم، حفاظا على استقرار الأسعار بالموانئ التونسية.

2- الوفاق التونسي الفرنسي:

أرسلت فرنسا أسطولا إلى حلق الوادي في سنة 1175هـ/ 23 جويلية 1762م، بقيادة السيد "دو بومبار" (De Bompert)، المكلف بالتوجه للموانئ العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط لاستعراض القوة، وعند وصوله إلى حلق الوادي، استقبله الباي استقبالا رسميا؛ وزوده ب عدة مستلزمات من بينها مجموعة من الهدايا⁽³⁾، و بدوره هنأ القائد الفرنسي "علي باي" بمناسبة انتصاره على التمرد الذي تزعمه إسماعيل بن يونس⁽⁴⁾، وهذا يبين لنا أن المصالح الفرنسية بتونس —

(1) محمد الهادي الشريف: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، دار سواس للنشر، تونس 2008، ص 92.

(2) للإطلاع أكثر على تفاصيل هذا الصراع أنظر: عمار بن خروف: علاقات الجزائر السياسي مع تونس في عهد الدايات 1671/1830، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق 1996، ص 363.

(غ. م.).

(3) ألفونزو روسو: المرجع السابق، ص ص 222، 223.

Jules Ferry: Op.cit, 167.

(4)

مرتبطة باستقرار الأوضاع الداخلية للإيالة.

وما يدل على مكانة فرنسا بتونس، أن الباي عندما وقع مع السيد "جيتانو جيرفاصون" (Gaetano Gervasone) الوزير المفوض لدى حكومة جمهورية البندقية، معاهدة صلح وتجارة في 22 صفر 1177هـ / 01 سبتمبر 1763م، وصلت إلى المياه التونسية بارجتان من البندقية تحت قيادة الكونت "بيرويك" (Burowick)، لتسليم وثائق المصادقة على معاهدة السلم . في الوقت الذي وصلت فيه بارجة حربية فرنسية إلى الميناء، وقعت حادثة تمثلت في أن الباي استقبل قائد البارجة الفرنسية أفضل من استقباله للمبعوث البندقي⁽¹⁾. هذا التصرف يعزز لنا فكرة معاملة فرنسا الخاصة في الإيالة عن بقية الدول الأوربية الأخرى.

بعد هذا وصل إلى تونس قنصل فرنسا الجديد السيد "دي سيزيو" (Du Saizieu)، في سنة 1178 هـ / ماي 1764م؛ ، بدلا من "دي سولوز" (Du Souloze) الذي تقاعد، حيث استطاع "دي سيزيو" أن يحصل على بيان رسمي موقع من طرف الباي بتاريخ 21 ماي 1765م، يتضمن أن تونس لن تسمح لقراصنة الجزائر والمغرب ببيع الغنائم الفرنسية في موانئها، لكن هذا البيان لم يطبق على أرض الواقع، فيما بقي السلام قائما⁽²⁾.

إن حسن الوفاق بين البلدين كان قائما على أساس المصالح التجارية لفرنسا بتونس، وما زاده دعما هو تفوق الطرف المسلم في البلاط التونسي، والذي تزعمه "مصطفى خوجة"، أكثر الوزراء تأثيرا في السياسة الخارجية، وأشدّهم ارتباطا بالمصالح الفرنسية . ويمكن تفسير سياسة "علي باي"، ورجال دولته المقربين، كالوزير "مصطفى خوجة" والوزير الكاتب "حمودة بن عبد العزيز" - صاحب كتاب الباشي - بتغلغل الرأسمالية الأوربية داخل البلاد التونسية، وتكامل مصالحها مع مصالح رجال البايليك، وعلاقتها مع كبار التجار التونسيين⁽³⁾، حيث استطاع "دي سيزيو" "Du Saizieu"، أن يحصل على تجديد المعاهدة السابقة التي تضمن للشركة الملكية لأفريقيا الحق الحصري في صيد المرجان بتونس⁽⁴⁾.

(1) ألفونزو روسو: المرجع السابق، ص ص ، 221، 222.

(2) شهد عصر الباي "علي باشا" ثورة "إسماعيل بن يونس"، فكلف الباي الكاهية "بوطغان" للتصدي له، لكن "إسماعيل

بن يونس" توجه إلى منطقة جبل وسلات، ثم انتقل إلى الجزائر وبقي مصدر خطر يهدد باي تونس، إلى وفاته في 1780

أنظر: Mohammed Seghir Ben Youssef: Op.cit, p 414.

(3) محمد الهادي الشريف: المرجع السابق، ص 93.

(4) Jules Ferry: Op.cit, pp 167, 168.

منذ أن تولى "علي باشا"، وهو يسعى إلى توطيد علاقاته الخارجية مع الضفة الشمالية للمتوسط، لكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، لأنه استمع لنصائح مستشاريه، والتي تفضي إلى رفض إطلاق سراح أسرى جزيرة كورسيكا التابعة لإمارة جنوة المعادية لتونس، بعد أن ضمتها فرنسا في سنة 1183هـ/ 1769م⁽¹⁾

وبعد عملية الاستيلاء احتاج الفرنسيون إلى المؤونة فاستعملوا مراكب الجزيرة لجلب حاجياتهم. فاستدعى منهم ذلك طلب الأمان لهذه المراكب في البحر من ملوك الشمال الإفريقي ومنهم "علي باشا". الذي كتب لهم الأمان على اثني عشر مركباً، عين أسمائهم وأسماء الرؤساء وعدد الرجال بكل مركب.

عندما خرجت المراكب التونسية على العادة إلى البحر في هذه الفترة وجدوا مراكب كورسيكية، لم تكن ضمن قائمة المراكب التي طلب لها الأمان، فاستولوا عليها. فأرسل الفرنسيون بأحد أعيانهم إلى حلق الوادي، وطلب من "علي باي" تحرير الأسرى، وما أخذه من المراكب الكورسيكية، التي تم الاستيلاء عليها، فأجابه الباي: « أن هذه المراكب لم تكن ضمن المراكب، التي تم الاتفاق عليها، لذا فإنهم أصبحوا تحت حكمنا»⁽²⁾، ثم سأل الباي المبعوث الفرنسي عن مكتوب دولته، فقال له: « لا مكتوب عندي ». فأجابه الباي: « لا كلام معك حينئذ، وإن أرادت دولتكم الكلام في ذلك فليأتنا كتابها، أو مكتوب تفويض بيد أحد من رجالها»⁽³⁾.

إن تصرف الباي هذا مع المبعوث الفرنسي اتخذته فرنسا كسبب أول لإعلان الحرب على تونس أما السبب الثاني فيرجع إلى تجدد الخلاف حول صيد المرجان، حيث كانت المؤسسة التجارية الفرنسية في طبرقة تتحصل على مداخيل كبيرة، ومقابل ذلك تدفع رسومات قليلة، ولم تقم بطلب تمديد المدة حسب ما تنص عليه المعاهدة التي عقدت سنة 1742م⁽⁴⁾.

Jules Ferry: Op.cit, pp 167, 168.

(1)

(2) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 201.

(3) نفسه، ص 202.

(4) عزيز سامح ألتز: الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا، ترجمة عبد السلام أدهم، ط 1، دار لبنان للطباعة و النشر،

بيروت 1969، ص 357.

هذا الأمر جعل الباي يقوم بطردهم فاحتجوا على هذا، بدافع أن خيار الاستمرار في الصيد كان لهم، وهذا موجود في الاتفاق بينهم⁽¹⁾. فرد الباي قائلا: «... إن الاتفاق وقع على خيار من الجانبين، والصيغة المكتوب بها ما هي إلا سهوا من كاتبه...»⁽²⁾.

وهناك قضية أخرى تتعلق ب "سليمان رايس الجرجي"، عندما كان في عرض البحر، ونفذ زاده فطلب من أحد المراكب الفرنسية المساعدة، فرض هذا الأخير مخالفا بذلك العادات الجارية في البحر، مما اغضب "سليمان رايس"، فأغلظ عليه في القول، فاشتكى قائد هذا المركب إلى الأيرالية الفرنسية، التي استغلت هذه الحادثة كحجة أخرى، للحرب على تونس⁽³⁾.

4- وصول الأسطول الفرنسي إلى حلق الوادي:

وصل الأسطول الفرنسي إلى حلق الوادي في 28 محرم 1181هـ/ ماي 1770م، بثلاث مراكب حربية قادمة من كورسيكا⁽⁴⁾، وقد رست بحلق الوادي وانضمت إليها كل المراكب التجارية الفرنسية، التي كانت داخل المرسى، وشاع الخبر أن فرنسا جاءت لنقض الصلح.

بعد أن تأكد "علي باشا" أن فرنسا قدمت من أجل الحرب شرع في تعزيز تحصيناته الدفاعية لحلق الوادي فشحنها بالرجال وقواها، وبكل ما يلزم للدفاع، وحصن ثغور المملكة وقوى قلعة طبرقة، وبدأ يخطب في الناس للدفاع عن أنفسهم وأهاليهم ووطنهم . كما قام بإرسال بعض رجاله⁽⁵⁾ إلى بنزرت بقيادة الكاهية⁽⁶⁾ "حسين بوطغان"، و"حسين أغا الصبايحية" إلى سوسة للقيام بالتحصينات اللازمة.

في هذه الظروف طلب التجار الفرنسيون من الباي تسريحهم إلى بلادهم فكان لهم ذلك لكنه لقي معارضة من بعض وزرائه فقال لهم: «...إنهم دخلوا بلادنا بأمان، وعهد صلح فلا يسوغ

(1) عزيز سامح أتر: المرجع السابق، ص 357.

(2) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 202.

(3) محمود مقديش: المصدر السابق، ص 169.

(4) عزيز سامح أتر: المرجع السابق، ص 358.

(5) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 202.

(6) لقب عثمانى يمنح للنائب أو المسؤول عن أمن المدينة، و ينوب عن الأغا في حالة غيابه. أنظر: أمين محرز: الجزائر في

عهد الأغوات (1659 - 1671)، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2007/2008، ص 19،

التعرض لهم بوجه من الوجوه كما هو مقتضى الشرع، والعقل وكيف لنا أن نخون عهد السلام...»⁽¹⁾، وزاد على ذلك بحراسة ممتلكاتهم الموجودة بالإيالة⁽²⁾. وهنا تبرز لنا قضية مهمة والمتمثلة في أن الباي لم يعامل الرعايا الفرنسيين بالمثل، أي بمثل ما عومل به التونسيين أثناء فرض فرنسا للحصار على تونس.

5- الحصار الفرنسي لحلق الوادي:

بقيت المراكب الفرنسية تحاصر حلق الوادي لمدة خمسة وعشرون يوما، منعت خلاله الداخل والخارج من الميناء، وهنا نذكر محاولة " إبراهيم رايس " عندما غادر من غار الملح⁽³⁾، إلى حلق الوادي في مركبة صغيرة ظنا منه انه سينجح في عبور الحصار الفرنسي، لكنه تعرض إلى قصف بالمدافع الفرنسية أدى إلى تخطيم مركبته، دون أن يتعرض لأذى⁽⁴⁾. وهذا يؤكد لنا، أن فرنسا لا تحترم مبدأ المعاملة بالمثل.

6- فرنسا تملّي شروطها على الباي قبلي إعلان الحرب:

وصل باقي الأسطول الفرنسي إلى حلق الوادي؛ يوم الأحد 23 صفر 1184هـ/ 17 جويلية 1770م، والمتكون من مركبتين حرييتين أحدهما ب 70 مدفع، والثانية ب 50 مدفعا، ومن فرقتين كل واحدة تحمل 26 مدفعا، ومن باركا كبيرة تحمل 18 مدفعا، ومن شبكين ب 20 مدفع للواحد، ومن قاليوني بومبا وستة مراكب⁽⁵⁾.

بقي الأسطول الفرنسي يحاصر حلق الوادي لمدة يومين دون إبداء أي حركة، وفي اليوم الثالث بعث قائد الأسطول الكونت " بروفيس " (Provies) رسالة إلى الباي تحمل سبعة مطالب هي:

1- إدخال جزيرة كورسيكا إلى عهد الصلح.

2- رد ما أخذ من كورسيكا بعد دخولها في ممالك فرنسا.

3- رد أسراها الذين أسروا قبل ذلك⁽⁶⁾.

(1) أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج 2، ص ص 202، 203.

(2) نفسه.

(3) مرسى صغير يقع شرق بنزرت، وأطلق عليه الأوربيون اسم "بورتوفارينا". أنظر: ايريس: المصدر السابق، ص 119.

(4) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 203.

(5) للاطلاع أكثر على أنواع السفن أنظر: محمد الشاذلي النيفر: الأسطول في اللغة والأدب والتاريخ، تحقيق الطاهر بن

محمد الشاذلي و أمال بن حمزة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة 2008، ص ص 145، 151.

(6) عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص 359.

- 4- إمضاء معاهدة صيد المرجان على الوجه الذي تقرر سابقا.
- 5- معاقبة الرئيس سليمان الحربي على ما صدر منه اتجاه صاحب المركب الفرنسي.
- 6- أن تسترجع فرنسا منطقة تامكرت .
- 7- تعويضهم على ما صرفوه على تجهيز الأسطول⁽¹⁾.

واشترطوا أن يكون جواب الباي بعد ثلاثين ساعة، وإلا فإنهم سيرمون حلق الوادي بالمدفعية⁽²⁾، فكان جواب " علي باشا" على هذه الشروط بعد تسعين ساعة، وكان رده مبهما؛ لا يحتوي على قرار صريح في أي بند من البنود المطلوبة⁽³⁾، حيث ذكرهم بالصلح الموقع بينهم، مبينا أنهم تجاوزوا شروطه. وهكذا بقيت المكاتبات بين الطرفين إلى غاية أواخر شهر جويلية، أين أعلنت فرنسا الحرب على تونس⁽⁴⁾.

7- تونس تحت وطأة المدافع الفرنسية 1184هـ/ 1770م:

أقلع الأسطول الفرنسي من حلق الوادي، باستثناء المراكب الثلاث الأولى، باتجاه غار الملح، التي قذفها لمدة يومين، ثم رجع إلى بنزرت حيث دام القتال فيها عدة أيام . حاول الباي الدفاع عن البلاد، لكن الفرنسيين ضيقوا على الأهالي بالقنابل، فأجبروا على الخروج⁽⁵⁾. استنفر الباي كل الجند للدفاع عن بنزرت بقيادة الوزير "رجب خزنة دار"⁽⁶⁾، وهنا تم نقض الصلح مع فرنسا، وقام بإزالة كل ما يتعلق بهم بالمدينة لأنهم أول من بدأ الحرب⁽⁷⁾. ثم أقلع الأسطول الفرنسي من بنزرت باتجاه قليبية و الحمامات في 4 أوت دون أن تقع الحرب. توجه الأسطول الفرنسي بعد هذا إلى مدينة سوسة، ورمها بالقنابل في 21 ربيع الثاني 1184هـ/ 13 أوت 1770م، ثم توجهوا إلى مدينة المنستير وظلوا فيها لمدة سبعة أيام دون أن⁽⁸⁾

(1) عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص 359.

(2) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص203.

(3) عزيز سامح ألتز: المرجع السابق، ص360.

(4) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج2، ص204.

(5) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص227.

(6) أصله من الموالي رياه "علي باشا"، ثم عمل في عصر ابنه "حمودة باشا" إلى غاية وفاته في 24 ذي القعدة 1211هـ.

21/ ماي 1797م. أنظر: أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج7، ص 29.

(7) المصدر نفسه، ج 2، ص 204.

(8) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 228.

تقع الحرب، ثم رجعوا إلى حلق الوادي في نهاية شهر أوت، ومرت ثلاثة شهور دون أن يصل الطرفان إلى اتفاق، على الشروط التي وضعتها فرنسا⁽¹⁾.

8- الوساطة العثمانية لعقد الصلح بين تونس وفرنسا 1184هـ / 1770م:

في ظل هذه الظروف وصل إلى تونس مبعوث من الدولة العثمانية، هو "القابوجي باتشين" من أجل تأمين اشتراك جيش تونس وأسطولها في الحرب ضد الروس، لكن الباي لم يلب هذا الطلب نظرا للوضع الذي آلت إليه الإيالة، وأثناء عودة هذا الرسول مر على الأسطول الفرنسي المحاصر لتونس، فاستدعاه قائد الأسطول، وأعرب له "باتشين" عن تدمير الباب العالي إزاء هذا الوضع، فطرح عليه فكرة الوساطة فقبل القائد الفرنسي بذلك.

نزل للمدينة كل من "المبعوث العثماني"، وقنصل فرنسا بتونس السيد "دي سيزيو" (Du Saizieu)، مع عدد من الضباط للبحث في أمر الصلح⁽²⁾. اجتمع الطرفان لمناقشة الشروط التي وضعتها فرنسا قبيل إعلان الحرب، فكان جواب الباي عليها كما يلي :

- 1- اعترافه بتبعية كورسيكا لفرنسا وإدخالها في عهد الصلح .
- 2- إرجاع أسرى كورسيكا لفرنسا بعد استيلاء فرنسا عليها، ورفض إرجاع الأسرى قبل الاستيلاء عليها، لأنها كانت خاضعة لجنوه.
- 3- معاقبة "سليمان الجري" أن ثبتت عليه الدعوى، وهو الآن في حالة هروب.
- 4- فسخ عقد الاتفاق الخاص بصيد المرجان.
- 5- رفض منحهم منطقة تامكرت لان أبنيتها قد هدمت، ولا وجه لطلب شيء معدوم.
- 6- رفض دفع تعويض تجهيز الأسطول الفرنسي لأن الباي لم يدفع فرنسا لذلك، ولم يتعدى عليها، ولذا فان الباي هو من يطلب التعويض من فرنسا.

قام الفرنسيون بمراجعة رد الباي، ثم انعقد الصلح بين الطرفين وتضمن مايلي:

- 1- إرجاع أسرى كورسيكا الذين أخذوا منها بعد استيلاء الفرنسيين عليها.
- 2- صيد المرجان لمدة خمس سنوات، حددت فيها عدد الزوارق بأثني عشر زورقا.
- 3- يحق للشركة الفرنسية أن تصدر إلى موانئها 3 آلاف قفيز قمح دون دفع ضريبة⁽³⁾.

(1) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 228.

(2) عزيز سامح ألت: المرجع السابق، ص 360، 361.

(3) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 205.

4- تقديم الهدية عند عقد الصلح تكريسا لما جرت به العادة.

5- رفض الإقامة في مرسى تامكرت.

وبتاريخ 3 جمادى الأولى 1184هـ/25 أوت 1770م، تم توقيع المعاهدة من قبل قنصل فرنسا "دي سيزيو" (Du Saizieu)، و "علي باي" بقصر باردو. وفي 2 سبتمبر 1770م صادق عليها الكونت "دي بروف" (Du Broves) قائد الأسطول الفرنسي⁽¹⁾. وبعد عقد الصلح رجع الأسطول الفرنسي إلى بلاده، وقام الباي بإرسال أعيان من رجاله إلى فرنسا لإتمام ما وقع الصلح عليه، وعاد التجار الفرنسيون إلى تونس⁽²⁾.

إن الاتفاق الذي حصل قد أصلح العلاقات بين تونس وقصر فرساي، لأن حسن الوفاق مع فرنسا يعتبر عند "علي باشا" أهم من أية علاقة مع دولة أخرى. وقد تمثل هذا في حسن معاملة الباي للسيد "دي سيزيو" (Du Saizieu) منذ أن عاد إلى منصبه بتونس في 13 أكتوبر 1771م، حيث استقبل بمتاف "يحيى الملك" ثلاث مرات؛ وستة طلقات بالمدفع.

إن هذا الإجراء لم يكن متعامل به، وعند وصول القنصل إلى حلق الوادي استقبله "علي باشا" بكل احترام. ومن الجانب الآخر كان الملك الفرنسي مهتم بتوطيد العلاقة مع تونس حيث بعث برسالة في 01 أبريل 1771م يقول فيها: «...نحن مهتمين بكل شغف لرخاء ولايتكم..»⁽³⁾ كما أن الباي حاول استغلال هذا الوفاق مع فرنسا لخدمة مصالح الإيالة⁽⁴⁾.

رأى الباي أنه من الواجب إرسال مبعوث لتقديم التعازي؛ بعد وفاة الملك الفرنسي "لويس الخامس عشر"، وتهنئة الملك الجديد لفرنسا "لويس السادس عشر". فخرجت سفارة الباي بقيادة "سليمان كاهية" في 13 ديسمبر 1776م؛ باتجاه ميناء طولون الفرنسي، حاملا معه (اثنا عشر جواد وأسدين) إلى الملك، فوجد في استقباله السيد "روفان" (Ruffin) المكلف بمرافقته. وقد حظي باستقبال جيد من طرف الملك، وفي 10 جوان 1777م عاد محملا بالهدايا إلى الباي⁽⁵⁾.

(1) ألفونزو روسو: المرجع السابق، ص ص228، 229.

(2) Eugène Plantet: **Correspondance Des Beys de Tunis et Des Consuls De France avec la Cour (1770-1830)**, 3 Tome, Félix Algan, Paris 1899, T 3, p 32.

يشار إلى هذا المصدر لاحقا كما يلي: أ. بلانتي: مراسلات بايات تونس وقناصل فرنسا، ج 3.

(3) نفسه، ص 33.

(4) نفسه.

(5) نفسه، ص 7.

9- الدبلوماسية الجديدة لفرنسا في تونس:

بعد إصابة القنصل الفرنسي بتونس "دي سيزيو" (Du Saizieu) بوعكة صحية، وإحالته إلى التقاعد حاولت فرنسا أن تعوضه بالسيد "دي روشيه" (Du Rocher)⁽¹⁾. لكنها كانت متخوفة من عدم قبول الباي بالقنصل الجديد؛ نظرا للجهود الكبيرة التي قدمها القنصل السابق من أجل الحفاظ على العلاقات بين البلدين؛ والتي منحته مرتبة قنصل فرنسا، وهذه المرتبة لم يتمكن أحد من الحصول عليها فوق الأراضي التونسية.

وصل إلى تونس السيد "دي روشيه" "Du rocher"، القنصل العام لفرنسا المعين في مكان السيد "دي سيزيو" (Du Saizieu) في سنة 1193هـ / 8 جويلية 1779م⁽²⁾. فلوحظ أن أوراق اعتماده التي قدمها للباي "علي باشا" تختلف في الصياغة عن سابقتها، حيث أن فرنسا لم تضيف أي لقب لحاكم تونس ماعدا تسميته بالباي الحاكم، كما أنها غيرت هذه العبارة من ورقة الاعتماد «...نتوسل إلى أصحاب الرفعة الأمجاد السادة باي، ودا ي وباشا وديوان حاضرة، ومملكة تونس، ونلتمس منهم السماح لقنصلنا بتمثيلنا لديهم...»⁽³⁾.

فبدلا من هذا نجد أن أوراق اعتماد السيد "دي روشيه" (Du rocher) الصادرة عن لويس السادس عشر في 28 جانفي 1779م، قد صيغت كما يلي: «...نتوسل إلى صاحب الرفعة الماجد، السيد باي تونس ووزرائه وحكومته، وضباطه ونلتمس منهم السماح لقنصلنا ...»؛ هذه الصيغة الجديدة التي اعتمدها فرنسا في تعيين ممثليها في تونس⁽⁴⁾.

بالإضافة إلى هذا فقد اكتفى القنصل الجديد بتونس السيد "دي روشيه" (Du Rocher) بتقديم هدايا رخيصة الثمن إلى الباي، والمتمثلة في السكر والبن، وحثته في ذلك أنه يرفض تقديم أية هدية قد تصبح مطلبا رئيسيا لباي تونس عند عقد كل معاهدة، أو عند قدوم قنصل جديد. والدليل هو أن جوابه كان عندما سؤل عن الهدايا المتعلقة بوصوله إلى تونس، أن قناصل فرنسا بتونس مميزين عن غيرهم من قناصل الدول الأوربية الأخرى⁽⁵⁾.

(1) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 7.

(2) ألفونزو روسو: المرجع السابق، ص 233.

(3) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 8.

(4) ألفونزو روسو: المرجع السابق، ص 240.

(5) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 9.

إن معاهدة الصلح هذه سمحت لفرنسا بصيد المرجان في بنزرت والرأس الأسود، لمدة ستة سنوات مقابل 4500 بياستر⁽¹⁾. وهذا ما جعلها تتعرض لمنافسة شديدة من بعض التجار الأوربيين - من النمسا و توسكانيا - الذين عرضوا على " علي باشا " مبلغ أكبر من الذي قدمته فرنسا للحصول على هذا الامتياز، مما جعل "دي روشيه" "Du Rocher" يتفطن لخطر المنافسة على الامتيازات التي تحصلت عليها فرنسا بتونس، فوجد في البند الثامن من معاهدة 1140هـ / 1728م ذريعة لوقف هذه المنافسة⁽²⁾ حيث ينص هذا البند على ما يلي: «... لا تمنح ايالة تونس أي امتيازات لأي بلد ليس له علاقة مع فرنسا ...»⁽³⁾ وبهذا استطاع الوقوف في وجه المنافسة؛ وأكثر من ذلك حصل على امتيازات صيد المرجان لصالح الشركة الملكية الأفريقية بموجب معاهدة 1781م.

10- احتكار فرنسا لامتياز صيد المرجان بتونس:

قام قنصل فرنسا "دي روشيه" (Du Rocher) بتوقيع معاهدة مع "علي باشا" بحضور الوزير الأول "مصطفى خوجة" وولي العهد "حمودة باشا" في رجب 1195 هـ / 24 جويلية 1781م. والتي تخول له امتياز احتكار صيد المرجان في سواحل الإيالة لصالح شركة أفريقيا الملكية الفرنسية، وقد تضمنت المعاهدة عشرة بنود، وهي:

- 1- أن تهتج الشركة بحق صيد المرجان على طول السواحل التونسية من طبرقة غربا إلى طرابلس الغرب شرقا، مقابل دفع 13500 بياستر إلى الباي.
- 2- تلتزم الشركة الملكية لإفريقيا بالحفاظ لمدة ستة سنوات متتالية على حق صيد المرجان، ولها الحق في التراجع عن صيده إن لم تستفد منه، وأنها لن تطالب بتعويض الخسائر. أما إذا كانت الشركة قادرة على المحافظة على هذا الامتياز طيلة الست سنوات، تجدد لها ستة سنوات أخرى.
- 3- من حق هذه الشركة أن تنشئ لها مؤسسات أثناء استغلالها لصيد المرجان، على أن يسمح لها "علي باشا" بإقامة مكاتب تجارية على الساحل، وأن يمنحها منازل لإسكان عمالها، على أن تدفع إيجار المنازل والمخازن⁽⁴⁾.

(1) لإطلاع على قيمة عملة البياستر. أنظر جدول العملة في تونس، الفصل الثاني، المبحث الثالث، ص 93.

(2) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 9.

(3) E, Rourad De Card: Op.cit, p 171.

(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 119 - 121.

- 4- حق عمال هذه الشركة في أماكن عملهم بالهدوء مثل القنصل الفرنسي المقيم في تونس .
 وحققهم في ممارسة شعائر دينهم المسيحي في منازلهم.
- 5- إذا حصل نقاش بين عمال الشركة وبين احد مسلمي تونس؛ فان القضية تعرض على محكمة الباشا في تونس؛ أين يتم الحكم النهائي بينه ما .
- 6- تضمن حكومة تونس للبواخر المخصصة لصيد المرجان الحماية في حالة حدوث عطب، أو نقص للمئونة وتقدم لها هذه المساعدات بدون مقابل.
- 7- لا تفرض الرسوم الجمركية على المرجان الذي يوضع في مخازن الشركة سواء عند الدخول أو الخروج.
- 8- لا يتم حجز البواخر والبحارة في الموانئ لأي ظرف كان، وإذا تسبب القراصنة في إزعاج هذه السفن، يتم معاقبتهم بشدة، وإذا دخلت هذه السفن في موانئ المملكة فإنهم أحرارا في شراء ما يحتاجونه بدون تدخل أي شخص.
- 9- إذا استاءت حكومة الجزائر من هذا الامتياز يقوم باي تونس بالتوسط بين إيالة الجزائر وا لشركة الملكية لأفريقيا.
- 10- إن بنود هذا الاتفاق لأجل امتياز صيد المرجان عقد بمباركة القنصل الفرنسي المقيم بتونس، وقد تقرر أن تحض المعاهدة بموافقة الملك الفرنسي، وفي حالة العكس فإن الاتفاق الممنوح للشركة الملكية لأفريقيا سيلغى⁽¹⁾.

11- أسباب الحرب مع جمهورية البندقية:

وقع "علي باي" معاهدة صلح، وتجارة مع جمهورية البندقية في 22 صفر 1177هـ / 1 سبتمبر 1763م، ثم حدثت القطيعة بين تونس والبندقية بسبب استئجار تجار تونسيين لسفينة بندقية بالإسكندرية للعودة على متنها. وقد صادف هذا انتشار وباء الطاعون، الذي تفشى بين ركاب هذه السفينة، ومات بعضهم . وعند وصولها إلى ميناء صفاقس لم يسمح لقائدها بدخول الميناء، وتم تزويده بالمؤونة التي تحتاجها هذه السفينة، وأمره بالتوجه نحو حلق الوادي تاركا للباي قرار إمكانية استقبال السفينة، لكن قبطان السفينة توجه إلى جزيرة مالطة عوض حلق الوادي⁽²⁾.

(1) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص ص 120، 121.

(2) عبد الوهاب حسن حسني: المرجع السابق، ص 156.

غير أن سلطات المصلحة الصحية بهذه الجزيرة الصحية رفضت دخولها، لكن بسبب تفاقم الوضع داخل السفينة، سمح له بالنزول في جزيرة مالطة⁽¹⁾.

قامت سلطات الجزيرة بحرق كل البضائع التي كانت على متنها، وهي ملك للتجار ال تونسيين، وبعد انتهاء فترة الحجر الصحي⁽²⁾، غادر التجار إلى تونس ورفعوا دعوى ضد القبطان البندقي، الذي اتهم بأنه السبب في الكارثة التي حلت بتجارهم، فبدلاً من أن يتوجه بهم إلى حلق الوادي توجه بهم إلى جزيرة مالطة، فكتب علي باشا مجلس شيوخ جمهورية البندقية للمطالبة بتعويض رعاياه فرفض عرضه، لكنه توفي بعد ذلك⁽³⁾.

(1) عبد الوهاب حسن حسني: المرجع السابق، ص 157.

(2) يطلق عليها بالاسبانية *cuarantena* ويقصد به عزل المنطقة المصابة بوباء الطاعون لمدة أربعين يوم حتى لا تنتقل العدوة وتنتشر في مناطق أخرى. أنظر: محمد رزوق: دراسات في تاريخ المغرب، ط1، أفريقيا الشرق 1991، ص182.

(3) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 243 .

المبحث الثاني:

حمودة باشا من المهدي إلى ولايته للعهد:

إن إشارات تميز "حمودة باشا" وإعداده لولاية العهد - حسب الظاهر - كانت منذ الصغر فتقدمه وتلقيه بالباشا من طرف أبيه "علي باشا" قد يكون أحد العوامل المفسرة للأولوية التي مهدت له الطريق لوصاية عرش تونس، على حساب ابن عمه "محمود باي"، وهذا راجع إلى الاختلاف الكبير بينهما، ويتضح ذلك من خلال الوقوف على:

- حمودة باشا الحسيني: المولد والنشأة.
- ولايته في عصر أبيه.

أولاً- حمودة باشا الحسيني: المولد والنشأة:

1- مولده:

ولد ليلة السبت 18 ربيع الثاني 1173هـ / 8 ديسمبر 1759م⁽¹⁾، وقد أشار أحمد بن أبي الضياف إلى نفس التاريخ، وكذلك السنوسي⁽²⁾. من أم هي جارية من القرج⁽³⁾ اسمها "محبوبة" وكان له أخوان وخمس أخوات⁽⁴⁾، وهم "حسين" الذي توفي منذ صغره و "عثمان باي"، الذي تولى العرش، بعد وفاة "حمودة باشا"⁽⁵⁾. لكنه قتل من طرف ابن عمه "محمود باي". أما الأخوات الخمس فاثنتان منهن تزوجتا الوزير الأول "مصطفى خوجة"، والثالثة تزوجت "محمود باي"⁽⁶⁾

(1) حمودة بن محمد بن عبد العزيز: الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماضور، ج 1، قسم السيرة، الدار التونسية للنشر 1970، ص 70.

(2) أنظر: أبي عبد الله محمد بن عثمان السنوسي: مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق وتعليق محمد الشاذلي النيفر، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994، ص 118.

(3) مدينة واقعة بشبه جزيرة القرم، وهي نسبة إلى نهر الكرج، أو ما يعرف حالياً بإقليم القوقاز، وهي تقع بين جبال القبح من الشمال وأرمينية وإيران من الجنوب. أنظر: رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814)، منشورات الجامعة التونسية 1980، ص 71.

(4) فيما يخص عائلة "حمودة باشا". أنظر: J. J. Marcel: **Histoire De Tunis Précédée D' un Description de Cette Régence par le Docteur Louis Frank** , Didot frères, paris 1851, p 196.

(5) Pierre Grandchamp: **Arbre généalogique de la famille Husseinite 1705-1944**, in C. T. (5) 1965, N^o 13, pp 132, 133.

(6) رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 72.

والرابعة تزوجت " إسماعيل كاهية"، والخامسة لم تتزوج⁽¹⁾. وقد ولد بقصر باردو وتكمن أهمية ولادته في صلب القضية الشرعية، المتمثلة في توليه السلطة بعد وفاة أبيه "علي باشا"⁽²⁾.

2- نشأته:

أولى "علي باشا" اهتماما كبيرا في تربية ابنه، وقد نجح في ذلك⁽³⁾، فبداية حياته تكون "حمودة باشا" مثل باقي أفراد الأسرة على يد المهية "جنات العلجية"، وفي سن الخامسة اعتنى أبوه بتربيته تربية خاصة. فحفظ ما تيسر من القرآن، و تتلمذ على يد كل من الإمام الفقيه العالم " أبو محمد حمودة باكير"⁽⁴⁾ فأخذ عنه علم الكلام؛ و فقه المذهب الحنفي، وأخذ على كاتب أبيه⁽⁵⁾ "حمودة بن محمد بن عبد العزيز" النحو والحساب والتاريخ، كما أنه تعلم العثمانية نطقا وكتابة⁽⁶⁾. ولما بلغ "حمودة باشا" سن الثامنة عشر من عمره زوجه أبوه في سنة 1190هـ/ 5 أكتوبر 1776م، من ابنة الشيخ المفتي " أبو عبد الله محمد"، وأنجبت له عدة أولاد لم يكتب لهم الحياة، حيث توفوا جميعا وهم صغار، إلا ابنه "محمد" الذي توفي في الثامنة من عمره⁽⁷⁾، وتأثر "حمودة باشا" بعد فقدان ابنه الوحيد؛ حيث مرض مرضا شديدا⁽⁸⁾، كان سبب امتناعه عن الأكل والشرب، بل حتى مقابلة الناس⁽⁹⁾.

-
- (1) رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 72.
 - (2) لقد ذكر الأستاذ رشاد الإمام أن "حمودة باشا" ولد بالجزائر في ديسمبر 1759م، وقد اعتمد في ذلك على ما ذكره التاجر البريطاني "ماجيل"، وكذلك أحمد الشريف الزهار. أنظر: رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 73.
 - (3) حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، م 2، ج 2، ط 1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت 1992، ص 371.
 - (4) هو حمود بن حسين بن ملا باكير، أصله من تركيا، كلفه "علي باشا" بتعليم ابنه "حمودة"، وقد عرف بغزارة علمه. توفي في عام (1220هـ/ 1805م). أنظر: أبي عبد الله محمد بن عثمان السنوسي: المصدر السابق، ص 118.
 - (5) هو الكاتب ووزير "علي باشا"، صاحب الكتاب الباشي الذي أطرى في سيرة "علي باشا". درس بالمدرسة الباشية على يد الشيخ محمد بيرم الأول، ثم درس بجامع الزيتونة عند الشيخ قاسم المحجوب، تقلد رئاسة ديوان الإنشاء في عصر "علي باشا"، إلى غايته وفاته (1202هـ/ 1788م). أنظر: أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 7، ص ص 22، 23.
 - (6) نفسه، ج 3، ص 15.
 - (7) نفسه، ص 21.
 - (8) رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 73.
 - (9) محمد بن عمر السنوسي: تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، حققه وكتب حواشيه خليل محمد عساكر ومصطفى محمد مسعد، راجعه محمد مصطفى زيادة، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1965، ص 122.

أ- جوانب من شخصيته ومظهره وبعض خصاله:

لقد وصفه طبيبه الخاص "لويس فرانك" (Luise Frank)⁽¹⁾ قائلا: «...تميز بطول القامة، وتناسب الأعضاء، أنيق في مظهره، ويحمل في سماته طابع الرقة، وملامح الذكاء وهو واحد من أجمل رجال البلاد التونسية. ومظهره هذا جعله يفرض هيئته بشخصية ثابتة غير مزعزعة..»⁽²⁾.
وقد وصفه "فانتور دو بارادي" "Venture de Paradis" قائلا: «...هذا الأمير جميل ذو قامة طويلة وبدين يتميز بالفكر والحكمة وله معرفة ليس كالمستبددين في أفريقيا أو آسيا، ويحكم حسب مبادئ أيه الذي كان أحد الرجال الأكثر استقامة وإنسانية...»⁽³⁾.

تميز "حمودة باشا" بعدة خصال حسنة، ساهمت في تثبيت حكمه، والمتمثلة في قوة حزمه وغيرته على الوطن، لذا سعى لبذل كل الجهود حتى يحسن من وضع الايالة الداخلي والخارجي. كما عرف بحبه لأهله فقربهم إليه، وخاصة بن عمه "محمود باي"؛ منافسه الأول على عرش تونس. وهذا يدل أنه حاول منذ البداية أن يقضي على كل مصادر الخطر التي قد تهدد حكمه⁽⁴⁾.
وقد أجمعت الدراسات التي إطلعت عليها بأن "حمودة باشا" كان حاكما متميزا، لما يتمتع به من ذكاء وفطنة، ومن بينهم القنصل الفرنسي "دوفواز" (Devoize)⁽⁵⁾، الذي أشاد به قائلا: «... حاكم نشط، مثقف وذو حنكة وفطنة متميزة...»⁽⁶⁾.

(1) هو من عائلة بلجيكية من أصل فرنسي، اختاره نابليون بونابرت ليكون معه في حملته على مصر 1798م، ثم توجه إلى تونس في سنة 1806م، واستقر فيها لمدة ستة سنوات عمل فيها كطبيب خاص لحمودة باشا، وهذا ما ساعده على تدوين ملاحظاته حول دولة حمودة باشا. من طبيعة الحكم والإدارة، والجانب العمراني وعادات سكان تونس. أنظر:

J, J Marcel: Op.cit, p 196.

(2) Pierre Grandchamp: **Auteur De Consulat De France A Tunis (1577 – 1881)**, Imprimerie, J, Aloccio, Tunis 1943, p 18.

(3) Venture De Paradis: Op.cit, p 82.

(4) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 17.

(5) هو جاك فليب دوفواز (Jacques- Philippe Devoize) ينحدر من عائلة كبيرة في فرنسا. عمل في الجيش حيث كان قائدا لفرقة عسكرية سنة 1774م. ثم عين كنائب للقنصل في تونس في 09 ديسمبر 1776م. ثم وكيل للقنصلية في طرابلس، وسوريا في سنة 1782م. مفتش للملك في تونس سنة 1791م. و قنصل عام سنة 1792م. وعين قنصل عام مكلف بشؤون سردينيا بتونس من سنة 1814م إلى غاية سنة 1815م. ثم عاد إلى فرنسا أين توفي بها في 9 نوفمبر 1832. أنظر:

L. Billey: **Médecins Français en Barbarie 1816- 1817**, in R. T., Tunis 1941, N^o 9, p 196.

(6) Khalifa Chatter: **Dépendance et Mutation Précoloniales La Régence de Tunis (1815- 1857)**, publications de l' université de Tunis, 1984, p 26.

كما أثنت المصادر المحلية على خصال الباي ومن بينهم "محمد بن محمد مخلوف" قائلاً: «... فكان في سلسلة الجيد الحسيني عقد ودره يتيمة ذا همة باذخة وحال شائخة حزماً حامياً للدمار غير متحمل للعار خبيراً بسياسة البلاد نصوحاً لها ...»⁽¹⁾، وفي نفس السياق قال "بيرم التونسي": «... هو في الحقيقة أعقل فروع ذلك البيت الذين استولوا على القطر...»⁽²⁾.

ومن الخصال الأخرى التي عرف بها "حمودة باشا" جمع المال ليس شغفاً به، وإنما لتصريفه وقت الحاجة⁽³⁾ فكان جد مهتم بما تحتاجه تونس، فاهتم بالعمل في هذا الصدد مما ساهم في طول فترة حكمه⁽⁴⁾. ويشير طبيبه "لويس فرانك" (Luise Frank) أن الباي كان مهتم بتطوير البلاد ولا يتردد في أن يدفع المال على ذلك⁽⁵⁾. وهذا يبين لنا نظرته المستقبلية للأمر. كما أنه كان يكره التبذير إلى حد أن اتهم بالبخل، لكن الواقع أنه ملتزم بمصالح رعيته لا بمصالحه، والدليل هو قوله أمام الملاء: «... ندمت على بناء دار القصبه⁽⁶⁾، و على بناء قصر منوبة إذ لا يعود على البلاد منهما نفع، يجلب مصلحة أو دفع مضرة، سوى ما يظهر للرأي من فخامة المبنى وحسن المنظر...»⁽⁷⁾.

وهناك قضية أخرى تثبت حرصه على المال العام، عندما أراد أن يدفع أجر يهوديات حضرن لوليمة ختان ابن أخيه؛ قالت له أمه: «... لقد عملن عند التومي الشواشي، وقبضن ثلاثمائة ريال...»، فأجابها "حمودة باشا": «... لسنا التومي...»، ثم يستطرد قائلاً: «... أن التومي يفعل بماله ما يريد، ولكن المال الذي بين أيدينا ليس ملكاً لنا، إنه لسكان البلاد...»⁽⁸⁾.

ولعل أبرز خصاله شدة تواضعه فكسب حب الناس له. ويشير "ابن مقديش" أيضاً أن الباي كان ميالاً للأناقة يحب ارتداء الثياب الفاخرة⁽⁹⁾، وخاصة المصنوعة بتونس مشجعاً بذلك الصناعة

(1) محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت 1929، ص 167.

(2) محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج 2، دار صادر بيروت، ب ت، ج 2، ص 5.

(3) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 15.

(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 9.

(5) Pierre Grandchamp : **Auteur De Consulat**, Op.cit, p 18.

(6) نقصد به قصر البارود، الذي أعاد بنائه وأدخل عليه الكثير من التعديلات في عام 1219هـ/ 1804م. أنظر:

محمد بن الخوجة: دار الباي بتونس، في المجلة الزيتونية، المطبعة التونسية 1942، عدد 8، ص 391.

(7) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 99.

(8) نفسه، ص 100. وللإطلاع على تفاصيل هذه الحادثة. أنظر:

L, Valensi: **Le Gouvernement De Hammouda Pacha**, in Les C. T, Tunis 1971, N° 73. 74, pp 91 – 94.

(9) محمود ابن مقديش: المصدر السابق، ص 80.

المحلية التي ستعرف روجا كبيرا في الأسواق الخارجية؛ فكان يلبس أقمشة مدينة سوسة والحمامات، ومنسوجات جزيرة جربة؛ وكان يقول: «...هذا بالنسبة لي أثن من نوع الكاشمير المستورد...»⁽¹⁾.

ب- عوامل نبوغه:

ترعرع "حمودة باشا" على يد أكبر علماء تونس - كما أشرنا سابقا - العارفين بأمور السياسة والعلوم الأخرى. ولعل هذا ما ترك أثرا كبيرا في شخصيته، حيث يذكر " ابن أبي الضياف "؛ أنه حزن على وفاة أستاذه الشيخ "حمودة باكير"⁽²⁾، فمشى في جنازته راجلا باكيا من داره بتونس إلى مدفنه⁽³⁾.

وإن أكثر الأشخاص تأثيرا في شخصية "حمودة باشا"، هو الوزير الأول "مصطفى خوجة" لأنه لم يكن أستاذه فقط، وإنما نشأ في كفالتة، وكان سندا له عندما اعتلى عرش تونس 1782م وسنبرز تأثير هذا الوزير في سياسة "حمودة باشا" فيما سيأتي من هذه الدراسة.

إضافة لهذا فقد تعلم الباي عدة لغات، وعلى رأسها العثمانية المستعملة في إجراء المفاوضات وتحرير المعاهدات⁽⁴⁾، وكان يتكلم اللغة الايطالية غير صحيحة⁽⁵⁾، كما كان له اطلاع على بعض اللغات الأوربية، وفهما فهما عاما كالفرنسية والمالطية، وهذا راجع إلى قرب القناصل؛ والمستشارين والأطباء⁽⁶⁾ الأجانب منه⁽⁷⁾. أما اللغة العربية فقد أتقنها نطقا وقراءة، غير أن كتابته كانت ضعيفة، تغلب عليها الألفاظ العامية التونسية.

(1) L, Valensi: Op.cit, p 94.

(2) درس بالجامع الأعظم في عصر الباي "علي باشا"؛ وابنه "حمودة باشا"، الذي تتلمذ على يديه. ويقال أنه كان شيخا فاضلا وعفيفا وعالي الهمة. توفي في 25 ذي الحجة 1220هـ / 16 مارس 1806م. أنظر: أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 7، ص 49.

(3) نفسه.

(4) رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 83.

(5) Pierre GrandChamp: : **Arbre généalogique de la famille Husseinite**, Op.cit, p 82.

(6) للإطلاع على قائمة الأطباء الأجانب في عصر "حمودة باشا". أنظر الفصل الثاني، المبحث الأول، ص 56.

(7) الغالي غربي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288-1916)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص ص 50-80.

إن معرفة "حمودة باشا" لهذه اللغات مكنته من فهم مصالح الدول الأوربية⁽¹⁾. كما أن اطلاعه على الحضارة الأوربية، ورغبته الجارحة في الاستفادة منها، جعلته يتابع التطورات التي تمر بها أوروبا، وعلى وجه التحديد الإنجازات التي حققتها الثورة الفرنسية بما فيها الدستور الذي تم الإعلان عنه سنة 1791م، حيث طلب من القنصل الفرنسي "دوفواز" (Devoize) أن يقوم بترجمة الدستور له، حتى يتمكن من الاطلاع عليه⁽²⁾؛ فأخبر القنصل حكومته بطلب الباي، فوافقت عليه في سنة 1209هـ/1794م⁽³⁾، واطلع على قانون نابليون بونابرت، وتأثر بأفكاره حتى أنه أمر "محمد بيرم" بوضع قانون يعتمد عليه في حكمه، وهو القانون الذي ظهر في شكل رسالة تحت اسم "السياسات الشرعية"⁽⁴⁾.

ج- صفاته و ميولاته

إن الحديث عن صفات وميول "حمودة باشا" هام جدا، لأنه يعطينا تصورا واضحا على شخصيته التي انعكست على سياسته في تسير شؤون الإيالة. حتى أن بعض الدراسات لم تهمل هذا الجانب، حيث يشير "فونتير دوبارادي" "Venture de Paradis" في كتابه الذي أشرت إليه سابقا أن "حمودة باشا" كان ميالا إلى شرب الخمر في الليل، وفي النهار يتفرغ لشؤون البلد⁽⁵⁾.
لقد تعلق الباي بالحياة العسكرية أكثر من أي شيء آخر، وهذا بسبب بتولييه قيادة المحلة العسكرية التي كانت تجمع الضرائب في مختلف أنحاء البلاد، وتعمل على نشر الأمن. في وقت مبكر حيث لم يتجاوز عمره العشرين سنة. ونظرا لاهتمامه الكبير بالحياة العسكرية ازدادت معرفته بشؤون الجيش، حتى وصفه القنصل الفرنسي "دوفواز" (Dvoise) بالإيالة سنة 1808م، بأنه أقدر قائد عسكري في تونس⁽⁶⁾. هذا أدى إلى بروز صفة الشجاعة، والإقدام عنده.

(1) رشاد الإمام: المرجع السابق، ص ص 85، 86.

(2) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص ص 501، 502.

(3) رسالة من "دوفواز" "Dvoise" إلى حمودته، تونس 31 ماي 1794. أنظر: المصدر نفسه، ص 237.

(4) أصدر "محمد بيرم" مجموعة من الفتاوى الشرعية في شكل رسالة، حاول فيها تقنين أحكام السياسة الشرعية بالاستناد إلى فتاوى الفقهاء. أنظر: رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 17.

(5) لكننا لا ندرك مدى صدق هذا الكلام الذي لم تناوله المصادر العربية؛ مثل بن أبين الضياف. وحتى الدراسات الأخرى التي تناولت الحياة الاجتماعية في عصر الباي؛ قد أشادت بشدة الباي مع من يخل بالقيم والأخلاق. أنظر:

Venture De Paradis: Op.cit, p 84.

(6) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 237.

كما ظهرت فيه صفة القسوة، اتجاه المماليك الذين جلبهم ليحلوا محل الأتراك، حيث منعهم من مخالطة الأهالي، والتكلم باللغة العربية خشية أن تكون ذريعة في الخلطة، وكان يعتمد إلى ضرب كل من يخالف الأوامر، وهنا يشير "ابن أبي الضياف" قائلا: «... كان الباي شديد البأس في تربيتهم وتأديبهم من غير رأفة... ولا يكلمهم إلا باللغة التركية...»⁽¹⁾.

إن هذه المعاملة الخشنة للمماليك، جعلتهم يفكرون في الانتقام من الباي، فأقبل ثلاثة منهم على الباي وهو نائم لقتله، لكنه نجا من هذه المحاولة بفضل تدخل "صاحب الطابع" الذي أنقذ حياته. وبعد هذه الحادثة ارتفعت منزلة "صاحب الطابع" عند الباي⁽²⁾.

وقد ظهرت صفة القسوة أيضا عندما أباد ثورة الجنود الأتراك⁽³⁾ عندما ثاروا عليه سنة (1226هـ / 1811م)، ومع ذلك العناد والتصلب؛ كان يتحلى بصفة من أهم الصفات الحميدة، وهي إنصاته لنصائح من يثق بهم، وهنا يبرز لنا دور هؤلاء الوزراء، في التأثير على سياسة الباي. كما اتصف أيضا بالنباهة، والعدل في الحكم سواء مع أهل البلاد، أو مع الأرقاء أو مع الأوربيين المتواجدين بتونس⁽⁴⁾. ومن الأمور التي لا يجذبها الإطراء والمدح، فقد كان يقول: «... من مدحك بما ليس فيك جدير أن يذمك بما ليس فيك، وأنا أعلم منه بنفسه، وحالة بلادي وتصرف الملوك تابع لحال المملكة...»⁽⁵⁾.

ثانيا- ولايته في عهد أبيه:

بدأ "علي باشا" على تعويد ابنه "حمودة" منذ صغره للخروج معه لتفقد أمور الإيالة، وهذا يبين لنا رغبة الوالد في اطلاع ابنه على شؤون الحكم، لتكوينه عمليا قبل أن يمارس السلطة⁽⁶⁾.

-
- (1) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 28.
 - (2) محمد بن عمر السنوسي: المصدر السابق، ص 19.
 - (3) إن الإصلاحات العسكرية التي قام بها "حمودة باشا"، والتي كانت تهدف إلى إبعاد العنصر التركي من مقاليد الحكم، في الجيش والاعتماد على التونسيين، أثارت له القلاقل داخل الجيش الذي رفض هذه الإصلاحات، حيث انتفض الأتراك في هذه السنة محاولين الإطاحة بحكم الباي، الذي تفتن بصنيعهم، وكلف "صاحب الطابع" بالتكفل بهم لإخماد ثورتهم. أنظر: ألفونصو رسو: المرجع السابق: ص ص 291 - 295.
 - (4) رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 91.
 - (5) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 77.
 - (6) محمد فوزي المستغامي: بلاط باردو زمن حمودة باشا (1782-1814)، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة تونس، 2006-2007، ص 234، (غ. م).

1- الإعداد المبكرة:

تعهد "علي باشا" عند اعتلائه العرش بالتخلي عن الحكم لأبناء شقيقه المتوفى "محمد باي الرشيد"، وهما "إسماعيل باي" و "محمود باي"، عملا بالمبدأ الأساسي الذي يقضي بتولي الحكم لأكبر الأمراء سنا في حالة شغور العرش التونسي، لكن "علي باشا" خالف هذه القاعدة لصالح ابنه "حمودة"، الذي كان أصغر سنا من ابني عمه⁽¹⁾.

إن إشارات تميز "حمودة باشا"، وإعداده لولاية العهد - حسب الظاهر - كانت منذ ولادته، حيث لقبه والده بالباشا، ليس على حساب ابن عمه "محمود باي"، وإنما على شقيقه "سليمان"، الذي عانى من مشاكل صحية أدت إلى وفاته في شهر رجب 1179هـ/ ديسمبر 1765م. وقد يكون هذا أحد العوامل المفسرة للأولوية التي أعطيت "لحمودة باشا".

بدأ "علي باشا" في التدابير اللازمة لتحضير "حمودة باشا" لولاية عرش تونس، في سن مبكرة⁽²⁾. حيث عينه مساعدا له في تسيير شؤون الإيالة؛ وعمره لا يتجاوز الثامنة عشر، فأثبت "حمودة باشا" قدرته على ممارسة السلطة في كنف أبيه⁽³⁾. فمن أبرز الأعمال التي قام بها على صعيد العلاقات الخارجية لتونس، دوره الكبير في توطيد العلاقات بين تونس وفرنسا، بعد معاهدة الصلح، التي عقدت سنة 1770م، وأعتبر مهندس العلاقات إلى جانب الوزير الأول "مصطفى خوجة" والقنصل الفرنسي "دي سيزيو" (Du Saizieu). وبهذا استطاع "حمودة باشا" أن يكسب ثقة الجميع ليكون خليفة أبيه⁽⁴⁾.

كما أنه بدأ بممارسة بعض شؤون السلطة منذ سنة 1774م، بتعيينه من قبل أبيه للنظر في القضايا المعروضة على محكمة الباي⁽⁵⁾، وفي سنة 1777م تولى بنفسه قيادة الجند فتميز عن جميع من تولوا قبله هذا المنصب⁽⁶⁾.

(1) روسو ألفونصو: المرجع السابق، ص 231.

(2) محمد فوزي المستغامي: المرجع السابق، ص 234.

(3) محمد بن عمر السنوسي: المصدر السابق، ص 118.

(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 4.

(5) تتولى هذه المحكمة شؤون التجار، والفلاحين والجنود. أنظر: أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 82، 83.

(6) محمد فوزي المستغامي: المرجع السابق، ص 243.

2- تمهيد البيعة لحمودة باشا:

إن كفاءة وقدرة "حمودة باشا" في إدارة البلاد، أهلتها لمنصب باي تونس⁽¹⁾، فعندما تقدم "علي باشا" في السن، وبدأ المرض يصارعه؛ طلب منه وزراؤه أن يولي ابنه من بعده، لكي لا يقع خلاف يحدث الفتنة في البلاد. فبدأ "علي باشا" بتقريب أول منافس لابنه على عرش تونس، وهو "محمود باي" والأحق منه بالولاية كما ذكرنا سابقا، وهذا بإكرامه ومصاهرته فوجه من إحدى بناته. وبقي الأمر هكذا حتى ضمن أنه لن يعارض على تقديم "حمودة" عليه للولاية. وفي الحقيقة هناك سببين آخرين كانا كفيلين باقتناع "محمود باي" بأهلية "حمودة" عليه وهما، اعترافه بقدرة "حمودة" عليه نظرا لحزمه ونجابتة، يضاف إلى ذلك أن "محمود باي" كان قد أصيب بمرض العضال الذي أهلكه. هنا طلب "علي باشا" من "محمود باي" تقديم الولاية لابنه "حمودة" متحججا بذلك، أنه مطلب أهل الحل والعقد في تونس هذا من جهة، ومن جهة ثانية أنه غير قادر على مواجهة حكام الجزائر بسبب عدم جاهز يه ومرضه. فوافق "محمود باي" على عرض عمه، فنصب الباي ابنه لمباشرة الأمور نيابة عنه في سنة 1184هـ/ 1777م⁽²⁾.

وليحصل "علي باشا" على قرار رسمي لإضفاء صفة الشرعية على تولية ابنه "حمودة باشا" عرش تونس أرسل إلى السلطان سليم الثالث بالباب العالي رسالة، ومما جاء فيها: «...الناس اتفقوا على تقديم ابني لكبر سني، وضعف بدني...»⁽³⁾. فوصل هذا القرار السلطاني والشعار الملكي له، عن طريق مبعوث الدولة العثمانية الذي توجه إلى قصر باردو أولا ثم إلى الديوان⁽⁴⁾، أين يتم تعيين الليات⁽⁵⁾؛ مصطحبا معه ولي العهد "حمودة باشا"، ومعهم رجال الدولة وأعيان البلاد فاستقبلهم رجال الديوان، بحضور "محمود باي"، الذي تأكد أن أهل الحل و العقد هم من طلبوا بتنصيب "حمودة باشا"⁽⁶⁾.

(1) ألفونصو روسو: المصدر السابق، ص 290-293.

(2) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 213.

(3) المصدر نفسه: ج 2، ص 213.

(4) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 213.

(5) محمد فوزي المستغامي: المرجع السابق، ص 237.

(6) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 214.

توجه "حمودة باشا" ومعه المبعوث العثماني، والأعيان من الديوان إلى قصر باردو، في موكب حافل، ولما دخل القصر وجد أباه في الانتظار، فجلس بصحن البرج، وبايعه المجلس الشرعي، و كبار الجند وأعيان الحاضرة، ثم توجه إلى بيت الباشا، وأول من بايعه بها هو ابن عمه "محمود باي"، وتمت هذه البيعة في شهر محرم 1191هـ / 9 فيفري 1777م، وأصبح بمقتضاها "حمودة باشا" وليا للعهد⁽¹⁾.

3- التشكيلة السياسية الجديدة في البلاط التونسي:

خص الباي "علي باشا" ابنه في هذه المرحلة - ولاية العهد - بطاقم إداري إلى جانب طاقمه، وتواصلت ثنائية التشكيلة الحاكمة إلى غاية 1193هـ/1779م، أين وقع إدماج قائمتي الطاقمين مع أولوية مطلقة للشخصيات المكونة لقائمة أتباع "حمودة باشا"، المكونة من الوزير الأول "مصطفى خوجة" و"سليمان خزندار"⁽²⁾. ونلمس من هذا الإجراء أن "علي باشا" أراد إبعاد بعض الأشخاص من الحكم بطريقة غير مباشرة، وفي المقابل يعطي لابنه حرية اختيار من يسير معه شؤون الإيالة مستقبلا.

4- علي باشا يرسخ سلطة ابنه:

ازدادت صحة "علي باشا" تدهورا، فبدأ باتخاذ التدابير اللازمة لضمان انتقال الحكم إلى ابنه دون حدوث معارضة، فقرر توليته منصب القضاء في مكانه، وهذا المنصب له هبة وامتيازات كبيرة. فبدأ "حمودة باشا" يباشر تسير شؤون البلاد؛ هذا الإجراء لم تكن أهدافه خافية على أحد لذا شعر بعض رجال الدولة بحدوث الفتنة حول عرش تونس بعد موت "علي باشا"⁽³⁾. رغم تولي "حمودة باشا" تسير شؤون الإيالة في وقت مبكر، وقبول السلطان العثماني، وتأييد "محمود باي" صاحب الحق الشرعي في الولاية، إلا أن ذلك لم ينف احتمال وقوع الفتن بعد وفاة "علي باشا"، وانتقال ولاية العرش لابنه⁽⁴⁾. وفي هذا الغرض كتب الشاعر "محمد الورغي" قصيدة تؤكد وتكرس فكرة تمرير الباي "علي باشا" السلطة إلى ابنه يقول فيها:

(1) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 214.

(2) محمد فوزي المستغامي: المرجع السابق، ص 236.

(3) ألفونزو روسو: المرجع السابق، ص 235.

(4) رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 67.

تبرم من دين الركود وقد رأى بنجليه ما يعني الغضنفر بالشبل.

توسم حمودة مبلغ المنى وفي خلق المأمون عارضة النبل.

هما درتا الملك الذي يصطفيهما ونعم جناحا طائر العقد والحل.

إذا نظرت عيناك من بان منهما سمعت مقال الملك هذان من شكل.

فاحضر بالأسفار ما غاب عنهما ورقاهما في الحال عن حالة الطفل⁽¹⁾.

استطاع "حمودة باشا" أن يكسب ولاء سكان تونس خلال الخمس سنوات التي قضاها وليا للعهد، فبعد وفاة "علي باشا" في 18 جمادى الثانية 1196هـ/ 30 ماي 1782م، تولى "حمودة باشا" الحكم بطريقة سلسلة، بالرغم من التخوف الذي ساد بالإيالة⁽²⁾. فحدد له الناس البيعة وقد أشار "محمود مقديش" إلى هذا قائلا: «... قلوبهم آمنة مطمئنة بنجله الأسعد سيدي حمودة باشا دام علاه، فحدد الناس له البيعة فكانت تعزيته مقرونة بتهنته البيعة العامة، ولم يتخلف عنها أحد، وأتت الوفود وقصده الناس من كل فج عميق فأحسن وفادتهم وأكرم نزلهم ...»⁽³⁾. كما أكد القنصل الفرنسي بالإيالة "دي روشيه" (Du Rocher)، في رسالة إلى حكومته مؤرخة في 27 ماي 1782م، أن "حمودة باشا" اعتلى عرش تونس في ظروف سادها السلام والأمن⁽⁴⁾.

وعليه فقد أدرك "حمودة باشا" منذ جلوسه على عرش تونس، أن المنصب ليس من حقه، وهذا ما قد يخلق له الكثير من المشاكل، لذا فقد بدأ بالعمل على تصفية الأجواء خاصة مع ابن عمه "محمود" صاحب الحق الشرعي. حيث قربه منه بإظهار المودة والمحبة له، ورفض الباي أن يقبل "محمود" يده، كما بدأ يستشيريه في بعض شؤون الحكم حتى يشعر بمكانته داخل القصر⁽⁵⁾. كما قام الباي بتقريب ريب عائلته منه، إذ كان في قمة العطاء معهم، خاصة مع أبناء عمه "إسماعيل" شقيق "محمود"، أين عمل على تلبية مطالبه والعطف عليه. وقام الباي بنفس الشيء مع

(1) محمد الورغي: ديوان الورغي، تحقيق وتقديم عبد العزيز القيزاني، الدار التونسية للنشر، تونس 1975، ص 150.

(2) محمد فوزي المستغامي: المرجع السابق، ص 238.

(3) محمود مقديش: المصدر السابق، ج 2، ص 81.

(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 125.

(5) محمد الصالح مزالي: الوراثة على العرش الحسيني ومدى احترام نظامها، الدار التونسية للنشر، تونس مارس 1969،

إخوته⁽¹⁾. وفي هذا الباب يقول "محمود مقديش": «... ومن مزاياه الجلييلة وأخلاقه الجميلة أنه جمع شمل إخوته وبني أعمامه وكل من ينتمي إلى نسبه الكريم، وأنزلهم في المقام الأعظم ...»⁽²⁾. وبهذا أحسن البايع التدبير بإتباعه سياسة أبيه رغم صغر سنه⁽³⁾. فتمكن من مباشرة حكمه الذي دام مدة ثلاث وثلاثين سنة⁽⁴⁾.

5- وفاة حمودة باشا:

توفي "حمودة باشا" يوم الجمعة بعد الغروب، في اليوم الأخير من شهر رمضان عام 1229هـ/ 16 سبتمبر 1813م، بعدما أتم صومه⁽⁵⁾، وقد اختلف المؤرخون حول سبب وفاته المفاجيء، فالتاريخ المذكور يتفق عليه كل من "ابن أبي الضياف"، و"مصطفى الترجمان" وغيرهم، و يرجع بعضهم الآخر تاريخ وفاته إلى سنة 1814م، وقد عثرنا على هذا في الرسالة التي بعثها السيد "سيالف" (Sielve) المكلف بأعمال القنصلية الفرنسية بتونس إلى حكومته، في سبتمبر 1814م⁽⁶⁾.

إضافة إلى هذا فقد وقع اختلاف بين المؤرخين حول سبب وفاة البايع، فالفونصو روسو يرجع السبب إلى السم الذي دس له في فنجان القهوة، واتهم "سليمان" شقيق البايع بأنه تأمر على أخيه لتكون له الخلافة⁽⁷⁾. وفي الرسالة الثانية التي بعثها السيد "سيالف" (Sielve)، أشار إلى أن سبب الوفاة هو استنشاق "حمودة باشا" لمسحوق من التبغ ممزوج بالسم قدمه له أمينه العسكري "مريانو ستنكا" (Mariano Stinca)⁽⁸⁾.

وقد نفى أحمد بن أبي الضياف كل هذه الأسباب التي قدمنا جزءا منها، حيث ذكر أن السبب الحقيقي لوفاة كان مرض القلب الذي عانى منه طيلة فترة حكمه، دون أن يعلم الناس⁽⁹⁾

(1) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 100.

(2) محمود مقديش: المصدر السابق، ص 170.

(3) حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تقلد وتعرية وتحقيق محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2006، ص 127.

(4) الترجمان بن مصطفى: كناش الشيخ بن مصطفى الترجمان، مخطوط تحت رقم 1618 ص 40. وجه.

(5) نفسه، ص 40.

(6) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 524.

(7) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 302.

(8) أ. بلانتي: المصدر السابق، ص 525.

(9) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 116.

عن مرضه، لذا كان خبر وفاته مفاجئ للجميع بقوله : «... هي تهمّة يبعدها العقل وتحيلها العادة، لأنه مبتلى بمرض مصاب به في القلب...»⁽¹⁾.

ومهما تعددت الأسباب حول وفاة الباي، إلا أن فقدانه كان فاجعة لأهالي تونس، الذين فقدوا واحدا من خيرة رجالها، نظرا لما قدمه من أعمال للنهوض بتونس، وتفعيل دورها في الحوض الغربي للمتوسط، وهذا ما سنورده في ما تبقى من دراستنا هذه . وخير دليل نقدمه على الحالة التي شعر بها الأهالي بعد وفاة قائدهم، الوصف الذي قدمه أحمد بن أبي الضياف قائلا : «...وحزنت المملكة لفقده، وبكت العيون ... ولاذ الناس بنعشه يحملونه على رؤوسه م...»⁽²⁾. إضافة إلى ما أورده الشعراء في رثائه، ومنهم الشيخ إبراهيم الرياحي⁽³⁾ في قصيدة طويلة جاء في مطلعها:

حكم المنية نافذ الأحكام والدار ما جعلت بدار مقام.

كم فتت كبدا وكم أبكيت دما ولرب عرش ثل بعد نظام⁽⁴⁾.

ومما سبق يمكن القول أن:

- العلاقات الخارجية لتونس مع دول غرب أوروبا قبل عهد "حمودة باشا"، كانت تتأرجح بين السلم والتوتر، وخاصة مع فرنسا التي حضيت بمكانة متميزة داخل تونس، جعلتها تفرض شروطها في كثير من المرات، وإن لزم الأمر تستعمل القوة ليستجيب هؤلاء البايات الذين سبقوا "حمودة باشا" لتلبية مطالبها، المتمثلة في السماح لشركاتهم التجارية بصيد المرجان بالمياه التونسية.

- تونس لم يكن لها دورا فعال في الحوض الغربي للمتوسط، في هذه الفترة بسبب الفتن الداخلية الناجمة عن الصراع حول عرش الإيالة هذا من جهة، وخضوعها إداريا لقرارات دايات الجزائر . هذا ما جعل البايات الحسينيين الأوائل لا يولون اهتماما كبيرا بتوسيع دائرة العلاقات الخارجية، وبقي الأمر هكذا إلى غاية عهد "حمودة باشا".

(1) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج3، ص 116.

(2) نفسه.

(3) هو الشيخ إبراهيم بن عبد القادر أحمد الرياحي، قدمت أسرته من طرابلس واستقرت بتونس، حيث ولد بها 1766م، و كان فقيها مالكيا تولى شؤون الفتوى بتونس، إلى غاية وفاته سنة 1266هـ/ 1850م، وقد جمع خطبه ومؤلفاته في كتاب عنوانه "تعطير النواحي بترجمة سيدي إبراهيم الرياحي". أنظر: محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، ط 2، 5 ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ج 2، ص ص 403، 404.

(4) عمر الركباني: خلاصة التاريخ التونسي، ط 3، مطبعة النهضة، تونس، 1946، ص 69.

- البيعة التي ظهر فيها "حمودة باشا" لعبت دورا بارزا في تكوين سياسته، ونعني بهذا الدور الذي قام به رجال البلاط في توجيه سياسته الخارجية، وهذا يدل على أنه شخصية مرنة في تقبل آراء ونصائح الآخرين.

- عصره شهد استقرارا داخليا، وازدهارا اقتصاديا لم تعرفه تونس طيلة حكم البايات الذين سبقوه، وهذا ما أطل في حكمه، رغم أنه لم يكن الوريث الشرعي لوصاية عرش تونس.

تعتبر الفترة الممتدة من نهاية القرن الثامن عشر، والربع الأول من القرن التاسع عشر للميلاد من أهم الفترات، التي أحدثت تغييرا كبيرا في تاريخ الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط على وجه الخصوص، مؤثرة بذلك في العلاقات بين الضفتين . لذا فإن هناك عدة عوامل أثرت في علاقات تونس الخارجية مع دول أوروبا الغربية، تحكمت فيها الظروف التي تمر بها أوروبا من ناحية، والوضع الذي ورثه "حمودة باشا" عن أبيه، إضافة إلى الأنشطة التي كانت تمارس في البحر سواء نشاط القرصنة، أو لصووية البحر، أو التجارة الخارجية . دون أن ننسى الصراع الديني الذي غذى الصراع القائم بين الضفتين على وجه العموم.

فمنذ أن تولى "حمودة باشا" وصاية عرش تونس، بدأ يعمل لتعزيز مكانة البلاد الاقتصادية، نظرا للظروف الصعبة التي تعاني منها الإيالة، وقد لعب رجال البلاط دورا هاما في توجيه سياسته الخارجية. كما حاول الباي أن يأخذ بأسباب القوة، التي تمكنه من فرض سلطانه، بالحفاظ على الاستقرار الداخلي ثم الاهتمام بتقوية دفاعاته ضد الأخطار الخارجية المحدقة بتونس. مما جعله يلجأ إلى مهادنة بعض الدول، حتى يحصل على الأسلحة، التي تعزز من سلطانه.

يضاف إلى هذا اهتمامه الكبير بنشاط البحرية، منذ توليه السلطة وتصميمه على رفع مكانة تونس إلى مركز القوة الفاعلة في الحوض الغربي للمتوسط، كل ذلك كان له تأثير كبير على تزايد النشاط البحري، في ظل المستجدات التي فرضتها الظرفية المتوسطة في هذه الفترة . والتي أضرت كثيرا بمصالح التاجر الأوربي، مما فتح المجال أمام "حمودة باشا" لإنعاش نشاط البحرية التونسية في اتجاهين، نشاط القرصنة و التجارة الخارجية . لذا يعتبر نشاط البحرية التونسية المؤثر المباشر في العلاقات الخارجية لتونس مع دول غرب أوروبا . وهنا يتبادر إلى أذهاننا هذا السؤال : كيف أثرت هذه العوامل في توجيه العلاقات الخارجية لحمودة باشا مع دول غرب أوروبا المتوسطة ؟

المبحث الأول:

العوامل الداخلية المؤثرة في العلاقات الخارجية لتونس.

تولى "حمودة باشا" وصاية عرش تونس في ظروف صعبة ورثها عن أبيه، وهذا ما جعله يقوم بجملة من التدابير والإجراءات؛ لتحسين وضع تونس الداخلي، ومواجهة التحديات الخارجية. لاستعادة مكانة تونس في الحوض الغربي للمتوسط. مما انعكس بشكل واضح على مسار العلاقات مع دول أوروبا الغربية، ويتضح ذلك من خلال:

- ظروف توليه الحكم.
- أثر التسليح في العلاقات الخارجية.
- دور رجال البلاط في العلاقات الخارجية.

أولاً- ظروف توليه الحكم:

ورث "حمودة باشا" عن أبيه جملة من المشاكل التي وقفت كحجرة عثرة، أمام طموح الباي الشاب، وسنسلط الضوء على الوضع الاقتصادي، باعتباره المحرك الأساسي للنهوض بالإيالة، ومن بينها:

1- العجز المالي:

واجه الباي في بداية حكمه مشكلة العجز المالي الذي تعاين منه خزانة الإيالة، بسبب عملية الإنفاق الكبيرة التي كان يقوم بها والده على الأهالي؛ مقابل قلة المداخيل، مما اضعف اقتصاديات البلاد التونسية⁽¹⁾، ويرجع "أحمد بن أبي الضياف" السبب إلى شدة سخاء "علي باشا" على رعيته⁽²⁾. وفي الرسالة التي بعث بها "حمودة باشا" إلى صهره - زوج شقيقته - "إسماعيل كاهية"، أخبره فيها بأنه وجه إليه المال الذي طلبه منه، وأنه تعذر عليه ذلك سابقاً، لعدم توفر المال، وطلب منه في آخر الرسالة، أن يقوم بإحراقها حتى لا يطلع عليها أحد، خوفاً من أن ينكشف الوضع المالي للأهالي، مما قد يحدث له اضطرابات داخل تونس هو في غنى عنها⁽³⁾.

(1) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا الحسيني في المجال التجاري، في م. ت. م، جويلية 1974، عدد 2، ص 83.

(2) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 2، ص 172.

(3) للإطلاع على هذه الرسالة. أنظر: الملحق الخامس.

2- الأوبئة والمجاعة:

تعتبر هذه الكوارث الطبيعية التي عرفتها تونس خلال فترة حكم الباي، والتي امتدت ما بين (1198 - 1217 هـ / 1784 - 1803 م)، من أبرز الأسباب التي أضعفت الاقتصاد التونسي، نظرا لما أحدثته من الموت والخراب، ويمكن أن نستعرضها فيما يلي:

أ- وباء الطاعون:

اجتاح هذا الوباء تونس في بداية حكم الباي إلى غاية 1212 هـ / 1797 م، حتى كاد أن يكون متواصلا كل سنة، ويرجع سبب إنتشار هذا الوباء إلى الحركة المستمرة للحجيج، خاصة القادمين من ميناء الإسكندرية⁽¹⁾. وقد أثر هذا الوباء بصفة مباشرة على مسار العلاقات الخارجية لتونس حيث ذكر "بيرغرانشان" (P. Grandchamp) أنه تم توقيف كل المعاملات التجارية مع أوربا، وغلق فنادق الممثلين الأوربيين داخل تونس، كإجراء احترازي من انتشار هذا الوباء داخل الرعايا الأوربيين⁽²⁾. كما كان هذا الوباء سببا في إعلان "حمودة باشا" الحرب على جمهورية البندقية، وقد أشرنا إلى هذا سابقا. إن الحديث على وباء الطاعون يقودنا، إلى استعراض أبرز نتائجه التي خلفها على العباد والبلاد، ففي سنة 1198 هـ / 1783 م، تعرضت تونس لوباء كبير وصفه أحمد بن أبي الضياف "بالوباء الكبير" بقوله: «... في سنة ثمان وتسعين ومائة وألف، وقع بالمملكة طاعون جارف وهو المعروف عند أهل الحاضرة بالوباء الكبير، مات بسببه أعيان من الحاضرة ...»⁽³⁾.

وفي السنة الموالية 1198 هـ / 1784 م؛ انتشر الوباء مجددا في تونس، بسبب قدوم سفينة موبوءة من الإسكندرية إلى حلق الوادي على متنها مائة وخمسين حاجا؛ بعدما قضى الوباء على عشرة أشخاص منهم⁽⁴⁾. وقد تضررت المناطق الساحلية بشكل أكبر من المناطق الداخلية⁽⁵⁾.

(1) لوسات فلنزي: المغرب العربي قبل احتلال الجزائر (1790 - 1830)، ترجمة حمادي الساحلي، دار سراس للنشر، تونس 1994، ص ص 27، 28.

(2) Pierre GrandChamp: **Autour De Consulat De France a Tunis**, Op.cit, p 240.

(3) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 20.

(4) Lucette Valensi: **Le Maghreb Avant La Prise D'alger (1790- 1830)**, Flammarion, France 1969, p 269.

(5) في نتائج هذا الوباء يقول محمود مقديش: «... من مات من صفاقس في أمد أيام الطاعون فكان نحو خمسة عشر ألف، وفي النساء أكثر من الرجال، ولم يبق من الزنج إلا النادر الذي لم يعد، ومات أكثر أهل الخير والصلاح، وحملة القران العظيم وأكثر الفقهاء ... ويئس الناس في حياتهم وعجزوا عن الحمل والدفن...». أنظر: محمود مقديش: المصدر السابق، ص 188.

إن هذا الوباء حصد أرواح العديد من الأشخاص، لأنه تجاوز الستة أشهر، حيث يشير الأب "رينال" (Rinale) أن عدد الضحايا بلغ مائة وخمسة وثمانون ألف شخص⁽¹⁾. وهناك من ذكر عددا أكبر من هذا، كما جاء في رسالة "بيون" (Billon) التي أرسلها إلى حكومة فرنسا⁽²⁾. ورغم تباين الإحصائيات حول عدد الأرواح، إلا أن هذا لم ينقص من قيمة الكارثة التي حلّت بتونس، وهذا ما يؤكد القس "بوارى" (Boirie)⁽³⁾، الذي شاهد النعوش التي كانت تحمل، وكثرة القبور التي حفرت، مما يدل على الوضع المأسوي الذي عرفته الإيالة⁽⁴⁾.

أما عن الفترات الأخرى التي إجتاحت فيها الوباء تونس، كانت في سنة 1794م، حيث كان السبب في انتشاره من الجزائر التي انتشر بها منذ شهر أوت 1793م. لكن هذه المرة كان الوباء أقل خطورة من السابق، نظرا لقلّة الضحايا وقصر مدته. وفي الفترة الممتدة من (1208 - 1213هـ/ 1794 - 1798م) بدأ الوباء في التناقص تدريجيا فقلت خطورته في كل مرة⁽⁵⁾.

لقد تعامل "حمودة باشا" مع هذا الوباء بكل حزم حتى يبعده عن القصر، لذا استعان بالأطباء الأجانب⁽⁶⁾، وبقي عامة الناس يعانون من هذا الوباء، وهذا ما أشار إليه التونسي قائلا : «...ولعل الأمراض إنما تعتري الفقراء لما يرونه من الذل والمسكنة والعري والمسغبة فيتهمون لضيق معاشهم...والغني ليس كذلك نعم، وإن كانت له هموم لكنها من جهة أخرى...»⁽⁷⁾. رغم هذا قام الباي بمجموعة من الإجراءات والتدابير للتقليل من خطر هذا الوباء، حيث أمر بعزل كل المصابين فيما يعرف بالحجر الصحي، وحرق كل ما يتلق بهم حتى بيوتهم⁽⁸⁾، ودفن الموتى في قبور يصل عمقها إلى المتر حتى لا ينتشر منهم الوباء⁽⁹⁾.

Lucette Valensi : Op.cit, p 269.

(1)

(2) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 489.

(3) قدم إلى تونس سنة 1785م، ومكث بها سنتين كتب خلالها مجموعة من التقارير لما شاهده بتونس، وأرسلها إلى زميله

بجامعة الصربون. أنظر رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا، ص 28.

(4) المرجع نفسه، ص 259.

Lucette Valensi: Op.cit, p 271.

(5)

(6) لقد إستعان الباي بعدة أطباء أجانب، نظرا لتخوفه الشديد من انتشار الوباء في كل مرة. أنظر قائمة أطباء "حمودة باشا" في

الصفحة الموالية.

(7) محمد بن عمر السنوسي: المصدر السابق، ص 14.

(8) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 21.

(9) Marcel Emérit: *L'essai D'une Marine Marchande Barbaresque au XVIII Siècle*, in *C. T.*, 1955, N° 11, p 13.

وقام بحاصرة المناطق الموبوءة بجواجز صحية . ولكي يمنع تسرب العدوى من الخارج، قام بتشديد الرقابة الصحية على القادمين إلى تونس ومراقبة سلعهم، حتى يضمن عدم تفشي المرض داخل الإيالة⁽¹⁾.
ب- قائمة أطباء حمودة باشا:

اسم الطبيب	أصله	المدة التي خدم فيها الباي	معلومات أخرى
دي فونتان Des fontaine	من فرنسا	(1197هـ/1783م) (1199هـ/1785م)	زار تونس سنة 1783م و أقام بها إلى غاية سنة 1785م و كان من أبرز علماء فرنسا كان طبيبا ومتخصصا في علم النباتات ،وكان من المقربين للباي إلى درجة أنه صاحبه في الخروج إلى المحلة ⁽²⁾ .
قازو (Gazzo)	من البندقية	(1198هـ/1784م)	كان طبيب و مستشار الباي.
مندريسي Mendrici	من جنوة	(1212هـ/1797م)	كان طبيب الباي الخاص ، و قد بقي في تونس إلى غاية سنة 1814م ⁽³⁾ .
لويس فرانك Louis Frank	من هولندا لكنه فرنسي الأصل	(1221هـ/1806م)	أقام فرانك في تونس حوالي ثمان سنوات(1806-1814م)، كطبيب للباي ثم كرئيس للأطباء، و أثناء إقامته في تونس ألف كتاب تحت عنوان: Description de la Tunisie
رونشي Ronchi	نابلي ايطاليا-	(1226هـ/1811م)	عمل في خدمة حمودة باشا في هذه الفترة ⁽⁴⁾ .

(1) لوسات فلنزي: المرجع السابق، ص 30.

(2) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص ص 257 - 497.

(3) Thomas Maggill : Op.cit , pp 96, 97.

(4) Marcel Emérit : Op.cit, pp 4, 5.

ج- المجاعة:

تعرضت تونس لفترات من الجفاف، مما أثر سلبيًا على إنتاج الحبوب وفي مقدمتها القمح، ففي الموسم الزراعي (1217-1218هـ / 1803-1804)⁽¹⁾، وقع جفاف كبير تسبب في حدوث المجاعة، مما جعل الباي يرسل في طلب المدد من المغرب⁽²⁾، ليبيعهما للأهالي بثمان أقل، وأحيانًا بدون مقابل⁽³⁾.

وقد حصدت هذه المجاعة أرواح الآلاف من التونسيين، كما تراجع المحصول الزراعي الذي تعتمد عليه تونس في تجارتها الخارجية، حيث استغلت بعض الدول هذا الوضع؛ وبدأت بفرض شروطها على الباي لتزويده بكميات كبيرة من القمح، والزيتون، وعلى رأسهم فرنسا⁽⁴⁾. ورغم هذه الظروف الصعبة التي واجهها الباي، إلا أنه كان يبذل كل ما في وسعه، حتى ينهض بالبلاد، في ظل التطور الذي عرفته أوروبا، والإصلاحات التي بدأت داخل الدولة العثمانية على يد السلطان "سليم الثالث"⁽⁵⁾. فبدأ يعد العدة لاسترجاع مكنة وقوة تونس.

ثانيا- أثر التسليح في العلاقات الخارجية:

عمل الباي منذ توليه وصاية العرش، على الأخذ بأسباب القوة حتى تصبح تونس في مأمن من الاعتداءات الخارجية، فبدأ بتعزيز الجيش بالأسلحة والعتاد اللازم، لذا بدأ بفرض شروطه على الدول الأوروبية التي كانت تسعى لعقد اتفاقية معه، أو تبحث عن تجديد المعاهدات المبرمة سابقًا، وذلك بأن تكون الهدايا التي تقدم له عبارة عن أسلحة وذخائر حربية. وفي سنة 1200هـ / 1786م وصل إلى تونس عتاد حربي من فرنسا⁽⁶⁾، كان الباي قد طالب

(1) محمد بن محمد مخلوف: المصدر السابق، ص 167.

(2) أرسل "حمودة باشا" الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي إلى السلطان المولى سليمان بن محمد، ومعه كتاب يتضمن طلب المدد، فأمده السلطان بالميرة ومعها هدية للباي. أنظر: أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق أحمد الناصر، ج 9، منشورات وزارة الثقافة والاتصال الرباط 2001، ج 7، ص ص 151، 152.

(3) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 113.

(4) Thomas Maggil: Op.cit, pp 182- 187.

(5) محمد سهيل طقوش: العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (698-1343هـ / 1299-1924م)، دار النفائس، بيروت 1999، ص 408.

(6) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 286.

به، وفي نفس السنة وصلت سفينة جنوية إلى حلق الوادي قادمة من الدانمارك؛ محملة بأربعة وعشرين مدفعا و ثمانية عشر برميلا بارود، ومائتي لوحة من الخشب اللين؛ ومائة لوحة من الخشب الصلب إضافة إلى حبال ربط السفن وأشرعة؛ وخمسة عشر صندوقا من القذائف⁽¹⁾.

إضافة إلى هذه الهدايا التي تحصل عليها الباي، قام بمكاتبة الحكومة الفرنسية سنة 1790م، لتصنع له آلة لثقب المدافع⁽²⁾. وراسل حكومة اسبانيا - بعد عقد الصلح معها- لجلب بعض المراكب، ويتضح هذا في الرسالة التي بعث بها الملك الاسباني "دون كارلوس" إلى الباي يقول فيها: «... ونظرا لحرصي الشديد بأن أقدم لكم شاهدا حيا على الاهتمام الذي أوليه لطلباتكم فإني جددت أوامري بأن يقع في أقرب الآجال صنع المراكب التي طلبتموها منا...»⁽³⁾.

وصل إلى تونس السيد "أنطوان نجسون" (Antoine Nijssen) في 4 نوفمبر 1794م قادما من هولندا لإعلام الباي بأن حكومة لاهاي قد نصبته خليفة لوالده "أرنولد" (Arnold) الذي قدم للباي قبل ثماني سنوات 440 برميل من مسحوق البارود بقيمة خمسون ألف بياستر من أجل الحفاظ على السلام بين البلدين. استغل "حمودة باشا" حضور "أنطوان نجسون" ودفع له ثلاثون ألف بياستر مقابل أن يجلب له عدد من المدافع، ألف قنطار من البارود وعشرون مدفعا وعشرة آلاف قذيفة؛ ومجموعة من الألواح من طول 2.5 متر؛ وثمانية صواري، ومطالب أخرى خاصة بتجهيزات السفن. فقبلت حكومة لاهاي بمطالب "حمودة باشا"، لأنها كانت ترغب في إقامة صداقة مع تونس⁽⁴⁾. إن اهتمام الباي بالتسلح جعله يرتبط مع بعض الدول الأوربية، فاستغل حالة السلم مع فرنسا، وفرض على إسبانيا شروطا مالية كبيرة مقابل السلام، حتى يتمكن من شراء الأسلحة⁽⁵⁾.

(1) رسالة من "ديسبارون" "D'esparron" إلى حكومته، تونس 3 أوت 1786م. أنظر: أ. بلانتي: المصدر نفسه، ج3، ص 3.

(2) نفسه، ص ص 185، 186.

(3) رسالة من الملك الاسباني دون كارلوس إلى الباي حمودة، 20 فيفري 1798م. أنظر: نور الدين الحلاوي: المرجع السابق، ص 92.

(4) Gérard Van Krieken: **Hammuda Basa et le port de la Goulette**, in **R, T**, T 51, Tunis 1988, N° 162, p 222.

(5) وافق الباي التفاوض مع الولايات المتحدة الأمريكية، مقابل قائمة طويلة من العتاد الحربي يتضمن "ثمانية وعشرين مدفعا، وعشرة آلاف قذيفة مدفعا، وثلاثمائة قنطار من البارود، وأربعة مائة قنطار من حبال السفن. أنظر: ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص ص 257-267.

وقام بنفس الشيء مع الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1214هـ / 1799م⁽¹⁾. وعليه يمكن القول أن عملية التسلح كانت من العوامل المؤثرة، في إحداث التقارب بين الباي وهذه الدول.

ثالثاً- دور رجال البلاط في العلاقات الخارجية:

رغم الحكمة التي يمتاز بها الباي "حمودة باشا"، إلا أنه كان لا يستغني عن نصائح رجال حكومته فيما يخص القضايا الكبيرة منها والصغيرة، حيث كان يقول: «...من الأحسن أن نتقاسم الخطأ مع الآخرين، خير من أن أكون وحيداً في الحقيقة ...». وكان يردد قائلاً:

الرأي مظلم كالليل والليل لا ينجلي إلا عند الفجر.

جمع إذا أنوار الرؤى للرجال إلى رأيك لكي يزداد قوة⁽²⁾.

لقد أحدث "علي باي" والد "حمودة باشا" خطة الوزارة الأولى، وصاحبها يطلق عليه الوزير الأول يمتلك صلاحيات واسعة. بالإضافة إلى وزراء آخرين أدنى مرتبة منه وأقل نفوذاً. وعليه يمكن تقسيم الشخصيات ذوي التأثير في توجيه السياسة الخارجية للباي من حيث وظائفهم⁽³⁾. على الشكل الآتي:

1- تأثير الوزراء:

حافظ الباي عندما عقدت له البيعة، على معظم رجال دولة أبيه في مناصبهم، التي كانوا

يشغلونها حفاظاً على استقرار الأوضاع في البداية، غير أنه رغب في تحديد مختلف قطاعات الإدارة العامة، مما جعله يجمد نفوذ بعض الفئات، ومنهم بعض الوزراء⁽⁴⁾. ومن أبرز الوزراء الذين أثروا في سياسة الباي الداخلية والخارجية:

أ- تأثير الوزير مصطفى خوجة:

هو الوزير الأول في عهد أبيه "علي باشا"، وكان مكلفاً بالأمور المالية وشؤون الأوربيين وكان يتمتع بأخلاق عالية؛ ويحسن التكلم بالعثمانية والإيطالية. وعندما أصاب المرض "علي باشا" شعر "مصطفى خوجة" بالخوف بسبب احتمال توتر الوضع بالإيالة عندما تنتقل ولاية لعرش إلى ابنه "حمودة باشا". فغادر تونس قبيل توليه الحكم بحجة أداء فريضة الحج، لكنه عندما رجع إلى

(1) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 267.

(2) Lucette Valensi: **Le Gouvernement De Hammouda Pacha**, Op.cit, p 90.

(3) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 103.

(4) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 11.

تونس وجد الوضع مستقر عكس ما كان يتوقع، فأسند إليه "حمودة باشا" منصبه الأول⁽¹⁾. وبذلك ضمن ولايته، لأن الباي كان يدرك تماما القدرات التي يتمتع بها هذا الوزير، في تسيير شؤون الحكم هذا من جهة، ومن جهة ثانية أدرك "حمودة باشا" في أول عهده صعوبة كبيرة في إدارة الحكم بدون الوزير الأول أثناء أدائه لفريضة الحج⁽²⁾.

لقد ازداد نفوذ "مصطفى خوجة" بعد زواجه من الأخت الصغرى للباشا - كما أشرت إليه سابقا -، ورغم تماطل "حمودة باشا" في عقد قرانه بحجة ضرورة تفرغ المسؤولين لإدارة شؤون الإيالة. ويشير القنصل الفرنسي بتونس، بأن الباي منذ أن كان واليا للعهد في فترة أبيه (1191-1196هـ/1777-1782م)، كان يستشير الوزير الأول في الأمور العامة ليقرر فيها⁽³⁾.

ومن مظاهر تأثير الوزير في سياسة الباشا، اهتمامه بالمصالح الفرنسية في تونس، والعمل على خدمتها بتقديمها على مصالح الدول الأوروبية الأخرى⁽⁴⁾، وما يؤكد ذلك رسالة الشكر؛ التي أرسلها وزير الخارجية الفرنسي إلى "مصطفى خوجة"، التي أشاد له فيها عن دوره لإرساء العلاقات الطيبة بين البلدين. وقد تكرر هذا العرفان بالجميل للوزير في عدة مناسبات خاصة في فترة القنصل الفرنسي بتونس "دي روشيه" (Du Rocher)⁽⁵⁾.

والأمر الثاني الذي نجح الوزير في تطبيقه داخل الإيالة، هو سياسة احترام الأجانب الأوروبيين المقيمين بتونس، وضمان أمنهم وحفظ مصالحهم خاصة التجارية، فاكسب الوزير ثقة الأوروبيين، و رأوا فيه مصدر الحماية لهم ولمصالحهم في تونس نظرا لآثاره وتسامحه. وقد ذكر التاجر الإنجليزي "ماجيل" (T. Maggil)، أن البلاد تحسنت أوضاعها أثناء تولي "مصطفى خوجة" تسيير شؤون الإدارة مما أكسبه ثقة الباي⁽⁶⁾.

ومن الأمور التي تدل على ثقة "حمودة باشا" بالوزير، أنه جعله نائبا عنه عندما خرج بالحلة لجمع الضرائب سنة 1198هـ/1784م. مصطحبا معه خمس بايات من العائلة حتى يضمن عدم

(1) رسالة من "دي روشيه" "Du Rocher" إلى حكومته، تونس جوان 1782م. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 125.

(2) رسالة من "دي روشيه" إلى حكومته، تونس 16 أفريل 1782م. أنظر: المصدر نفسه، ص 123، 124.

(3) رسالة من "دي روشيه" إلى حكومته، تونس 13 فيفري 1781. أنظر: المصدر نفسه، ص 116، 117.

(4) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 107.

(5) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 105-126.

Thomas Maggil: Op.cit, p 24.

(6)

حدوث انقلاب أثناء غيابه. فوجد فيه الثقة اللازمة لاستخلافه، لتسير شؤون البلاط أثناء غيابه⁽¹⁾.
لكن نفوذ الوزير بدأ يتراجع رغم نجاحه في التأثير على سياسة الباشا، بسبب سوء التفاهم
الذي حدث بينهما في صائفة 1201 هـ / 1786م، وتطور الخلاف إلى إعلان الباشا عن استعداده
للتخلي عن جميع نشاطاته سنة 1204 هـ / 1789م. وقد أشار القنصل الفرنسي "
دوفواز" (Devoize) في الرسالة التي بعث بها حكومته إلى الخلاف، الذي برز علنا بينهما أثناء
حضوره سنة 1209 هـ / 1794م. ومع هذا لم يقل الباي الوزير من منصبه إلى غاية وفاة هذا الأخير
في 1215 هـ / 11 أكتوبر 1800م⁽²⁾.

ومن خلال ما عرضناه يمكن القول أن الوزير استطاع أن يلعب دورا كبيرا في التأثير على سياسة
الباي الخارجية، فكان دائما حريصا على توطيد العلاقات خاصة مع فرنسا.
ب- تأثير الوزير يوسف خوجة:

هو الوزير الشهير "بأبي المحاسن يوسف خوجة" "صاحب الطابع"⁽³⁾؛ أصله من مسلمي
البعغان⁽⁴⁾ أستقدم إلى تونس بصفة مملوك، ونظرا لذكائه وإخلاصه تدرج في المناصب إلى أن أصبح
أحد الركائز التي يعتمد عليها "حمودة باشا" في حكمه⁽⁵⁾. و بعد وفاة الوزير الأول تقلد "يوسف
خوجة" الملقب "بصاحب الطابع" منصب الوزير الأول، وأصبح يدير منصب شؤون الوزارة، وبدأ
"يوسف خوجة" يقوم بإجراء المفاوضات مع الدول الأوربية، واضعا مصلحة تونس في الاعتبار الأول،
ومن هنا استمد قوة الحكم؛ ومن أبرز أعماله:
انتهاجه لسياسة خارجية تركز على مبدأ المعاملة العادلة لقناصل الدول الأوربية، ولعل هذه⁽⁶⁾

(1) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص ص 109، 110.

(2) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 237.

(3) قام الباي بتقريب "يوسف خوجة"، بمنحه خطة صاحب الطابع سنة 1783م، وذلك عندما سأله قائلا: «...هل
تحسن الطبع؟ ...»، فقل له: «... نعم ...»، فأجلسه وأعطاه الطابع، وقال له: «... مهما أتت المكاتيب تقدم لتطبعها
...»، ومنذ ذلك الحين أصبح يعرف بصاحب الطابع. أنظر: أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 7، ص 90.

وصاحب الطابع تعني حافظ لخاتم الباي، ووظيفته ختم المكاتيب. أنظر: محمد بيرم الخامس: المصدر السابق، ج 1، ص 2.

(4) ولاية كبيرة بمنطقة البلقان، كانت تابعة للدولة العثمانية، وبها عدد كبير من المسلمين. أنظر:

عبد الوهاب حسن حسني: المرجع السابق، ص 162.

(5) نفسه.

(6) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص ص 115، 117.

الخطوة ستلغي مكانة فرنسا بالإيالة، ونفوذها المتميز الذي حظيت به في عهد الوزير الأسبق، وأكثر من ذلك أن صاحب الطابع كان يكن حقدا لفرنسا، التي انزعجت من سياسته وبدأت تسعى في تدارك الأمر للحفاظ على مصالحها بالإيالة، فاستغل سفير فرنسا باسطنبول زيارة الوزير على رأس بعثة تونسية للسلطان العثماني سنة 1210هـ/ 1795م بتهديده، وذلك بتقديم شكوى للسلطان إن لم يعدل عن سياسته المعادية لفرنسا⁽¹⁾.

هذا الأمر جعل الوزير يخفف من عدائه تجاه مصالح فرنسا بالإيالة خلال فترة انتهت بحملة نابليون بوناپرت على مصر 1798م، ليعود التوتر من جديد⁽²⁾. لكن سرعان ما تحسنت العلاقة بين الوزير، وفرنسا ابتداء من سنة 1215هـ/ 1800م، وهذا منذ أن أصبح "صاحب الطابع" الوزير الأول بشكل رسمي. وبهذا استطاع الوزير أن يضمن لحكومته حرية التسيير، في الشؤون الداخلية والخارجية دون ضغط فرنسا⁽³⁾.

ومن مظاهر تأثير هذا الوزير على "حمودة باشا"، ضغطه عليه لتوجيه حملة ضد الثائر "علي برغل"، الذي استولى على الحكم في طرابلس الغرب الجديد، وطرد "علي باشا القرمانلي" منها، كما أنه قام بعدها بالاستيلاء على جزيرة جربة التونسية.

ج- تأثير الوزير محمد الأصرم:

يعتبر من أهم وزراء الباي بحكم منصبه - باش كاتب- بحيث برز تأثيره على الباي واضحا، بتقديمه للنصائح له⁽⁴⁾، كما تميز باعتداله فكان من أصحاب الحلول السلمية، ومعارض الحروب، وما يؤكد أهمية هذا الوزير بالنسبة لمصالح الدول الأوربية، هو طلب القنصل البريطاني "ماجرا" من حكومته تقديم هدية لهذا الوزير باعتباره المسؤول الذي سيكون له نفوذ بتونس⁽⁵⁾.

2- تأثير المستشارين:

اعتمد الباي على بعض المستشارين في تسيير شؤون الإيالة، و من أبرزهم "رجب بونمة" الذي تميز بخبرته في أمور الجيش، إضافة إلى "حمودة الأصرم". أما "حميدة بن عياد" فقد كان من

(1) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص ص، 115، 117.

(2) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص ص 400، 401.

(3) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 117.

(4) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص ص 32- 51.

(5) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 132.

كبار أغنياء تونس الذين يمارسون التجارة الخارجية، وساهم بماله في تجهيز الحملة الثانية على الجزائر سنة 1807م. إضافة إلى شخصيات أخرى أثرت في قرارات الباي بحكم المناصب، التي أوكلت إليهم داخل البلاط⁽¹⁾، ونذكر منهم:

أ- نيسان (L. nyssen):

هو من يهود تونس دخل في خدمة الباي منذ صغره، وبرز دوره في النصائح التي قدمها للباي في الشؤون الخارجية لتونس. لأنه كان المترجم الخاص للباي؛ مما سمح له بالاطلاع على سياسة الدول الأوروبية اتجاه تونس، لذا كان تأثيره كبير في سياسة الباي⁽²⁾.

ب- فامان (Joseph. Etienne.famin):

عمل " فامان " منذ بلوغه مع أبيه في الوكالة التجارية الأفريقية بمرسيليا، ثم توجه إلى تونس ليستقر فيها سنة 1789م؛ ويسير متجرا تابعا لهذه الوكالة . كما عرف بمؤهلاته ومعرفته لعدة لغات مما أكسبه ود الباي، الذي يبحث عن الطرق التي تمكنه من إثراء تجارته فجعله مستشاره الخاص⁽³⁾. كما ساهم هذا التاجر في إبرام صفقة تجارية ناجحة بين تونس فرنسا أواخر سنة 1795م. ثم عينه الباي المفاوض الرسمي له؛ أثناء عقد المعاهدات مع الدول الأوروبية . فكان السبب في عقد بعضها، مثل المعاهدة التي تمت بين تونس والولايات المتحدة الأمريكية. هذه الأخيرة طلبت منه عن طريق القنصل الأمريكي بالجزائر السيد "جويل بارلو (Joel Barlow) بالتوسط لعقد معاهدة مع تونس، فنجح "فامان" في عقد هذه المعاهدة 1184هـ/1795م، ومقابل ذلك تم تكليفه برعاية المصالح الأمريكية بتونس من سنة 1796م إلى غاية 1799م، وهذا ما أفقده الجنسية الفرنسية وجميع حقوقه التي استعادها فقط في 3 نوفمبر 1802م⁽⁴⁾.

ورغم ما قيل عنه من طرف الفرنسيين بأنه رجل أعمال مشكوك فيه؛ بسبب المساعي التي بذلها لتحقيق السلام بين تونس والولايات المتحدة الأمريكية ، والذي يتعارض مع المصالح الفرنسية بتونس. إلا انه لقب بنائب الأمة الفرنسية بتونس⁽⁵⁾.

(1) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 43.

(2) رشاد الإمام: : سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 136.

(3) Henry. De. G. R: **Etienne Famin Et Son Vole Diplomatique A Tunis**, in R T, Tunis 1905 (3), N⁰ 12, pp 177- 181.

(4) F, Caroni: **Etienne Famin (1795 – 1802)**, in R T, Tunis 1916, N⁰ 114, p 181.

(5) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 60.

ج- ماريانو ستينكا (Mariano stinca):

هو من عبيد مملكة نابل جلب إلى تونس وعاش بقصر باردو؛ وجعله الباي مترجمه الخاص لأنه أصبح يتقن اللغة العربية. ورغم مكوته طويلا في تونس إلا انه لم يعتنق الإسلام؛ ويعتبر العبد المفضل عند الباي؛ وأكثرهم تأثيرا فيه لأنه كان أمين سره، كما لعب دورا كبيرا في علاقة الباي مع قناصل الدول الأوروبية المعتمدين بتونس⁽¹⁾. وخاصة أنه كان يتقن اللغة العربية والايطالية.

هذا جعله صاحب نفوذ داخل قصر الباي، حيث تمتع باحترام كبير من طرف السفراء الأجانب، فقد أرسل القنصل الفرنسي بتونس السيد "دوفواز" رسالة إلى حكومته سنة 1216هـ/1800م، يطلب فيها إرسال هدية إلى "ماريانو" نظرا لأهميته في اجتماعات الباي⁽²⁾. ومن مظاهر تأثيره على علاقات الباي الخارجية، أنه نجح في عقد هدنة مع الباي باسم مملكة نابولي لعقد السلام معها سنة 1228هـ/1814م⁽³⁾. لكنه أتهم فيما بعد بأنه هو من قتل الباي "حمودة باشا"⁽⁴⁾.

(1) Pierre Grandchamp: **Autour de Consola**, Op.cit, p 135.

(2) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 413.

(3) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 297.

(4) **Nouvelle Biographie Général depuis Les Temps Les Plus Reculés jusqu'à nos jour**, 47 (4) Tome, Firmin, Didot, Frères, Paris 1855, T 13, p 535.

المبحث الثاني:

تأثير نشاط البحرية التونسية في العلاقات الخارجية لحمودة باشا:

يعتبر العامل الديني من أبرز العوامل المؤثرة في توجيه العلاقات الخارجية، بين البلاد المغاربية و دول غرب أوروبا، حيث ساهم في بروز نشاط القرصنة، بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط، فكان هذا النشاط مصدر استنزاف مادي لكلا الطرفين، طيلة العصر الحديث . وقد بدأ هذا النشاط في تونس يتراجع، في مطلع القرن التاسع عشر بسبب المعاهدات الموقعة من طرف تونس، مع دول غرب أوروبا. مما عزز مكانة المبادلات التجارية بين تونس، وموانئ دول غرب أوروبا خاصة مع فرنسا وليفورنو. كما أن نشاط القرصنة ساهم في تغذية التجارة الخارجية، لأن التجار الأوربيون اعتمدوا بشكل كبير على السلع المقرصنة⁽¹⁾.

وقد تفتن الباي لأهمية النشاط البحري، وخاصة أن تونس تمتلك مقومات طبيعية تتمثل في الساحل الشمالي والساحل الشرقي للحوض الغربي للمتوسط . ويتضح لنا مدى تأثير هذه العوامل من خلال الملامح التالية:

- طبيعة الصراع الديني.
- البحرية التونسية في عصر حمودة باشا.
- تأثير القرصنة البحرية في العلاقات الخارجية.

أولا- طبيعة الصراع الديني:

لقد لعب الجهاد البحري لبلاد المغرب دورا كبيرا، لوقف المد المسيحي⁽²⁾، خاصة بعد طرد المسلمين من الأندلس، حيث أصبح أمرا مشروعا⁽³⁾. وقد لعب الموريسكيون المطرودين من إسبانيا دورا كبيرا، في هذا النشاط بتونس، منذ أن قام "الأسطا مراد"، بجلب عدد منهم من الجزائر لتعمير ميناء غار الملح، والعمل فيه⁽⁴⁾، نظرا لخبرتهم الكبيرة في مجال البحر، إضافة إلى دافع

(1) Christian Windler: Diplomatie et Interculturalité: Les Consuls Fiançais à Tunis, 1700-1840, in R. M. P. N. C, S. D, pp 66, 67.

(2) زكي مبارك : الجهاد البحري في الغرب الإسلامي ، المفهوم الإسلامي والمفهوم المسيحي ، رحلة البحث العلمي السنة الإحدى والثلاثون ، جامعة محمد الخامس ، الرباط 1998 ، عدد 45 ، ص 16.

(3) لمنور مروش: المرجع السابق ، ص 458.

(4) عبد الحكيم القلعي سلامة: الموريسكيون الأندلسيون والجهاد البحري التونسي غار الملح بين 1609-1805م،

الندوة الدولية في موضوع الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي، سلا 1997، ص 86.

الانتقام من الأسبان، الذين نهبوا أموالهم، واستحلوا حرماهم، وطردوهم من بلادهم⁽¹⁾.

كل هذا جعل الدولة العثمانية ترفع لواء الجهاد الإسلامي بالإيالات المغربية، ضد العالم المسيحي⁽²⁾. فقد اعتبر "خير الدين بربروسة"، أن النشاط البحري حربا مقدسة ضد المسيحيين⁽³⁾، لتحرير العديد من القواعد الإسلامية في بلاد المغرب من الاحتلال الإسباني⁽⁴⁾.

إن استمرار الصراع الديني خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد، جسده تلك

الممارسات، التي كان يقوم بها كل من فرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة، وقراصنة الدويلات الإيطالية؛ ضد التجار والحجاج المغاربة، اعتقادا منهم أن هذه الحرب تجلب لهم الثروة والفران، كما أن المغاربة لم يبقوا مكتوفي الأيدي ضد هذه الاعتداءات، التي غذتها الروح الصليبية، بل شنوا هم أيضا غارات مشابهة على السواحل الجنوبية لدول أوروبا الغربية. وعليه فقد كان العامل الديني، بالنسبة للطرفين الإسلامي والمسيحي، أمر جهاد وحرب مقدسة⁽⁵⁾.

ثانيا- البحرية التونسية في عصر حمودة باشا.

1- السفن المستعملة في البحرية التونسية في عهد الباي:

- Bombarde:

سفينة صغيرة مزودة بالقنابل، وهذا ما أعطاها اسم "المقنبلة"؛ بها صاري⁽⁶⁾ كبير في المقدمة و آخر صغير في المؤخرة، وهي تشبه الغليون⁽⁷⁾.

(1) عمار بن خروف : العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري /

السادس عشر ميلادي، ج 2، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع 2008، ج 2، ص 29.

(2) لمنور مروش: المرجع السابق، ص 458.

(3) مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق عبد القادر نور الدين، المطبعة النعالبية، الجزائر 1335هـ/

1934م، ص 458.

(4) عزيز سامح أتر: الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تعريب محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت

1989، ص 129.

(5) جون. ب. وولف: الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر

1986، ص 239.

(6) هو العمود الخشبي الذي يتوسط ظهر السفينة الشراعية، وظيفته حمل الأشرعة التي تنشر لتستمد السفينة طاقة الحركة من قوة

دفع الرياح. أنظر: محمد غريب: معركة ذات الصواري، دار الطلائع للنشر والتوزيع، مصر 1993، ص 7.

(7) Pierre. Grandchamp: Documents Relatifs Aux Corsaires Tunisiens (2 octobre 1777-

4 mai 1824), Tunis 1925, p 82.

- بريك Brick:

من المراكب الحربية الخفيفة، لها صاربان تحمل شرعات مربعة؛ تحمل حوالي عشرين مدفعا ومائتي بحار، وتستعمل أيضا في التجارة⁽¹⁾.

- بريقانتى Brigantin:

هي سفينة أصغر بقليل من الغليوط لها شرع واحد، وبها ما بين ثمانية عشر وتسعة عشر مقعدا⁽²⁾.

- الشبك Chebek:

سفينة صغيرة تنتسب إلى عائلة السفن الشراعية الحربية، وهي تحمل ثلاث صواري وصدورها بارز أمام السفينة⁽³⁾ تحمل عشرة مدافع، وتمتاز بالسرعة والخفة، ويعتمد عليها كثيرا في عملية الغزو⁽⁴⁾.

- الكورفيت Corvette:

تدعى الكريبط أيضا⁽⁵⁾؛ وهي مركب حربي صغير تشبه الفرقاطة في الصواري والأشعة.

- الفرقاطة Frégate:

سفينة صغيرة جدا ذات مجاذف، كان لها دور القارب في نهاىة القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، حيث كان بها ستة مقاعد فقط⁽⁶⁾، ثم عرفت تطورا في عهد الحسينيين، حتى بلغ طولها ثلاثين متر⁽⁷⁾، تستطيع حمل ستة وثلاثين مدفع⁽⁸⁾.

- كيتر Cutter:

سفينة صغيرة؛ وقصيرة؛ وعريضة في الوسط و الأمام؛ وضيقة من الخلف بها صاري يحمل شرع واحد شبه منحرف الشكل⁽⁹⁾.

(1) أحمد سعيد الطويل : البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرامانلي (1795-1832)، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ص 135.

(2) Pierre Grandchamp: **Document Relatifs**, Op.cit, p 82.

(3) منير عبيد: **البحرية التجارية التونسية في ضوء مراسلات وكلاء وقناصل الباى** في م. ت. ع. د. ع، سبتمبر 2000 العدد 21، ص 145.

(4) أحمد سعيد الطويل: المرجع السابق، ص 137.

(5) حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص 91.

(6) Pierre Grandchamp: **Documents Relatifs**, Op.cit, p 83,84.

(7) منير عبيد: المرجع السابق، ص 146.

(8) أحمد سعيد الطويل: المرجع السابق، ص 134.

(9) Pierre. Grandchamp: **Documents Relatifs**, Op.cit, p 84.

- فلوكة Felouque:

من السفن الصغيرة لها أشرعة تدفع بالمجداف، وبعض منها تحمل صاريان مائلان إلى الأمام تحمل أشرعة كبيرة.

- غليوط Galiote:

شكلها غير مختلف عن السفن الشراعية الحربية، ولكنها أصغر بقليل تحمل مابين سبعة عشر إلى ثلاثة وعشرون مقعدا، وهي من السفن السريعة جدا، تتولى حراسة ومراقبة الميناء⁽¹⁾.

- غوايت Goélette:

سفينة حربية وتجارية كبيرة مرتفعة قليلا عن الماء، لها صاريان واحد مائل نحو المؤخرة والثاني مائل باتجاه المقدمة. تحمل ثمانية مدافع.

- كيتش Ketch:

سفينة ذات صاريان؛ تستعمل لحمل الذخائر الحربية، حيث تتجاوز حمولتها المائة برميل ويستعمل الكيتش عادة في حمل الذخيرة الحربية.

- بنك Pinque:

سفينة عريضة تحمل ثلاثة صواري، ولها مؤخرة ذات جناحين ومنقار طويل من الأمام، وتحمل مابين مائتي إلى ثلاثة مائة برميل.

- بولاكر Polacre:

تشبه سفينة البنك من حيث الشكل، وتشبه سفينة الشبك من حيث الأشرعة⁽²⁾. إضافة إلى هذه الأنواع استعملت البحرية التونسية أنواعا أخرى من السفن سواء في تجارتها الخارجية أو لممارسة نشاط القرصنة، منها بارك Barque، سيرونار Speronar⁽³⁾.

2- احتكار رجال البلاط لنشاط البحرية:

لقد لعب قادة المناطق في تونس والأعيان دورا كبيرا في التأثير على نشاط البحرية، إلى جانب أصحاب المراكز العليا داخل بلاط باردو، ونذكر منهم:

(1) Pierre. Grandchamp: Documents Relatifs, Op.cit, p 84.

(2) Ibid, p 85.

(3) للإطلاع أكثر على أنواع السفن المستعملة في هذه الفترة أنظر أيضا:

Pierre. Grandchamp: Document Concernant la Course Dans la Régence de Tunis, de 1764 à 1769 et de 1783 à 1843, in C. T., Tunis S. D, N^o 19- 20, pp 269 – 325.

أ- عائلة بن عياد:

تضم هذه العائلة العديد من كبار رجال الدولة منذ عصر "علي باشا"، وتدعم نفوذهم في عهد ابنه "حمودة باشا"⁽¹⁾، حيث احتكروا مناصب هامة كقيادة جزيرة جربة؛ والإشراف على جمع الضرائب من الأهالي⁽²⁾. ومن أبرزهم:

1- رجب بن عياد:

يعتبر من كبار التجار واحد أكبر ممولي نشاط القرصنة زمن "حمودة باشا"، وله علاقة كبيرة ب"يوسف صاحب الطابع" من خلال الصفقات التجارية التي كانت تتم بينهما، أو تمويل سفن القرصنة؛ حيث شارك في إعداد ستة عمليات ما بين (1797-1798م).

2- احميدة بن عياد:

هو القائد الوحيد الذي خصه الباي بمحلة خاصة يخرج بها لجباية الضرائب، وقد لعب دورا كبيرا في التجارة الخارجية لتونس؛ وتمويل نشاط القرصنة. وبرز دوره في صياغة الخيارات السياسية بحكم انتمائه لأهل المشورة⁽³⁾.

ب- عائلة آل الجلولي:

لعبت دورا كبيرا في التجارة الخارجية لتونس بصفاقس، التي تعتبر مركزا ماليا هاما في هذه الفترة، حيث كانت تدعم السلطة المركزي أثناء حدوث الأزمات. ومن أبرز رجالها:

1- بكار الجلولي:

قائد صفاقس اعتمد على النشاط التجاري والقرصنة، وتولى أبناءه عدة مناصب داخل السلطة. كما انه جلب العديد من المماليك لخدمة الباي، ونخص بالذكر "يوسف صاحب الطابع"

2- محمد الجلولي:

هو أول واحد من عائلة الجلولي يستقر بمدينة تونس، وانضم إلى خاصة الباي، ليبرز دوره في ظل الخيارات السياسية والاقتصادية التي فرضتها الظرفية المتوسطة. خاصة في جلبه للسفن والمدافع من جزيرة مالطة. كما ساهم في تمويل نشاط القرصنة، وتجارة الزيت خاصة نحو أوروبا⁽⁴⁾.

(1) محمد فوزي المستغاني: المرجع السابق، ص 437.

(2) محمد المريني: اباضية جربة خلال العصر الحديث، دار الجنوب للنشر، تونس 2005، ص 107.

(3) محمد فوزي المستغاني: المرجع السابق، ص 438، 439.

(4) A. Zouari: Les Relation Commerciales Enter Sfacs et le vant Aux XVIII^{ème} et XI^{Xème} Siècle, institut national d'archéologie et d'ART, 1990, p 71.

ج- يونس بن يونس الجربى:

لعب دورا كبيرا في المجال التجاري، وارتبط اسمه بتجارة "حمودة باشا" و "يوسف صاحب الطابع". وهو أكبر تجار تونس في هذه الفترة، لأنه يتاجر في كل أنواع البضائع تصديرا وتوريدا⁽¹⁾

د- سليمان بن الحاج:

تميز بنزعة التجارية، وكان يقدم النصائح للباي بهذا الشأن بقوله: «...لو لبست ما يقيك ولا ينافي مروءتك، وجعلت فضل زينتك هذه في تجارة أو فلاحة تكسبك ثروة تتحمل بها بين أقرانك، والحلية للنساء لا للرجال وحلة الرجل ماله و أعماله...»⁽²⁾.

ثالثا- تأثير القرصنة البحرية في العلاقات الخارجية:

1- مفهوم القرصنة:

أصل الكلمة ايطالي "Corsa"، وتعني التسابق البحري والاعتداء على السفن وسواحل الدول الأجنبية، ومنها اشتقت كلمة قرصان ، وقد استعمل الفرنسيون قبل القرن السادس عشر كلمة "Attaque"، أي الهجوم، وكلمة "Ecumeur" بمعنى القرصان أو المهاجم، ومع بداية القرن السادس عشر بدأ تعميم كلمة "Corsaire" في أوروبا⁽³⁾.

أما المصادر الإسلامية التي تناولت نشاط القرصنة الإسلامية، لم تعتبر هذا النشاط عملا مشينا، فاستعملوا كلمة "غزاة البحر"، وهو اصطلاح لا يعني دائما الجانب السلبي من النشاط البحري⁽⁴⁾، في حين يرى البعض الآخر أن عملية القرصنة هي عملية نهب بعيدا عن سلطة الدولة، لكن في الأصل نشاط القرصنة مرتبط بالدولة، وغير ذلك فهو لصوية⁽⁵⁾.

ورغم هذا التباين فإن الأوربيين اعتبروا نشاط القرصنة حرب مطاردة بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط، تمارسه دولة ضد دولة أخرى في شكل حرب غير معلقة تكون بديلا للمعارك

(1) محمد فوزي المستغامي: المرجع السابق، ص 442.

(2) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 78.

(3) Le Petit La Rousse, France Matière Corsaire, Grand Format Edition 2005, p 297.

(4) عبد العزيز بن عبد الله : سلا أولى حاضرتي أبي الرقراق ، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، ط 2، سلا 1989، ص 33.

(5) علي محمود فهمي: التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر ميلادي ، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار الوحدة بيروت 1980، ص 127.

المباشرة، تتعرض من خلالها لتجارة أعدائها؛ أو تهاجم سواحلهم لأهداف استطلاعية ومن أجل الحصول على الغنائم⁽¹⁾. أما بالنسبة للإيالات المغاربية فاعتبرت القرصنة وجه من وجوه الحرب ضد المسيحيين وأنها جهاد في سبيل الله، من أجل استرجاع شبه الجزيرة الأيبيرية . ومع بداية القرن السابع عشر حدث تفوق واضح للبحرية الأوربية جعل القرصنة المغاربية عموما يتفادون السفن الحربية التابعة لأوروبا، ويكتفون في غالب الأحيان بالهجوم على السفن التجارية للضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط⁽²⁾.

وفي نفس السياق يشير "بيرغرانشان" (Pierre Grandchamp) أن القرصنة هي شكل من أشكال الحرب العسكرية الممارسة من طرف البلدان المغاربية ضد الدول المسيحية وهذا يعطيها بعدا دينيا وقانونيا تمارس فيه ⁽³⁾. وقد تركز نشاط القرصنة أو الجهاد البحري أساسا بسواحل الشمال الإفريقي، وتحديدًا في البلاد المغاربية، حيث كانت تنطلق عملياتها باتجاه الساحل الجنوبي للدول الأوربية، أو مهاجمة سفنها وخاصة السفن الإسبانية⁽⁴⁾

2- تجهيز سفن القرصنة:

عرف نهاية القرن الثامن عشر انتعاشا كبيرا لنشاط القرصنة في تونس؛ والتي تفوقت على الإيالات المجاورة لها. ذلك أن هذا النشاط لم يكن حكرا على السلطة ولا على الأتراك بتونس فقد كان الباي و "صاحب الطابع" وبعض رجال الأعمال أمثال "آل الجلولي"، و "آل بن عياد"⁽⁵⁾ و"الحاج يونس" وكاهية بنزرت⁽⁶⁾ هم الذين يجهزون السفن للغزو في البحر، مما ساهم في ارتفاع عدد السفن المتجهة للغزو⁽⁷⁾.

(1) عبد الناصر جبار : بنو حفص والقوى الصليبية في غرب المتوسط - في القرنين الثامن والتاسع للهجرة 14-

15 للميلاد، رسالة ماجستير في الآداب، قسم التاريخ، جامعة القاهرة، 1990م، ص 101.

(2) Pierre Grandchamp: *Autour De Consulat* , Op.Cit, p 239.

(3) Ibid, p 101.

(4) نيقولايفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية العثمانية (1516 - 1574)، تعريب يوسف عطا الله مراجعة مسعود

ظاهر، دار الفرابي، بيروت 1988، ص 255.

(5) محمد فوزي المستغامي: المرجع السابق، ص 354.

(6) تولى مصطفى خوجة منصب كاهية بنزرت منذ بداية عصر حمودة باشا إلى غاية 1795 أين عزله الباي وخلفه أحمد خوجة.

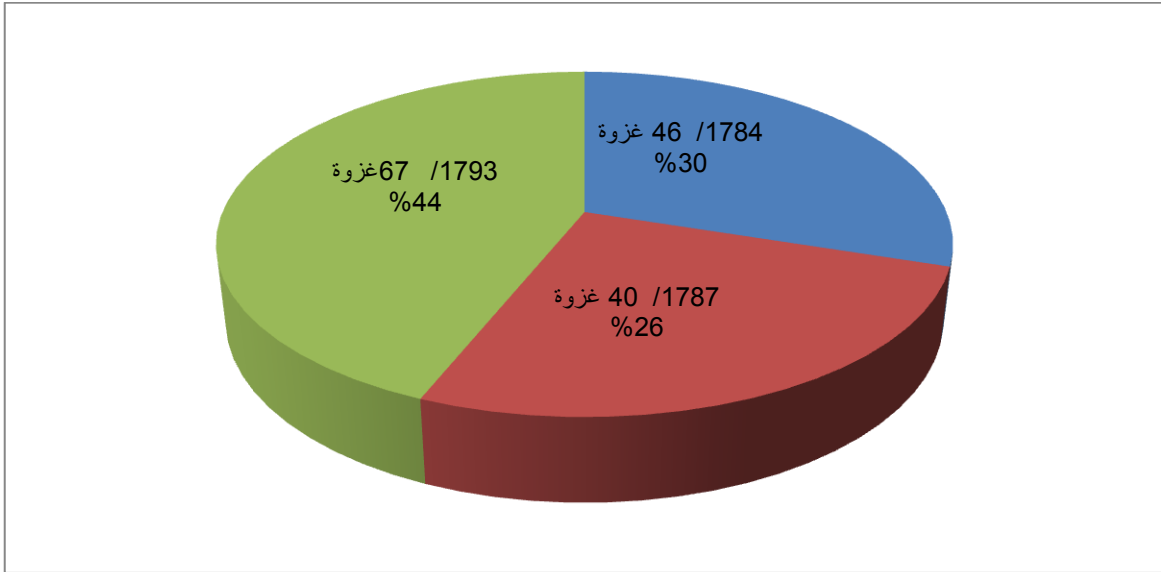
أنظر: محمد فوزي المستغامي: المرجع السابق، ص 355.

(7) لوسات فلنزي: المرجع السابق، ص 82.

3- ذروة نشاط القرصنة ما بين (1208-1220هـ / 1793-1805):

إن ارتفاع عدد الأسرى في تونس منذ أن تولى "حمودة باشا" وصاية العرش لدليل قاطع على انتعاش نشاط القرصنة. فقد كان حماس الباي وحاجته للغنائم تدفعانه في كثير من الأحيان لتشجيع هذا النشاط ضد الدويلات الإيطالية على وجه التحديد، وخاصة بعد خسارته لفرنسا التي تمثل الشريك التجاري الأول لتونس، وهذا بسبب الحصار الإنجليزي المفروض عليها. كل هذا فتح المجال للباي ليكون أكثر جرأة في سياسته الخارجية، مما ضمن له المال والهيبة والشهرة في الحوض الغربي للمتوسط⁽¹⁾. حيث تشير الإحصائيات أن معدل عدد الغزوات في الفترة الممتدة ما بين (1784-1788م)، كانت تسعة وعشرون غزوة سنويا . ووصلت في الفترة الممتدة ما بين (1793-1797م)؛ إلى اثنين وستين غزوة سنويا، إلى أن وصلت ما بين (1798-1805م)؛ إلى خمسة وسبعين غزوة سنويا، منها سبعة وتسعون فقط في سنة 1798م⁽²⁾. والدائرة النسبية توضح عدد الغزوات لسنوات (1784م-1787م-1793م)⁽³⁾.

4- دائرة نسبية تبين: نسبة عمليات القرصنة لسنوات (1784م-1787م-1793م).



(1) Maggil Thomas: Op.cit, p 77.

(2) Danial Panzac: **La Régence de Tunis et la mer à l'époque d'Hammouda Pacha Bey (1782-1814)**, in C.T, Tunis 1995, N° 165, pp 65- 84.

(3) Khalifa Chater: **Dépendance et Mutation La Régence du Tunis (1815- 1857)**, Publication de université de Tunis, Tunis 1984, p 30.

5- وجهة القراصنة التونسيين:

يتوجه القراصنة التونسيون نحو الجزر الإيطالية في الجنوب، لأنها الأماكن المفضلة وهي مناطق شبه معزولة، كجزيرة صقلية وجزيرة سردينيا⁽¹⁾. فخلال الفترة الممتدة من (1201-1229هـ/ 1787م - 1814م)، خصصت تونس ما بين عشرين إلى ثلاثين غليون (Galiote) للقراصنة ما بين شهر ماي وشهر سبتمبر، وسفن كبيرة مسلحة تستطيع الإبحار في كل فصل . تتجه شمالا إلى جزيرة صقلية أو جزيرة سردينيا، وإما شرقا على طول سواحل صقلية، ففي 2 سبتمبر 1798م قامت المراكب التونسية بغزو قرية صغيرة تابعة لجزيرة سانت بيير (saint- pierre) جنوب شرق جزيرة سردينيا وأسروا منها حوالي تسعمائة شخص⁽²⁾.

6- توزيع الغنائم:

قبل أي عملية غزو يتم إنشاء لجنة تسند إليها مسؤولية توزيع الغنائم حسب نسبة مساهمة كل واحد منهم في رأس المال لإعداد رحلة الخروج . فنصيب ممول العملية يكون نصف الغنيمة، ويوزع الباقي على المساهمين الآخرين سواء بمالهم، أو بمجهودهم العضلي⁽³⁾. أما بالنسبة للأسرى فإن الباقي لديه الحق في عشر الغنيمة، إذ لم يساهم في نفقات تجهيز السفينة، ويمكنه شراء الأسرى بثمن بخس⁽⁴⁾. وقد حدد في الغالب بمقدار 300 بياستر، أي ما يعادل حوالي 420 فرنك فرنسي.

7- وضعية الأسرى في تونس وطرق افتدائهم:

أسفر الصراع القائم بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط طيلة ثلاثة قرون تقريبا عن خسائر بشرية ومادية كبيرة، يضاف إلى ذلك عدد كبير من الأسرى، الذين أخذ عددهم يرتفع بتونس بسبب انتعاش نشاط القراصنة. وهذا يجعلنا نطرح تساؤلا جوهريا: ما مصير هؤلاء الأسرى الأوربيين؟ إن هذا الشق هو خاص بطبيعة الوضع الذي آل إليه بعض البحارة الذين اقتلعوا من سفنهم من كلا الجانبين، و الذين تعرضوا إلى غرات القراصنة ، وخطفوا ورحلوا عن ذويهم فأصبحوا⁽⁵⁾

(1) Danial Panzac: **Les Corsaires Barbaresques a La Fin D' une Epopée 1800- 1820**, paris 1999, pp 4, 5.

(2) Danial Panzac: **La Tunis et la Mer a L'époque**, Op.cit, p 6.

(3) لوسات فلنزي: المرجع السابق، ص 84.

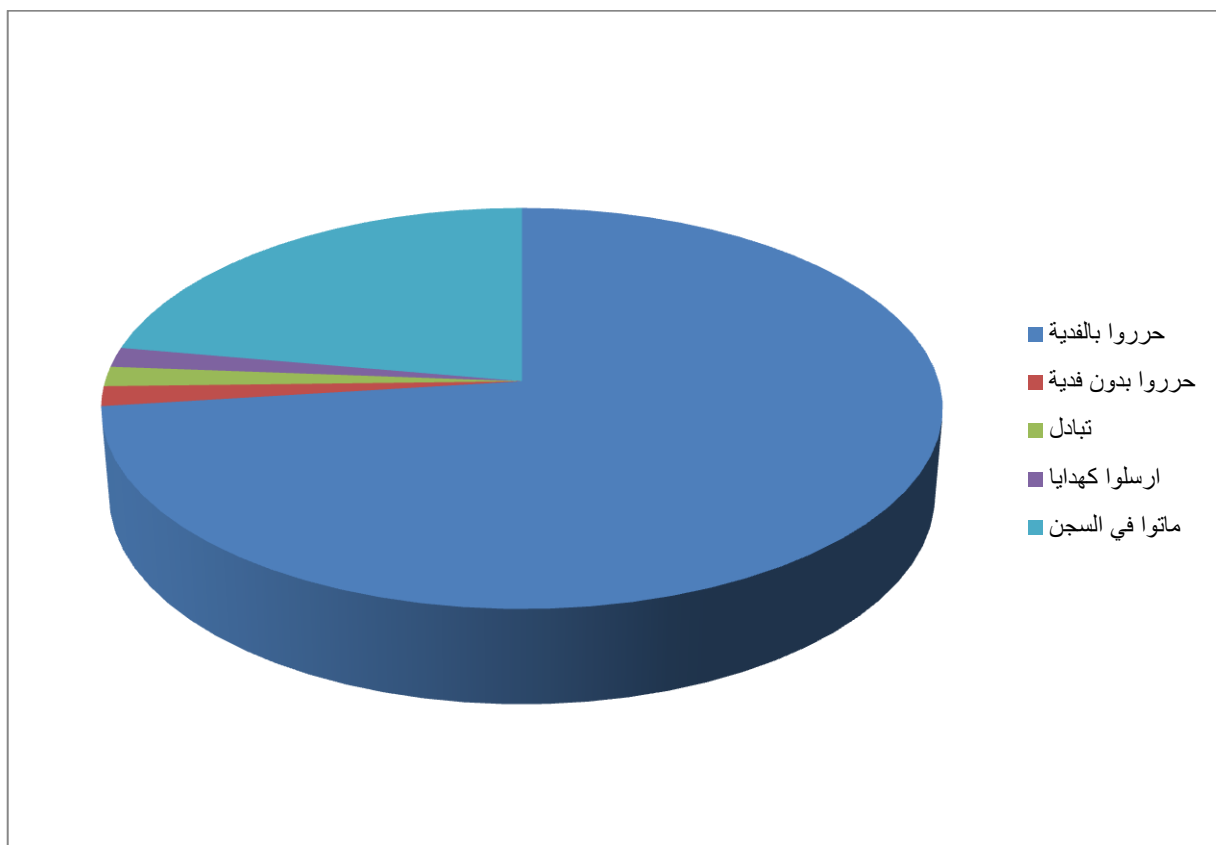
(4) Danial Panzac: : **La Tunis et la Mer a L'époque**, Op.cit, p 7.

(5) Danial Panzac: **Les Corsaires Barbaresques**, Op.cit, pp 8- 10.

عرضة للاستعباد، وهذه الإحصائيات، والدائرة النسبية توضح مصير العبيد الذين أسروا خلال السنوات الأولى من حكم "حمودة باشا".

أ- إحصائيات حول مصير بعض الأسرى في بداية عصر حمودة باشا⁽¹⁾:

عدد الأسرى	مصير الأسرى
92	حرروا بالفدية
02	حرروا بدون فدية
02	تبادل
02	أرسلوا كهدايا
28	ماتوا في السجن



إن الأشخاص الذين وقعوا في الأسر من طرف قراصنة الإيالات المغاربية عامة، وقراصنة تونس خاصة يتم عرضهم للافتداء بمجرد أسرهم في جزر الحوض الغربي للمتوسط . حيث كان القراصنة يبعثون رسلهم من أجل التفاوض حول قيمة الفدية، و هذه العملية مربحة أكثر؛ لأن ثمن الاف تداء يكون أكبر من ثمن بيع الأسير. لأن عملية الافتداء تعتمد على المركز الاجتماعي للأسير ومدى ثرائه. وان لم يستطع ذوي الأسير دفع الفدية يتم نقله إلى تونس⁽¹⁾.

بوصول الأسرى إلى تونس يحصل الباى على نسبته، وقد يشتري عددا منهم، والباقي يباع لبعض الوسطاء الذين يقومون بتشغيلهم كخدم، أو عمال داخل المدن؛ أو السماح لهم بالعمل لحسابهم الخاص لكسب ما يلزم من المال لافتدائهم؛ مثل أسرى جزيرة طبرقة الذين بقوا يزاولون نشاطهم فيها؛ وليس لهم من لقب العبيد إلا الاسم⁽²⁾.

والجدير بالذكر أن الأسرى لهم الحق باعتراف الإسلام، وهم من يطلق عليهم اسم "الأعلاج"؛ ومع مرور الوقت يرتقون في سلم المناصب الإدارية⁽³⁾، حتى أصبح بعضهم من خاصة الباى؛ مثل "صاحب الطابع".

وقد لعب الأسرى والعلوج دورا رئيسيا في تنشيط ورشات شمال أفريقيا، حيث كان حكامها حريصين على استقطاب كفاءاتهم في بناء السفن، حيث أبدى هؤلاء خدمات جليلة مكنت الأساطيل الشمال إفريقية من التزود بمهارات تقنية مطلوبة من عمال وصناع متخصصين، سواء في مجال السباكة والنجارة والتقطير، أو في هندسة السفن وبنائها وترميمها وصيانتها، ولم تقف إنجازاتهم عند هذا الحد، بل تمكنوا من صنع بعض السفن مشابهاة في مواصفاتها وأشكالها مع النماذج الأوربية⁽⁴⁾.

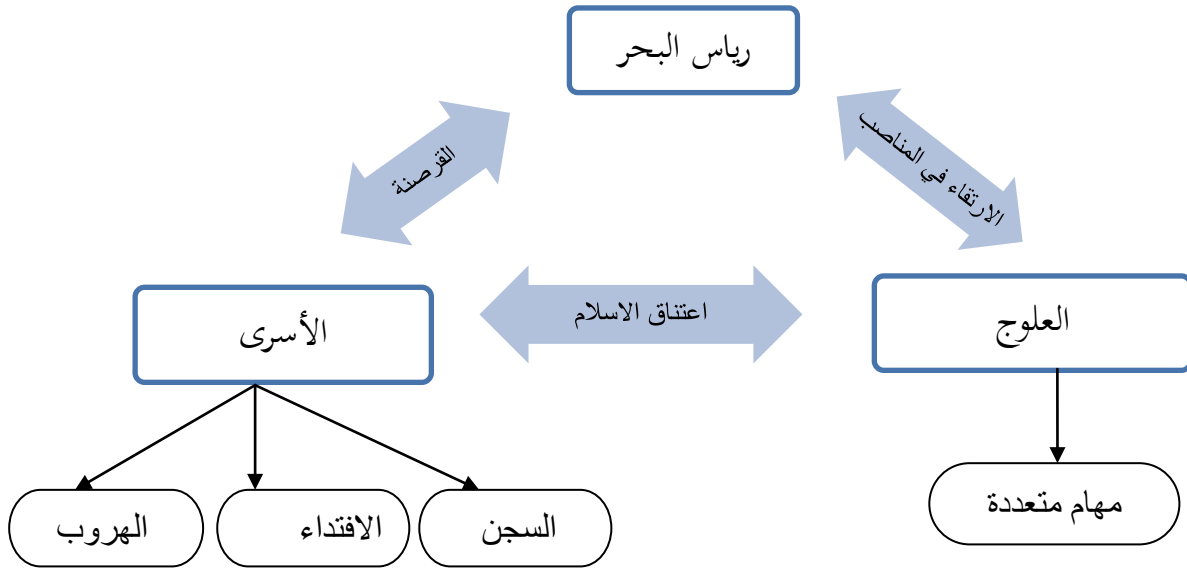
(1) ثريا فاروقي: **الدولة العثمانية والعالم المحيط بها**، ترجمة حاتم عبد الرحمن الطحاوي، ط1، دار المدار الإسلامي، لبنان 2008، ص 220.

(2) لوسات فلنزي: المرجع السابق، ص85.

(3) Danial Panzac: : **la Tunis et la mer**, Op.cit, p 8.

(4) كوستانزيو برينا: **طرابلس من 1510 إلى 1850**، ترجمة خليفة الكيسي، دار الفرجاني، طرابلس 1969، ص 107.

ب- مخطط يبين مصير الأسرى⁽¹⁾:



ج- افتداء الأسرى الأوربيين بتونس:

كان الهدف من احتجاز الأسرى بتونس هو الحصول على الفدية بالدرجة الأولى، التي تمثل مصدرا هاما للدخل، وليس الغرض منه الحصول على اليد العاملة التي تعمل في المنازل أو الحقول أو ورشات السلاح، وتصبح عملية الافتداء غاية في الأهمية إذا تعلق الأمر بالأسرى الأثرياء⁽²⁾. وعليه يمكن القول أن الأسرى ينقسمون إلى مجموعتين هما:

1- افتداء الأسرى الأثرياء:

يتم افتداء الأشخاص الأثرياء الذين وقعوا في الأسر، بأسرع وقت يتدخل فيها بعض الخواص من تونس، وبعض الأفراد من ذوي الأسير، وهذه الفدية تكون باهضة، ومرجحة بالنسبة لملاك هؤلاء الأسرى⁽³⁾.

ففي 26 جويلية 1797م احتجز قراصنة تونس سفينة تجارية يونانية متجهة من باليرمو إلى نابولي على متنها شخصية هامة هو السيد "جيوفان مونكادا" (Giovan Moncada) أمير باليرمو،

(1) محمد صالح: المغرب وإسبانيا خلال القرن 17، في ك. ت، مج 44، تونس 1991، العدد 158، ص 76.

(2) Danial Panzac: **Les Corsaires Barbaresques**, Op.cit, p 9.

(3) Danial Panzac: **Les Esclaves et Leurs Rançons Chez Les Barbaresques, Fin XVIII-Début XIX^{ème} siècle**, CNRS - IREMAM- Aix-en-Provence, S. D, p 13.

الذي أصبح محل مساومات بين الباي، ومملكة نابل من أجل تحريره. وتم الاتفاق في الأخير على مبلغ ستون ألف بياستر تدفعها مملكة نابل إلى تونس، على أن يتم دفع جزء من المبلغ والباقي بالتقسيم، وفي 17 جويلية 1797م غادر السيد "جيو فان مونكادا" (Giovan Moncada) تونس، ولم تلتزم مملكة نابل بدفع الباقي من الفدية مما أدى إلى توتر العلاقة بين البلدين حول ما تبقى من أسرى نابل بتونس إلى غاية تدخل فرنسا في هذا الشأن⁽¹⁾. كما سنتعرض إليه لاحقا.

2- افتداء الأسرى الفقراء:

يتكون هؤلاء الأسرى الفقراء من البحارة الصيادين والعمال داخل السفن، ويتم افتدائهم بعد سنوات طويلة قضوها في السجن، أو عمال داخل المزارع والمنازل، بطريقة جماعية مقابل مبلغ زهيد يتراوح ما بين ستة مائة إلى ألف وسبع مائة فرنك لكل شخص⁽²⁾. وهذا ما حدث لأسرى جزيرة سانت بيار فقد قام "حمودة باشا" بتجميعهم ورفض بيعهم في تونس، أو حتى إلى الجزائر حتى تسهل له عملية افتدائهم. وانطلقت المحادثات بين الطرفين في بداية سنة 1214هـ / 1799م، حيث طالب الباي ب 2475 بياستر عن كل فرد بالإضافة إلى نسبة 10% من هذا المبلغ تمنح "لصاحب الطابع" وبعض الوزراء، ولكن في الأخير تم الاتفاق على دفع 1000 بياستر عن كل فرد و 10% لوزراء الباي⁽³⁾.

إن التنافس الذي ظهر بين فرنسا وإنجلترا في الحوض الغربي للمتوسط، وخاصة بعد توسعات نابليون على الولايات الإيطالية، وضمه لمملكة سردينيا ونابل. وسيطرت إنجلترا على جزيرتي مالطة وصقلية. جعلهما يقومان بتحرير أسرى هذه الممالك المتواجدين بتونس⁽⁴⁾.

3 - دور فرنسا في تحرير الأسرى:

لقد عمل القنصل الفرنسي "دوفواز" (Devoize) على تحرير أسرى مملكة سردينيا، عن طريق التبادل. خمسة من أسرى تونس مقابل أسيرين من المسيحيين، حسب العرف المتداول في تونس. وغالبا ما كان عدد الأسرى المسيحيين أكثر؛ فيدفع عن كل واحد ألف ومائة بياستر مهما كان السن أو الجنس باستثناء الرتبة أو المهارة، التي ترفع من قيمة الأسير⁽⁵⁾.

Danial Panzac: **Les Corsaires Barbaresques**, Op.cit, p 12. (1)

Danial Panzac: **Les esclaves et Leurs Rançons**, Op.cit, p 13. (2)

Danial Panzac: **Les Corsaires Barbaresques**, Op.cit, p 12. (3)

Thomas Maggil: Op.cit, p78. (4)

Ibid: p 79. (5)

رغم هذا لم ينجح القنصل "دوفواز" (Devoize)؛ في تحرير كل الأسرى إلا في سنة 1803م، عندما حرر ستمائة وثلاثين من الأرقاء السردنيين مقابل خمسة وتسعين ألف قرش⁽¹⁾.

أما بالنسبة للملكة نابل فان ملكها الفرنسي "جواشيم" (Joachim Murat)، لا يهتم لأمر أسرى المملكة، مما أدى إلى ارتفاع عدد أسرى مملكة نابل بتونس حيث بلغ عددهم 400 أسير لكن القنصل الفرنسي بذل مجهودا كبيرا لتحرير غالبيتهم بموجب اتفاق مع الباي سنة 1806م⁽²⁾.

4- دور انجلترا في تحرير الأسرى:

بعد دخول بعض الدويلات الإيطالية تحت حماية إنجلترا، في بداية القرن التاسع عشر بدأ القنصل الإنجليزي "ماجرا" (P. Magra) بالتفاوض مع "حمودة باشا" بشأن أسراهم. ففي سنة 1218هـ/ 1802م تحصل الباي على حوالي 8200 فرنك لتحرير أربعة أشخاص أثرياء من صقلية⁽³⁾. وفي سنة 1812م دخلت إنجلترا في مفاوضات مع "حمودة باشا" من أجل عقد اتفاقية سلام بين تونس ومملكة صقلية، وتم طرح قضية تحرير الأسرى الصقليين المتبقين في تونس، فاشتراط الباي مائة وخمسون ريالاً بندقياً عن كل أسير، وبعد مناقشات طويلة تم الاتفاق على إطلاق سراح أربع وستين أسير صقلي احتجزوا، وفي حوزتهم جوازات سفر إنجليزية، بدون دفع الفدية، وتحرير ثلاثمائة وأربعة آخرين مقابل دفع ثلاثمائة وخمسة عشر قرش إسباني⁽⁴⁾.

ومن خلال هذا يتبين أن احتمال إطلاق سراح الأسرى في شمال إفريقيا بشكل عام أعلى من احتمال عودة الأسرى المسلمين من الأراضي المسيحية⁽⁵⁾. ونتيجة لهذه الإجراءات الفرنسية والإنجليزية لتحرير الأسرى، التي ذكرنا أمثلة منها فقط. بدأ يتقلص عدد الأسرى في تونس، في ظل تراجع نشاط القرصنة، واهتمام الباي بالتجارة الخارجية حيث شهدت سنة 1228هـ/ 1813م؛ اثني عشر عملية قرصنة مقابل عملية واحد سنة 1229هـ/ 1814م⁽⁶⁾.

(1) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 274.

(2) Maggil Thomas: Op.cit, pp 82- 85.

(3) Danial Panzac: **Les Corsaires Barbaresques**, Op.cit, p 11.

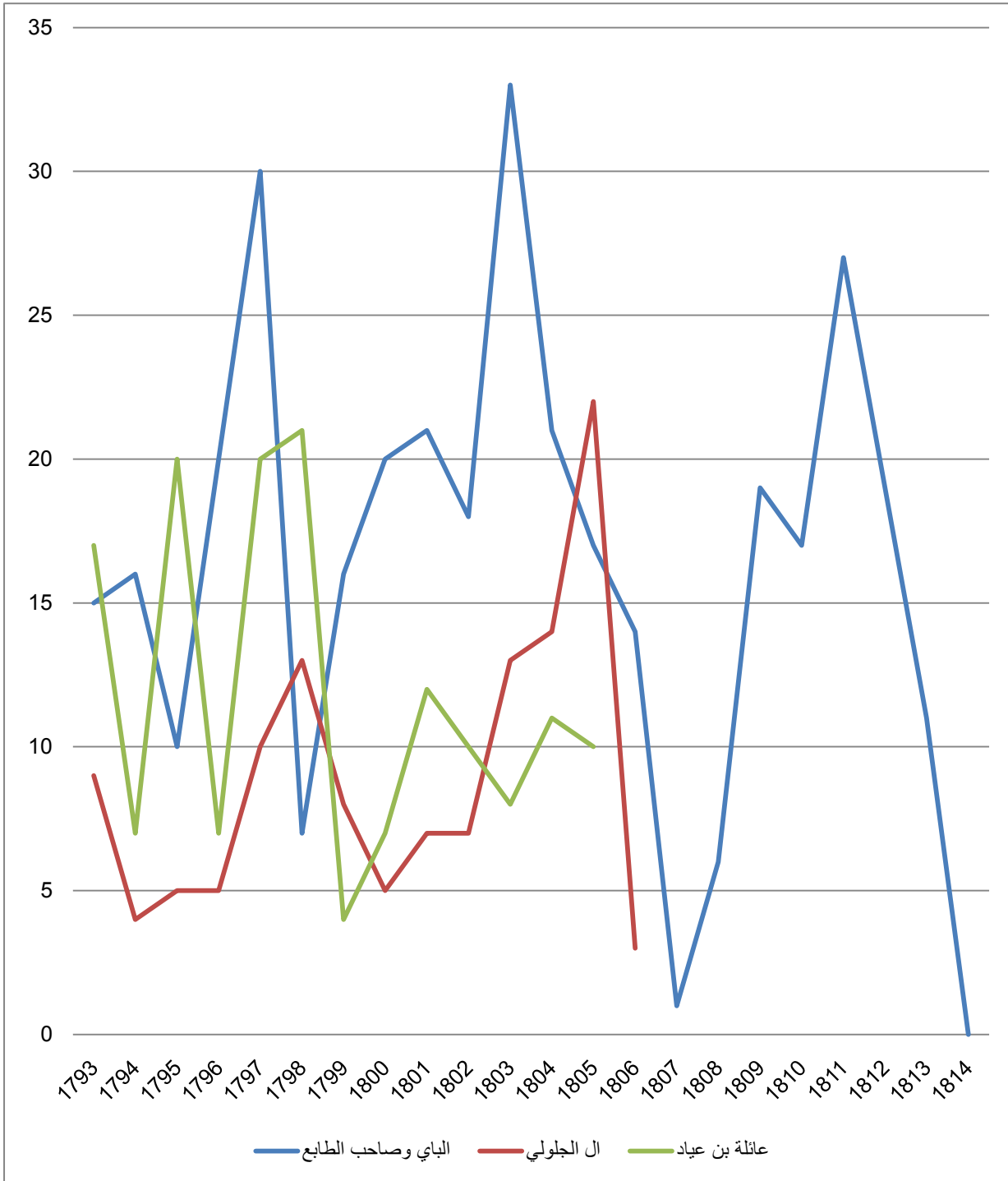
(4) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 296.

(5) للاطلاع أكثر على وضعية الأسرى المسلمين على الأراضي المسيحية أنظر: إبراهيم سعيود: **علاقات الجزائر بالدويلات الإيطالية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر معهد التاريخ، 2000/1999م، ص ص 89 - 115. (ع.م.).

(6) Khalifa Chater: Op.cit, p 37.

5- رسم بياني يوضح:

عدد السفن التي مولتها الطبقة الحاكمة لنشاط القرصنة (1793 - 1814)م⁽¹⁾.



من خلال الرسم البياني نلاحظ تراجع دور عائلة بن عياد، و آل الجلولي في تمويل نشاط القرصنة بين سنتي (1793-1794) م؛ وهذا راجع لاحتكار الباي لهذا النشاط كما هو واضح في المنحنى البياني، وتفسير ذلك يعود في اعتقادي إلى سببين هما:

1- تفرغ الباي لنشاط القرصنة بعد انتهائه من حرب البندقية بتوقيع معاهدة السلام، والتي استفاد منها بمبلغ كبير؛ سمح له بتجهيز السفن ودفعها للغزو.

2- توتر العلاقة مع فرنسا في هذه الفترة، يعني غياب العائدات السنوية التي تمنحها فرنسا للباي لذا حاول تعويض هذه الأموال بالتوجه لنشاط القرصنة.

أما في الفترة الممتدة ما بين (1794-1795م)؛ نلاحظ حدوث العكس، بتراجع تمويل

السلطة لنشاط القرصنة في حين ارتفع عدد السفن الممولة من طرف عائلي بن عياد وآل الجلولي بسبب عودة السلام بين تونس وفرنسا.

كما نلاحظ ارتفاع عدد السفن الممولة من طرف سلطة الباي في ظل ارتفاع طفيف للسفن

المولة من عائلة آل الجلولي، وعائلة بن عياد في الفترة الممتدة من (1802 - 1805)م والتي تمثل ذروة نشاط القرصنة بتونس.

من المنحنى نلاحظ أن تمويل العائلتين لنشاط القرصنة توقف، مقابل ارتفاع عدد السفن الممولة

من طرف السلطة ابتداء من سنة 1806م، وهذا يدل على احتكار السلطة للنشاط، مستغلة

التنافس الفرنسي الانجليزي في الحوض الغربي للمتوسط؛ إلى غاية سنة 1811م، أين اضطرت

الأوضاع داخل الإيالة بسبب ثورة الجند الأتراك . وهكذا بدأ انهيار نشاط القرصنة التونسية؛ في الفترة

التي بدأت أوروبا تعرف السلم؛ الذي تحقق سنة 1814م وهي السنة التي توفي فيها "حمودة باشا".

المبحث الثالث:

تأثير نشاط التجارة في العلاقات الخارجية.

أشار "دنيال بنزاك" (Daniel Panzac)، إلى أن سياسة الأنظمة المغاربية عرفت منعرجا هام في نهاية القرن الثامن عشر، حيث مالت بشكل واضح إلى التجارة في الحوض الغربي للمتوسط، ومن أبرز متزعميها "حمودة باشا"؛ حيث استطاع التجار بدعم من السلطة بالاستفادة من إعادة توزيع الأدوار في تونس⁽¹⁾. ويرجع هذا التغيير إلى تقلص نشاط القرصنة، إضافة إلى معاهدات السلم التي أبرمتها تونس مع معظم الدول الأوروبية، والتي وسعت نطاق المبادلات التجارية⁽²⁾. ونلتمس ذلك من خلال:

- سياسة حمودة باشا التجارية.
- طبيعة الصادرات والواردات في تونس.
- احتكار رجال البلاط للتجارة الخارجية.
- ضعف الهيمنة التجارية الأوروبية بتونس.
- انتعاش التجارة الخارجية.
- الفضاء الجغرافي لتجارة تونس الخارجية.
- أسباب انعدام الأسطول التجاري بتونس.
- العملة المستعملة في تونس أثناء عصر حمودة باشا:

1- سياسة حمودة باشا التجارية:

قام الباي بتنشيط التجارة في الداخل والخارج، وذلك بمنع التجار الأجانب من شراء المحاصيل الزراعية من الفلاحين مباشرة لتصديرها خارج الإيالة، وذلك بوضع مفوضين تونسيين يلعبون دور الوساطة بين التجار الأوروبيين والفلاحين. هذا فتح المجال للطبقة الحاكمة؛ وأقرباء الباي للدخول في عالم التجارة كالوزير "صاحب الطابع"، الذي احكم سيطرته على صادرات الإيالة⁽³⁾. ونجح في ربط علاقات وطيدة مع بعض التجار الفرنسيين⁽⁴⁾.

(1) Daniel Banzak: *Les Corsaires Barbaresques*, Op.cit, p 13.

(2) لوسات فلنزي: المرجع السابق، ص 84.

(3) Khalifa Chater: Op.cit, p 32.

(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ص 26.

ومن مظاهر سياسته تجنبه الدخول في النزاعات القائمة بين الدول الأوربية بإعلانه الحياد التام، كما قام بإعطاء ترخيص لتصدير المنتجات التونسية إلى جميع الدول الأوربية، حتى لو كانت معادية لتونس⁽¹⁾. وجعل الريال الاسباني البياستر (Piastre)، والفرنك الفرنسي العملتين المعتمدتين في التعامل التجاري مع غالبية الدول ليتجنب الخلافات في تقدير العملة. كما حافظ على أمن التجار الأجانب ببلاده؛ ومثال ذلك حمايته للتجار الفرنسيين وممتلكاتهم أثناء القطيعة مع فرنسا بسبب حملة نابليون على مصر⁽²⁾.

2- طبيعة الصادرات والواردات في تونس:

إن التجارة في موانئ تونس صعبة بسبب الرسوم المفروضة على السلع المستوردة من أوروبا والتي يستفيد منها الباي وأعضاء الديوان. كما يلعب الوسطاء التجاريون التونسيون دورا كبيرا في رفع أسعار البضائع التونسية الموجهة للتصدير بسبب احتكارهم لها، فيضطر التاجر الأوربي للشراء بالسعر الذي يحدده هؤلاء الوسطاء التجاريين، ولعل أبرز الصادرات التونسية تتمثل في:

أ- الصادرات:

- **القمح:** يمثل المادة الأساسية في صادرات تونس، ومصدره منطقة باجه وسفوح جبال الرأس الأسود. ثمه غير مستقر حيث تتحكم فيه الوفرة أو الندرة للمحصول، أو الوضع الاقتصادي والاجتماعي للبلاد، إن كانت في حالة الحرب أو السلم. إضافة إلى نوعية القمح وتكلفة النقل التي ترتفع عندما يكون إنتاجه داخل البلاد. وفي بعض الأوقات يرتفع سعر القمح بسبب ارتفاع عدد البواخر الأوربية التي تأتي لشحنه، والتي تأتي أن ترجع فارغة إلى بلدها.

- **الزيت:** تعتبر منطقة سوسة أهم منتج له، يشحن الزيت في أواني فخارية لدول المشرق، وفي براميل للدول الأوربية.

- **الجلود:** يتحكم في تصديرها اليهود بتونس وبيعه للتجار الأوربيين باستثناء الجلود المدبوغة التي تصدر إلى ميناء ليفورنو، وأحيانا يتوقف إنتاج الجلود بسبب توجه عماله إلى حمل السلاح في حالة الحرب⁽³⁾.

(1) رسالة "هيركولي" Herculai " إلى حكومته 22 جوان 1795. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ص 28.

(2) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في المجال التجاري، في م. ت. م، جويلية 1976، عدد 6، ص 74.

(3) Pierre Grandchamp: **Etudes D'histoire Tunisienne XVIII- XXème Siècle**, Presses Universitaires De France 1966, Vol VI , PP 104, 105.

- **الشاشية:** عرفت شهرة كبيرة خاصة في العالم الإسلامي، وهي أعلى من شاشية مرسيليا . وتستقطب هذه الصناعة عددا كبيرا من العمال، وتعتمد على مادة الصوف الرقيق الذي يستورد من إسبانيا. وأغلب مصانع الشاشية موجودة في منطقة زغوان. ويتم تصدير الشاشية في شكل مجموعات كل مجموعة تضم اثني عشر قبعة.

- **الخيول:** إذا كان البحث عليها صعب فإن البحث عن الخيول الجيدة أصعب، وأغلب الخيول الجيدة تجلب من المرتفعات الغربية لتونس على الحدود مع الجزائر . يتم تصديرها إلى فرنسا بوجه خاص، لكن اغلب السفن لا ترغب في حمل الخيول.

- **الصوف:** تحتكر تجارته الطبقة الحاكمة، ويتم تصديره إلى مرسيليا.

ب- الواردات:

- **القماش الصوفي:** يتورد هذا النوع من القماش من إنجلترا وهولندا.

- **الصوف الإسباني:** هذه الأصواف الرقيقة تستعمل خصيصا في صنع الشاشية . وقد لعب التجار اليهود بتونس دورا كبيرا في جلب هذه الأصواف، كما ساهمت مرسيليا في عملية النقل من إسبانيا إلى تونس، وكان ذلك قبل عقد معاهدة الصلح بين تونس وإسبانيا سنة 1791م⁽¹⁾. ومع تجارة الصوف إنتعشت تجارة الأصبغة⁽²⁾.

- **الورق:** تستورد من ليفورنو نوعية خاصة تستعمل في لف الشاشية. إضافة إلى هذه المواد فإن تونس تستورد عدة مواد أخرى كالحرير والتبغ والخشب والعقاقير⁽³⁾.

3- احتكار السلطة للتجارة الخارجية:

لعبت الطبقة الحاكمة دورا في التجارة الخارجية، وهذا راجع لسببين هما:
أولاً- مثلت هذه الفئة دور الوسيط التجاري بين الداخل والخارج، بفضل احتكارهم لمناصب المراقبة التجارية، وتوضح هذه الوساطة على مستويين هما:

1- التصدير: كانت فوائض الإنتاج بالأرياف تجمع إما باستعمال بعض الوكلاء ، أو عن طريق⁽⁴⁾

Pierre Grandchamp: **Etudes D'histoire**, Op.cit, p 104. (1)

Paul Masson: **Histoire Etablissement et du Commerce Français dans L'Afrique Barbaresque (1560- 1793)**, Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc. Librairie Hachette, paris 1903, p 600. (2)

Pierre Grandchamp: **Etudes D'histoire**, Op.cit, p 105. (3)

(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ص 489.

دفع الضرائب كالعشر. وعليه يصبح قسما من الإنتاج تحت تصرف السلطة.

2- الاستيراد: إن الفئة المتاجرة داخل الطبقة الحاكمة تمارس احتكارا لبعض الواردات الأساسية

لاقتصاد البلاد مثل الصوف الإسباني، وبعض الأصباغ.

ثانيا- استعملت هذه الفئة نفوذها السياسي لتدعيم مكانتها الاقتصادية، وهذا أجبر أرباب الصناعة

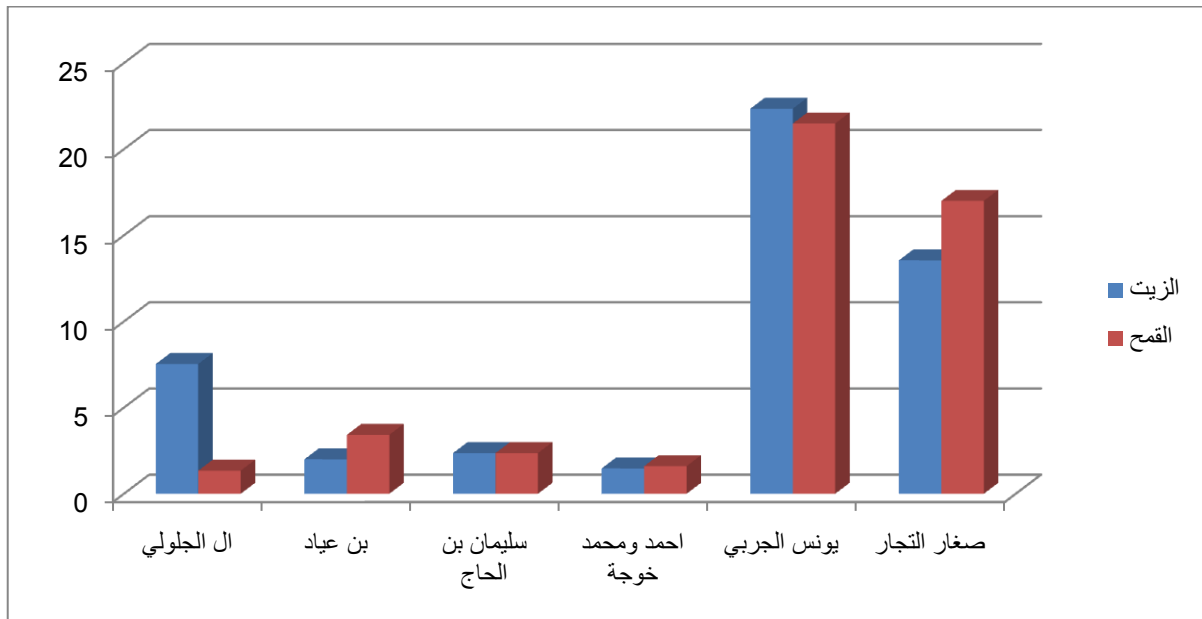
- صناع الشاشية - للخضوع لهم؛ لأنهم المصدر الوحيد الذي يجلب المادة الأولية⁽¹⁾، وهذه الأعمدة

البيانية تبين سيطرت رجال السلطة على صادرات الزيت والقمح 1795-1814م مقارنة مع صغار

التجار. وهذه الإحصائيات، و الأعمدة البيانية تبين⁽²⁾:

4- سيطرة رجال البلاط على صادرات الزيت والقمح ابتداء من سنة 1795 إلى 1814م.

التجار	نسبة الزيت %	نسبة القمح %
آل الجلولي	7.53 %	1.34 %
عائلة بن عياد	2 %	3.42 %
سليمان بن الحاج	2.36 %	2.36 %
أحمد ومحمد خوجة	1.47 %	1.60 %
يونس بن يونس الجربي	22.35 %	21.49 %
صغار التجار	13.55 %	17 %



(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ص 489.

(2) محمد فوزي المستغامي: المرجع السابق، ص 448.

5- ضعف الهيمنة التجارية الأوروبية بتونس:

رغم انفتاح تونس على التجارة المتوسطية منذ القدم؛ إلا أنها لم تمتلك أسطول تجاري فكانت توظف السفن التي تمتلكها في هذه الفترة في نشاط القرصنة؛ أو النشاط التجاري الذي سيطرت عليه السفن الأوروبية لنقل صادرات و واردات تونس، وخاصة السفن الفرنسية، وهذا راجع إلى الحواجز التي وضعتها هذه الدول أمام التاجر التونسي بمنعه من الدخول إلى الموانئ الأوروبية، إضافة إلى تعرضه لقرصنة جزيرة مالطة قبل سيطرت نابليون عليها 1798م⁽¹⁾. وتحكم فرنسا في تجارة تونس مع إسبانيا قبل عقد السلام بين تونس وإسبانيا سنة 1791م؛ حيث كانت البضائع الإسبانية تمر على مرسلينا ثم تتجه نحو تونس⁽²⁾.

لكن "حمودة باشا" بدأ يعمل لإيقاف هذه الهيمنة الفرنسية، بوضع وسطاء تجاريين تونسيين، وبهذا أخذت السلطة على عاتقها التجارة الخارجية⁽³⁾، مما أدى إلى استياء التجار الفرنسيين من المراقبة المفروضة عليهم؛ وأصبحوا يطالبون بالحرية في التجارة داخل تونس⁽⁴⁾، فتقلصت عدد الشركات الفرنسية بتونس بسبب الخسائر التي تعرضت لها؛ فمن بين خمسة عشر شركة بقيت شركتان فرنسيتان، وشركتان جنويتان ينحصر عملهما في الاتجار بالخمير، ويبيع للرعايا الأوروبيين⁽⁵⁾.

وبهذا تراجع دور السفن الأجنبية في تجارة تونس الخارجية؛ خاصة أثناء حروب نابليون حيث أصبحت تساهم بأقل من الثلث؛ كما ضعف دور الناقلات الفرنسية بسبب الحصار الإنجليزي المفروض عليها، مما أدى إلى إلغاء الضريبة القديمة المفروضة على البضائع التونسية التي تصد ر إلى فرنسا على متن سفينة غير فرنسية، والتي كانت تقدر ب 20 %⁽⁶⁾.

6- دور اليهود في التجارة الخارجية:

لعب اليهود التونسيون دورا كبيرا في التجارة الخارجية، وخاصة عندما نعلم أن حمودة باشا قد أصدر مجموعة من القوانين التجارية سنة 1788م، زادت من نصيب اليهود في عملية الإستيراد

(1) Marcel Emérit: *L'essai D'une Marine Marchande*, Op.cit, pp 363- 370.

(2) Paule Sebag: *Tunis Histoire D'un Ville*, Edition L'Harmattan, paris 1998, p 248.

(3) Khalifa Chater: Op.cit, p 34.

(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ص ص 409، 410.

(5) Khalifa Chater: Op.cit, p32.

(6) F. Armoulet: *Les Relation De Commerce Entre La France et La Tunis de (1815 - 1886)*, Lille 1986, p 15.

أكثر من النصارى . لذا حاول التجار المسيحيين انتحال أسماء اليهود للحصول على حصتهم من البضاعة المستوردة بسهولة⁽¹⁾، ومن أبرز المواد التي تاجر بها اليهود هي الصوف، كما قاموا بشراء المحاصيل الزراعية من الفلاحين وبيعها مقابل مبلغ يدفع للباي، إضافة إلى المتاجرة في الجلود والشمع، وقد ارتبطت تجارتهم بميناء القرنة⁽²⁾ بتوسكانيا، لأنهم يعتبرون أنفسهم توسكانين⁽³⁾.

7- انتعاش التجارة الخارجية:

في هذه الفترة أصبحت مؤشرات اعتماد تونس على التجارة الخارجية متزايدا، بالرغم من معاناة منتجات الصناعة التقليدية والحرف التونسية من منافسة الصناعة الأوربية المتطورة، إلا أنها قد عرفت ارتفاعا كبيرا في حجم الصادرات. لذا وصفت تونس بأنها " شنغهاي البحر المتوسط"، وقد استقبلت مرسيليا ما بين سنتي 1790 - 1799 م، حوالي 749 سفينة محملة بالبضائع القادمة من شمال أفريقيا، منها حوالي 347 قادمة من تونس أي بنسبة 46.3 %⁽⁴⁾. وفي ميناء مقاطعة توسكانيا تتفوق السفن القادمة من تونس على بقية سفن الإيالات المغاربية، وذلك بفضل الدور الذي لعبه التاجر التونسي بين مقاطعة توسكانيا وشمال أفريقيا عموما⁽⁵⁾.

8- الفضاء الجغرافي لتجارة تونس الخارجية:

لقد شهدت الفترة الممتدة ما بين (1800 - 1814م) نموا في المبادلات التجارية، بسبب اتصال التجار التونسيون بالموانئ الأوربية⁽⁶⁾. وكان أكثر من 68 % من السفن المستعملة في النقل محلية، وهذا ما يدل على تخلص تونس من هيمنة السفن الأجنبية⁽⁷⁾. وفي نفس الفترة توجهت حوالي 305 سفينة تونسية إلى الموانئ الأوربية، والدائرة النسبية توضح عددها ووجهتها⁽⁸⁾.

(1) Pierre Grandchamp: **Etudes D' histoire Tunisienne**, Op.cit, p 99.

(2) عبد الحكيم القفصي: **تجارة الصوف**، في ك.ت، المطبعة الرسمية، تونس 1991، العدد (157-158)، ص ص 79، 80.

(3) لوسات فلنزي: المرجع السابق، ص 38.

(4) نفسه، ص 92.

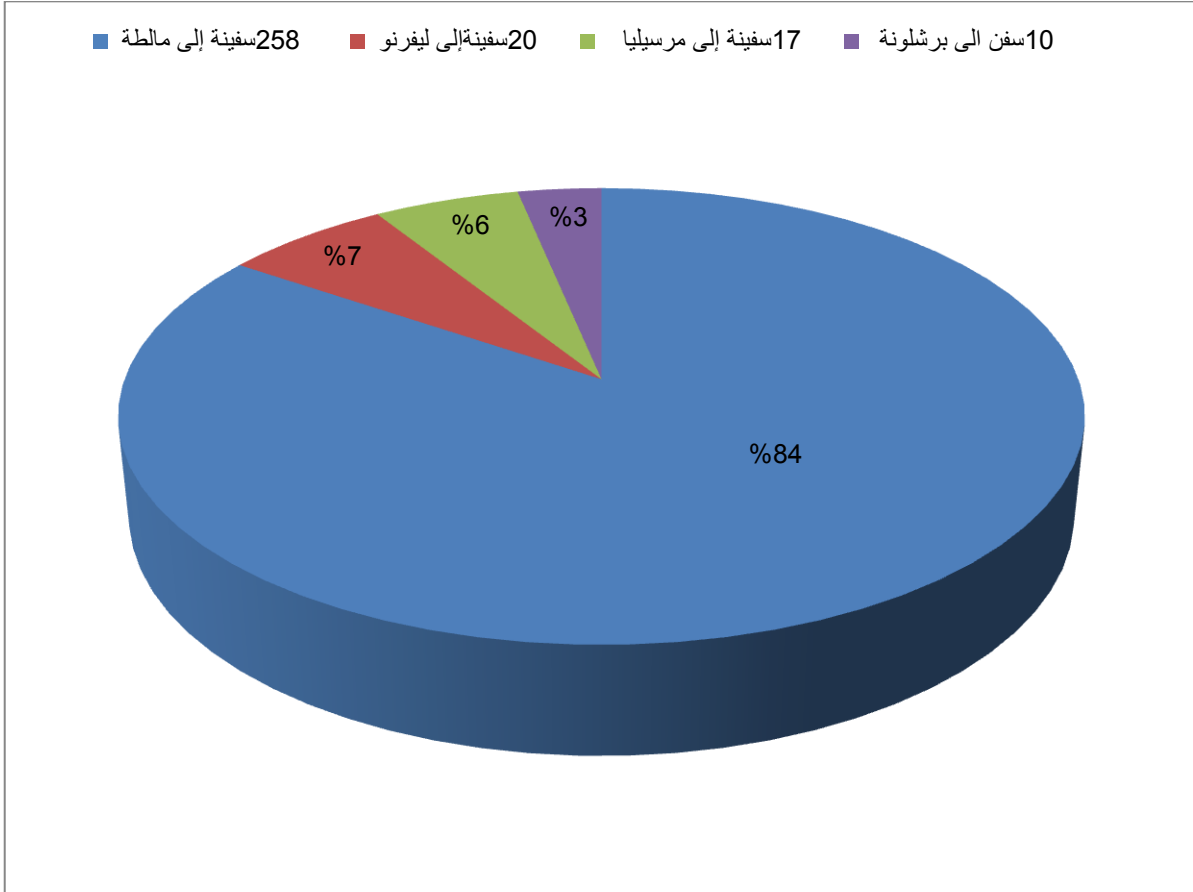
(5) لوسات فلنزي: المرجع السابق، ص 92.

(6) V.Valensi: **Histoire Economique Et Sociale Du Monde**, Paris 1978, T 3, p 58.

(7) أ. بلانتي: المصدر السابق، ص 483.

(8) Daniel Panzac: **Les Corsaires Barbaresques**, Op.cit, p 144.

9- دائرة نسبية توضح عدد السفن المتوجهة من تونس إلى الموانئ الأوربية من سنة (1216-1814م)⁽¹⁾:



نستنتج من هذه الدائرة النسبية أن عدد السفن المتوجهة إلى جزيرة مالطة مرتفع؛ وهذا بسبب تحول هذه الجزيرة من عش للقراصنة إلى مركز تجاري، وذلك بعد أن سيطرت إنجلترا عليها في سنة 1800م؛ إضافة إلى قربها من تونس . وتأتي ليفورنو في المرتبة الثانية حيث أصبحت الشريك التجاري الثاني لتونس بعد تراجع عدد السفن المتوجهة إلى مرسيليا الشريك التجاري الأول لتونس في بداية حكم الباي . والتراجع هذا سببه الصراع الفرنسي الإنجليزي من 1798 إلى غاية 1814م. ومنه نستنتج أهمية القسم الجنوبي الشرقي من الحوض الغربي للمتوسط للتجارة الخارجية لتونس.

Daniel Banzak: Les Corsaires Barbaresques, Op.cit, p 144.

(1)

في بداية عصر "حمودة باشا" كانت العلاقة بين تونس وجزيرة مالطة عدائية، حيث مارس فرسان القديس يوحنا بمالطة ضغطا كبيرا على التاجر التونسي، الذي لجأ لرفع الراية الفرنسية حتى لا يتعرض لخطر قراصنة مالطة، وعليه فإن المبادلات التجارية بين البلدين كانت شبه من عدمة⁽¹⁾. لكن هذا الضغط بدأ يتلاشى بعد أن قام "نابليون بونابرت" بطرد فرسان القديس يوحنا، أثناء حملته على مصر سنة 1798م. وفي 1800م سيطرت إنجلترا على الجزيرة، ولتلبية حاجيات قواتها بدأت تستورد من تونس. فتحوّلت بذلك تجارة تونس من مرسيليا إلى جزيرة مالطة. هذه الأخيرة أصبحت الموزع الأكبر للسلع في الحوض الغربي للمتوسط إلى غاية 1814م. ومن أبرز صادرات تونس إلى جزيرة مالطة القمح، والزيت، والبقول، وتستورد منها تجهيزات السفن⁽²⁾.

ب- التجارة مع ليفورنو:

تعتبر السوق الثانية لتونس بعد مرسيليا في النصف الأول من حكم الباي، وبعد مالطة في النصف الثاني من حكمه. وهنا نشير إلى الأهمية المتزايدة لقطع الذهب وغبار الذهب، الذي كانت تجلبه من تونس عن طريق التجار اليهود، مما أدى إلى بروز ميناء مقاطعة توسكانيا كمركز مالي. لقد لعبت تونس دور المحرك الأساسي في العلاقات التجارية مع ليفورنو، دون أن ننقص من دور تجار ليفورنو الذين ساعدوا تجار تونس كثيرا بفضل ما يتمتعون به من ثراء كبير من جهة، ودفعهم لـ 11% من الرسوم الجمركية من جهة ثانية⁽³⁾. وعلى العموم كانت تونس تصدر لها الزيت، و الشاشية، وغبار الذهب، وتستورد منها البن، والصوف، والقطن⁽⁴⁾.

ج- التجارة مع جنوة:

تستورد جنوة ثلاثة شحنات قمح من تونس خلال السنة، وتصدر لها أربعة شحنات من الصوف الإسباني والخشب والعقاقير، وهذه التجارة يمارسها التجار الجنويين المقيمين بتونس⁽⁵⁾.

Jean Mathiesc: **Sur La Marine Marchande Barbaresque Au XVIII Siècle**, in A. E. S. C (1) 1958, V 13, p 92.

Daniel Panzac : **Les Corsaires Barbaresques**, Op.cit, p 145. (2)

(3) فليبي جون: ليفورنو وشمال افريقيا في القرن الثامن عشر، في م. ت. م، تونس 1977، العدد (7-8)، ص ص 126، 127.

Paul Sebag: **Histoire D' un Ville**, Op.cit, pp 13- 15. (4)

Venture De Paradis: Op.cit, p 103. (5)

د- التجارة مع جمهورية البندقية:

بدأ التبادل التجاري بين البلدين بعد نهاية الصراع بينهما سنة 1792م، وقد لعب يهود

ليفورنو دورا كبيرا في إبرام الصفقات التجارية بين تونس وجمهورية البندقية، فيشترون من البندقية
المصنوعات الزجاجية وشفرات السيوف وقطع البنادق، ثم تباع هذه السلع في تونس، التي يجلبون منها
القمح والزيت لبيعها في جمهورية البندقية⁽¹⁾.

هـ- التجارة مع فرنسا:

لعبت فرنسا دورا محوريا في التجارة الخارجية لتونس، وقد تحكمت الشركة الأفريقية بمرسيليا، في
التعامل التجاري بين تونس وفرنسا. ففي سنة 1788م توجهت 68 سفينة من أصل 184 سفينة من
تونس إلى مرسيليا أي بنسبة 37 %، وأغلب هذه السفن فرنسية أي بنسبة 80.4 %. وهذا
التبادل التجاري الكبير كان قبل قيام الثورة الفرنسية⁽²⁾.

وأثناء الثورة الفرنسية (1789-1798م)، بدأ "حمودة باشا" بتقليل نشاطه التجاري معها، مما
أضر بمصالح فرنسا التجارية لصالح الدول الأوروبية الأخرى. لذا حاولت فرنسا إصلاح الوضع إلى
درجة أنها عرضت على الباي بناء ميناء جديد بتونس على حسابها الخاص، لكنه رفض العرض⁽³⁾.
وبعد معاهدة 1795م؛ عادت المؤسسات التجارية الفرنسية لنشاطها بتونس لكن بدرجة أقل⁽⁴⁾.
وحاولت فرنسا مرة أخرى استعادة مكائنها التجارية بعد عقد هدنة أميان 1802م مع إنجلترا، حيث
أبدت استعدادها لشراء كل ما تصدره تونس من الحبوب؛ لكن دون جدوى بسبب تحول التجارة
الخارجية التونسية نحو جزيرة مالطة مع بداية القرن التاسع عشر⁽⁵⁾.

وعليه فقد انخفضت صادرات تونس نحو مرسيليا بسبب تذبذب المحاصيل الزراعية بتونس،
إضافة إلى قلة الطلب من مرسيليا لبعض المواد خاصة القمح والزيت؛ حيث نجد أن المبلغ المدفوع
لشراء هاتين المادتين بلغ 3251520 ليرة سنة 1788م، ثم انخفض المبلغ إلى 397800 ليرة سنة
1789م، بسبب قلة الكمية التي حولت إلى مرسيليا⁽⁶⁾.

(1) Venture De Paradis: Op.cit, p 103.

(2) F. Armoulet: **Les Relation Economique**, Op.cit, pp 119, 120.

(3) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في المجال التجاري، المرجع السابق، ص 77.

(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 305.

(5) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في المجال التجاري، المرجع السابق، ص 77.

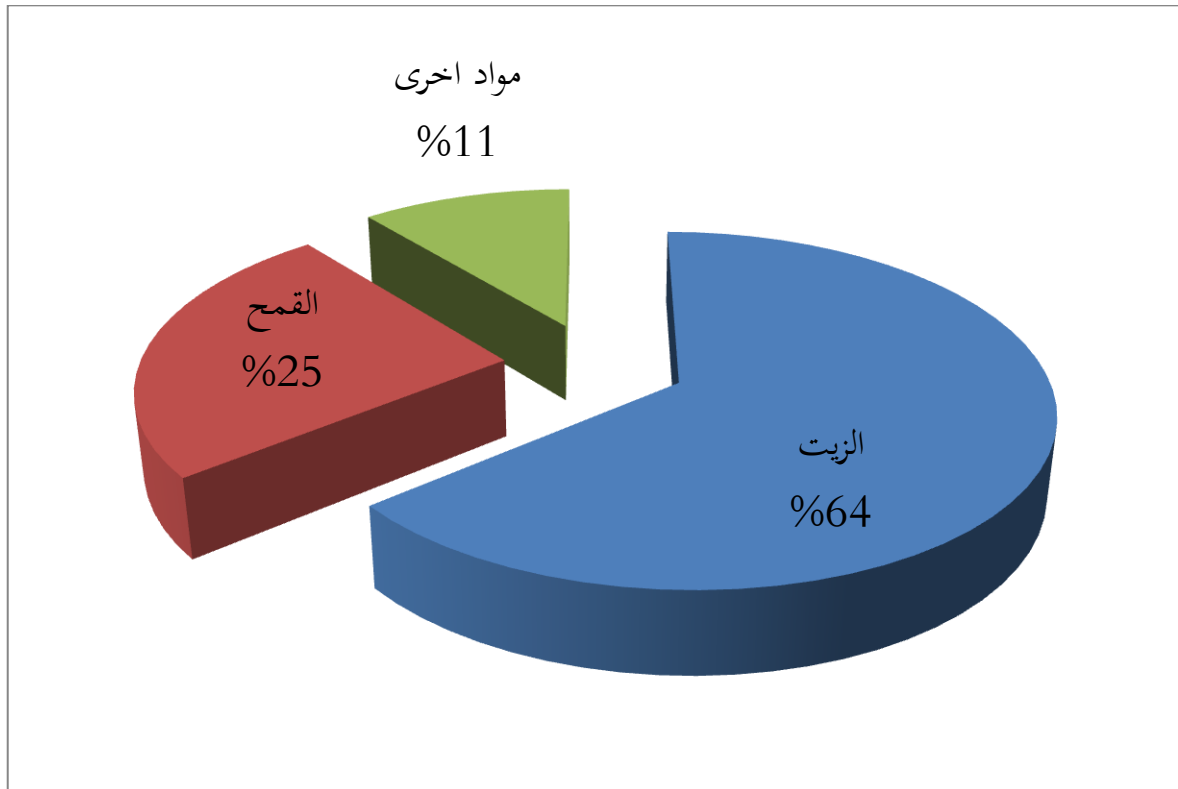
(6) أ. بلانتي: المصدر السابق، ص 393.

أما الواردات التونسية، فقد تمثلت في جلب الصوف الإسباني، الذي ارتفع الطلب عليه داخل الإيالة من نسبة 27.5 % من مجموع الواردات سنة 1203هـ / 1788م، إلى نسبة 34.1 % سنة 1204هـ / 1789م⁽¹⁾. بسبب ازدهار صناعة الشاشية التونسية، حيث انتشرت الورشات بعدد كبير في مدينة تونس وضواحيها . وكان كبار التجار الفرنسيون يمولون التونسيين بالصوف عن طريق القروض من أجل القضاء على منافسة التجار اليهود لهم.

لكن المشكل الذي واجهته تجارة فرنسا بتونس، هو قلة حجم صادراتها نحو الإيالة، بسبب عدم تنوع السلع، وضعف الاستهلاك داخل تونس . فانحصرت صادرات فرنسا، في الأصواف والأغطية، والسكر والقهوة القادمة من المستعمرات الفرنسية.⁽²⁾

10- دائرة نسبية توضح:

نسبة صادرات الزيت والقمح من تونس نحو مرسيليا من سنة 1800 إلى 1809م⁽³⁾.



(1) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 393 , 394.

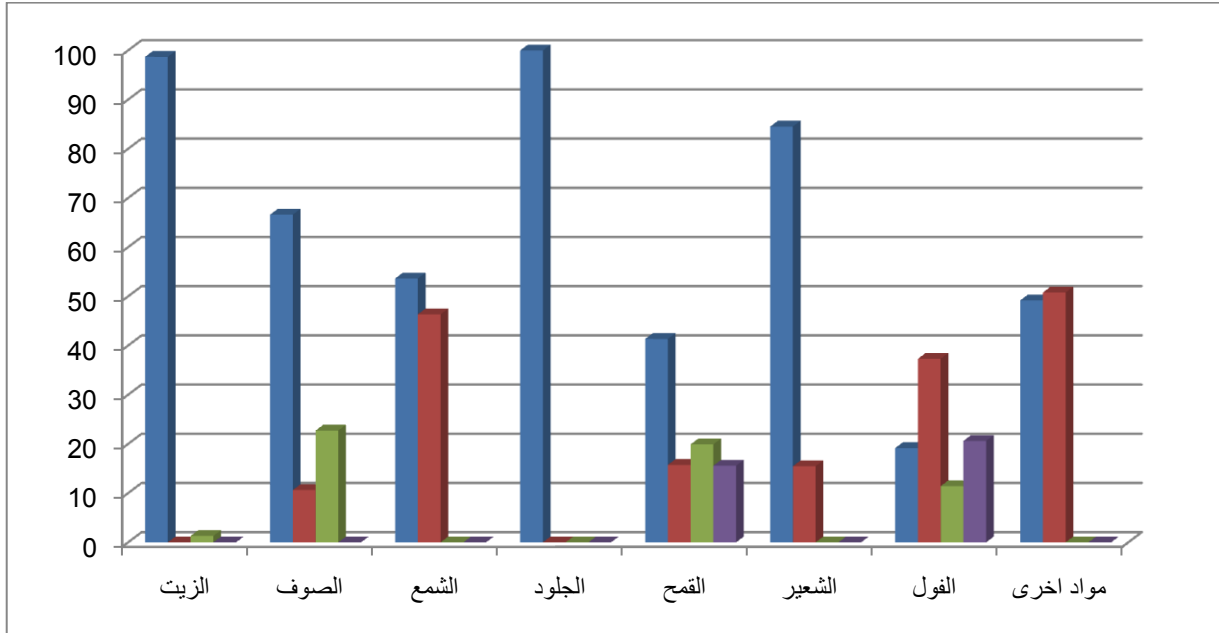
(2) Paul Masson: **Histoire Etablissement** , Op.cit, pp 600, 601.

(3) لوسات فلنزي: المرجع السابق، ص 101.

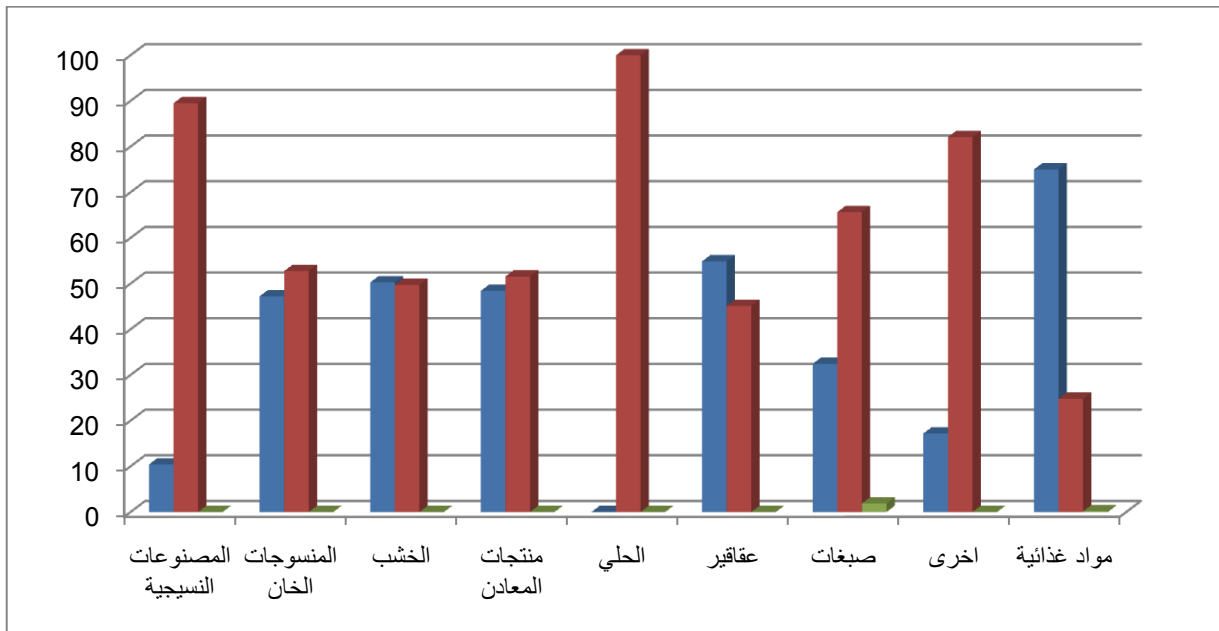
11- أعمدة بيانية توضح صادرات وواردات تونس نحو دول أوروبا الغربية للسداسي الأول من

سنة 1788م⁽¹⁾.

1- الصادرات:



2- الواردات:



Daniel Panzac: *Les Corsaires Barbaresques*, Op.cit, pp 120, 121.

و- التجارة مع اسبانيا:

بدأت العلاقات التجارية بين تونس وإسبانيا بشكل مباشر دون الوساطة الفرنسية منذ سنة 1205هـ/ 1790م، نتيجة لحدوث الوفاق بين البلدين، و الذي توج بمعاهدة السلام سنة 1791م. التي كرست التبادل التجاري⁽¹⁾ بينهما، بوضع ضوابط لتنظيم هذا النشاط التجاري . و أصبحت تونس تصدر مباشرة إلى إسبانيا القمح و الفول، وبعض الصناعات المحلية، وتستورد منها الصوف والأصباغ و الذخائر الحربية⁽²⁾.

12- أسباب انعدام الأسطول التجاري بتونس:

بالرغم من أن الظرفية المتوسطة كانت سائحة لإ نشاء أسطول تجاري بتونس، إلا أن المحاولات بقيت منقوصة، وهذا راجع إلى:

- قلة الإمكانيات لبناء لسفن داخل تونس.
- قلة الأموال المخصصة لشراء السفن.
- بقاء لتجار التونسيين بأفكارهم التقليدية.
- عدم تخلص تونس من عملية كراء السفن الأوربية.
- ضعف نشاط الممثل التجاري لتونس بأوربا، لان هذه الدول كانت ترفض قدوم أي تاجر مسلم، مما يبين لنا الحقد الصليبي على المسلمين من جهة، وانعدام مبدأ المعاملة بالمثل من جهة أخرى، فميناء مرسيليا مثلا كاد أن يكون محرما على أي تاجر أجنبي⁽³⁾. ورغم هذا وصل بعض الممثلين التجاريين التونسيين لعدة موانئ أوربية، مثل موانئ توسكانيا وليفورنو، وغيرها من الموانئ الأوربية الأخرى، وكان دورهم ينحصر في:
- بيع البضائع التي تصله من تونس، حيث يرسل التاجر التونسي مع الحمولة المصدرة ورقة مكتوب عليها كمية البضائع، ونوعها، وأسعار الشراء، حتى يتسنى للممثل تصريف المنتج.
- تخزين البضائع نظرا لتراجع الطلب عليها في بعض الأحيان، حتى لا يقلل السعر.
- تنظيم بعض العمليات التجارية، حيث كانوا يقومون بشراء البضائع من مراكزهم ثم يقومون⁽⁴⁾

(1) للاطلاع أكثر حول العلاقات التجارية بين تونس وإسبانيا أنظر: نور الدين الحلاوي: المرجع السابق، ص 89.

(2) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في المجال التجاري، المرجع السابق، ص 79.

(3) M. Ben Smail et Lucette Valensi: **Le Gouvernement De Hammouda Pacha**, in C. T. T XIX, Tunis 1971, N° 73- 74, pp 90, 91.

(4) Jean Mathiesc: Op.cit, pp 87- 93.

بتسويقها إلى بعض الموانئ الأوربية الأخرى، مثل شراء الحبوب المصرية وبيعها في الموانئ الأوربية.
- المشاركة في تنظيم النقل بين الموانئ المتوسطية والموانئ المحلية بتونس بواسطة اكتراء السفن الأجنبية⁽¹⁾.

13- العملة المستعملة في تونس أثناء عصر حمودة باشا:

لقد أشار التاجر البريطاني "توماس ماجيل" "Thomas Maggile"، أن العملة المستعملة في تونس هي البياستر "Paistres"، وقطعة أخرى تسمى المحبوب . إضافة إلى بوربين "Bourbins"، و أسبري "Aspres"، وكرويي "Corroubes". والجدول التالي يوضح قيم هذه العملات المتداولة في تونس في هذه الفترة⁽²⁾.

العملة	ما يعادلها
12 بوربين	01 أسبري
4/3 أسبري	01 كرويي
16 كرويي	01 قرش اسباني
02 بياستر	01 محبوب
01 لوندرا	15 بياستر
01 قرش اسباني	03 وربع قرش تونسي.

كما توجد عملة الليرة "Livre"، وهي إحدى وحدات العملة الفرنسية المستعملة، حيث أن واحد ليرة يعادل اثنان ريال تونسي⁽³⁾.

ومما سبق يمكن القول:

أن هناك عدة عوامل أثرت في سير العلاقات الخارجية بين تونس، والضفة الشمالية للحوض الغربي للمتوسط، ولعل أبرزها:

- محاولة حمودة باشا للأخذ بأسباب القوة جعلته يسعى في طريق الوفاق مع بعض الدول الأوربية حتى يحصل على الأسلحة والذخائر الحربية، ليعزز سلطته بالداخل، ويتصدى للأخطار الخارجية.

(1) Jean Mathiesc: Op.cit, p 93.

(2) Thomas Maggile: Op.cit, pp 144- 146.

(3) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا في المجال التجاري، المرجع السابق، ص 75.

- تأثير رجال البلاط في توجيه السياسة الخارجية للباي، وهم ينقسمون إلى فئتين، الفئة الأولى تدعوا إلى الوفاق مع دول غرب أوروبا، وبالأخص مع فرنسا، ويتزعمها الوزير الأول "مصطفى خوجة"، والفئة الثانية دعت الباي في كثير من الأحيان إلى إعلان الحرب، وعلى رأسها الوزير "يوسف صاحب الطابع".

- أما العوامل الخارجية المؤثرة في العلاقات كنشاط القرصنة، والتجارة الخارجية، نستطيع القول بأن الباي "حمودة باشا" كان له دور تفعيل نشاط البحرية لقناعته بأنها المصدر الوحيد الذي سيضمن له جلب المال، حتى يقوى نفوذه بالداخل والخارج، وهذا سيجلب له الاحترام من طرف الدول الأوروبية، ليسترجع هيبه ومكانة تونس في الحوض الغربي للمتوسط.

- إن نشاط البحرية التونسية طيلة عهد الباي ، يمكن أن نقسمه إلى مرحلتين، فالمرحلة الأولى تميزت بانتعاش نشاط القرصنة مستغلا في ذلك الاستقرار السياسي بتونس، وهدوء العلاقة مع الجزائر، والظروف التي مرت بها فرنسا، وما أفرزته من نتائج على مستوى العلاقات الدولية في الحوض الغربي للمتوسط. ولعل أبرزها تراجع مكانتها، لصالح إنجلترا . أما المرحلة الثانية فقد تميزت بانتعاش التجارة الخارجية، لأن المعاهدات التي أبرمها الباي مع دول غرب أوروبا، قلصت من نشاط القرصنة من جهة، ودفعت بالتجارة الخارجية من جهة ثانية.

- كما نلاحظ أن هناك تطابق في هيمنة السلطة على نشاط القرصنة والتجارة الخارجية فممولي القرصنة هم تقريبا نفس الشخصيات الممولة للمبادلات التجارية، وهو ما يبرز لنا خصائص عصر "حمودة باشا"، حيث يمكن القول أن هناك انصهار بين السياسة والاقتصاد.

حاول "حمودة باشا" استغلال الظرفية المتوسطة، والمتمثلة في التطورات السياسية التي مرت بها فرنسا نتيجة قيام الثورة بها، وما انجر عنها من حروب، بسبب التوسعات التي قام بها "نابليون بونابرت"، والتي زعزعت أمن أوروبا، وجعلت الحوض الغربي للمتوسط ميدان صراع بين جيوش نابليون والقوى الأوروبية الأخرى، وخاصة إنجلترا المنافس الأول لفرنسا . وعلى إثر هذا استطاع "حمودة باشا" أن يستغل الوضع لخدمة مصالح بلاده، لذا كان يقوم بإلغاء المعاهدات مع فرنسا كلما ظهرت حكومة جديدة أثناء الثورة، حتى يتمكن من تجديدها، ليحصل على أموالا أكثر وهدايا جديدة. ورغم الصرامة التي عرف بها الباي، إلا أنه كان يتنازل في كثير من المرات عن كبريائه أمام المنفعة، وأحيانا أخرى نجده صارما مع بعض الدول؛ مما يجعله يدخل في صراع معها إذا تعلق الأمر بسيادة تونس، كما فعل مع جمهورية البندقية، وهذا ما شكل له أول تحدي يخوضه "حمودة باشا".

لقد أفضى الصراع القائم بين فرنسا وإنجلترا في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر، إلى انضواء بعض الدويلات الإيطالية كمملكة نابل ومملكة صقلية - اللتان كانتا في عدااء مع تونس - تحت حماية كل من فرنسا وإنجلترا، حيث سعت كل منهما، إلى مطالبة "حمودة باشا" بعدم التعرض لمصالحها التجارية في الحوض الغربي للمتوسط . وهذا يعني عقد السلام بين تونس وهذه الدويلات الإيطالية دون إبرام معاهدة رسمية . لكن "حمودة باشا" رفض المساعي الفرنسية والانجليزية بهذا الشأن. ورأى ضرورة عقد الصلح مع هذه الدويلات الإيطالية أولا.

إضافة إلى هذا فقد سلكت اسبانيا في هذه الفترة سياسة المهادنة مع البلاد المغاربية، منهيتا بذلك الصراع القائم منذ ثلاثة قرون، إلا أن السلام بين تونس واسبانيا قد تأخر، رغم الدور الذي لعبته الجزائر كوسيط لعقد السلم بين الطرفين.

إن العلاقات الخارجية ل "حمودة باشا"، مع دول غرب أوروبا؛ كان يسعى دائما من ورائها إلى الحصول على الأموال، حتى يستطيع إنجاز مشاريعه الإصلاحية داخل تونس . متأثرا بذلك بالإصلاحات التي ظهرت في أوروبا، أو التي قام بها السلطان العثماني "سليم الثالث".

ومن خلال هذا يتبادر إلى أذهاننا مجموعة من التساؤلات، نلخصها فيما يلي: كيف استطاع "حمودة باشا" أن يبني علاقاته مع الضفة الشمالية للحوض الغربي للمتوسط في ظل الأوضاع التي فرضتها الظرفية المتوسطة؟. وما مدى استفادته من السلم الذي عقده مع دول غرب أوروبا؟.

المبحث الأول:

علاقة حمودة باشا مع بعض الدويلات الإيطالية:

- عرفت علاقة "حمودة باشا" بالدويلات الإيطالية تباينا واضحا، حيث اتسمت بالطابع العدائي، مع جمهورية البندقية، ومملكتي نابل، و صقلية . فيما اتسمت بالسلم والتجارة مع مملكة جنوة، و مقاطعتي توسكانيا، و ليفورنو. وقد تحكمت الظروف التي شهدتها الحوض الغربي للمتوسط، في تغير سياسته مع الدويلات الإيطالية، ويتضح ذلك من خلال الملامح التالية:
- الأوضاع العامة في الحوض الغربي للمتوسط في نهاية ق18 م وبداية ق19 م.
 - سياسة حمودة باشا الخارجية.
 - العلاقة مع جمهورية البندقية (1198-1207هـ/ 1784-1792م)
 - العلاقة مع مملكتي نابل وصقلية.
- أولا- سياسة حمودة باشا الخارجية:

أقام الباي علاقات متوازنة مع الدول الأوربية؛ خاصة مع فرنسا والدويلات الإيطالية؛ باستثناء مملكة نابل ومملكة صقلية، ثم إنجلترا واسبانيا في نهاية القرن الثامن عشر . محاولا عدم الارتباط بأحد هذه الأطراف أكثر من الآخر، للحفاظ على استقلالية نظام حكمه، وعلى الرغم من هذا نجد أن فرنسا قد حظيت بمكانة متميزة في بداية عصره⁽¹⁾.

وعليه فان سياسة الباي سارت في اتجاهين، أولهما العمل على توطيد العلاقات السلمية مع الدول الأوربية، سواء عن طريق قنصلهم المعتمدين في الجزائر؛ أو عن طريق مبعوثيه إليهم، واضعا مصلحة الإيالة في الاعتبار الأول؛ مستغلا الصراع القائم بين فرنسا وإنجلترا طيلة عهده . إلى درجة أن كل طرف منهما كان يشك في تحالف الباي مع الطرف الآخر⁽²⁾.

إضافة إلى سياسة المهادنة لجأ الباي إلى الشدة في سياسته الخارجية؛ عندما يتعلق الأمر بسيادة الإيالة. سواء بنقض المعاهدة أو إلغائها تماما، ويطالب بتجديدها وفق ما يخدم مصالحه⁽³⁾.

(1) زهير الذواوي: الإستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية، ط 1، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس 2006، ص 48.

(2) Mouktar Bey: **De Rôle de la Dynastie Husseinite Dans la Naissance et la Développement de la Tunisie Moderne (10juillet 1705- 12 mai 1881)**, thèse pour, le doctorat, 1968 T 2, p 48.

(3) Pierre Grandchamp : **Autour de consulat**, Op.cit, p 176.

مثلما فعل مع فرنسا سنة 1206هـ/1791م، عندما تغيرت الحكومة⁽¹⁾. وأحيانا كان يلجأ إلى طرد القناصل الأوربيين المعتمدين بتونس، كما حدث في سنة 1220هـ/1805م عندما طلب من قنصل إنجلترا السيد "ماجرا" (P.Magra) مغادرة الإيالة. وقد وصلت درجة الشدة في سياسة "حمودة باش" إلى غاية إعلان الحرب. كما فعل مع جمهورية البندقية بعد سنتين من توليه الحكم⁽²⁾.

ثانيا- الأوضاع العامة في الحوض الغربي للمتوسط في نهاية ق 18 م وبداية ق 19 م:

تميزت فترة حكم "حمودة باشا"؛ بعدة أحداث هامة غيرت في مسار العلاقات الدولية ولعل من أبرزها، ضعف الدولة العثمانية نتيجة للهزائم المتتالية؛ التي تعرضت لها على يد روسيا، وبروسيا والنمسا، مما أدى إلى ظهور الحركات الانفصالية بها⁽³⁾. هذه الظروف كان الباي مطلع عليها عن طريق وكيله "عبد الرحمن بدر الدين"، الذي كان يرسل له التقارير المفصلة عن الوضع⁽⁴⁾.

وقد استغل الباي هذا الضعف لخدمة أهدافه، حيث تدخل في طرابلس الغرب؛ وقام بتنحية "علي برغل" المعين من الباب العالي، وإعادة حكم "علي باشا القرامانلي" سنة 1211هـ/1795م حتى لا تنحصر تونس بين قوتين من الأتراك⁽⁵⁾. ولعل أبرز الأحداث التي تزامنت مع عصر الباي قيام الثورة الفرنسية (1789-1798م)، وما انجر عنها من اضطراب للأوضاع في أوروبا نتيجة الحروب التي قام بها نابليون بونابرت⁽⁶⁾ سواء على حساب الدول الأوربية، أو حملته على مصر سنة 1213هـ/1798م.

إضافة إلى دخول إنجلترا للحوض الغربي للمتوسط بغرض التصدي لتوسعات نابليون من جهة؛ ومنافسة فرنسا اقتصاديا داخل الإيالات المغاربية من جهة ثانية⁽⁷⁾.

(1) Pierre Grandchamp : **Autour de consulat**, Op.cit, p 176.

(2) Mouktar Bey: Op.cit, p 48.

(3) إسماعيل أحمد ياغي: **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، مكتبة العبيكان، الرياض 1995، ص 140.

(4) رشاد الإمام: **سياسة حمودة باشا الخارجية**، المرجع السابق، ص 149.

(5) للمزيد من الإطلاع حول دور حمودة باشا في إعادة أسرة القرامانلي للسلطة في طرابلس الغرب أنظر: شارل فيرو:

الحواليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي، ترجمة وتحقيق محمد عبد الكريم الوائلي، ط3، منشورات جامعة قار يونس بنغازي 1994، ص ص 366، 369.

(6) تولى قيادة الحملة الفرنسية على مصر 1798، وبعد رجوعه منها أقام حكومة القنصلية 9 نوفمبر 1799، وأصبح

سيد فرنسا الأول أنظر: زينب عصمت راشد: **تاريخ أوروبا الحديث**، ج 2، دار الفكر العربي ب ت، ج 1، ص 175.

(7) Daniel Panzac: **la Tunisie et la mer**, Op.cit, p 12.

ثالثا- الحرب مع جمهورية البندقية (1198-1207هـ/ 1784-1792م):

تعتبر هذه الحرب أول مشكلة حقيقية تواجه البايع "حمودة باشا"، والتي وصفها "بلانتي" (Plantet) بالحرب البطيئة والمتعبة⁽¹⁾، وقد بدأ الخلاف بين الطرفين في نهاية عصر والده "علي باشا"⁽²⁾. استمر "حمودة باشا" بمطالبته بتعويض قيمة الحمولة - المقدرة بأربعة عشر ألف ريال بندقية - التي أحرقت. دون أن يضغط على البندقية تفاديا للحرب. لكن هذه الأخيرة ماطلت في الرد و البث في هذه القضية، وأرسلت أسطولا إلى حلق الوادي سنة 1197هـ/ سبتمبر 1783م⁽³⁾، والمكون من بارجة مسلحة بأربعة وستين مدفعا؛ وفرقاطتين، بقيادة القائد "كيريني" (Querini)، الذي قدم لشرح أسباب عدم استجابة مجلس أعيان جمهورية البندقية لمطلب التعويضات؛ واستعراض القوة في نفس الوقت؛ لعل البايع يتراجع عن قراره، لكن هذا الأخير أعد رسالة شديدة اللهجة حدد فيها مدة الدفع بستة أشهر؛ وأرسلها مع القائد "كيريني"⁽⁴⁾.

عاد القائد "كيريني" إلى حلق الوادي في 30 ديسمبر 1783م؛ بعد أن أقنع مجلس أعيان جمهورية البندقية بدفع التعويضات، لكن حدثت أمور عطلت الدفع، والمتمثلة في اختفاء سفينة بندقية كانت راسية بحلق الوادي، عليها سلع لتجار يهود تونسيين⁽⁵⁾. فاتهم التجار التونسيين قبطان السفينة بأنه المتسبب في ضياعها؛ واشتكوه إلى الوزير الأول "مصطفى خوجة".

شرع الوزير في البحث عن السفينة التي غرقت لعله يتمكن من إنقاذ السلع، وفي الوقت الذي تم فيه اكتشاف مكان السفينة، وبدأ في عملية الإنقاذ وصل القائد "كيريني" عندهم، وطلب من الوزير التوقف عن العمل بحجة أن السفينة بندقية، وهم أولى بإنقاذها. فتم له ذلك وشرع البحارة البنادقة في إنقاذ السفينة لكنهم فشلوا.

هنا غضب "مصطفى خوجة" واتهم القائد "كيريني" بضياع السلع، وعليه دفع ثلاثين ألف ريال بندقية إلى هؤلاء التجار اليهود، إضافة إلى التعويضات التي طالبت بها تونس سابقا⁽⁶⁾.

(1) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 10.

(2) للنظر في أسباب الخلاف بين تونس وجمهورية البندقية. أنظر: محمود مقديش: المصدر السابق، ج 2، ص ص 214-225.

(3) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 242.

(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص ص 132، 133.

(5) نفسه، ص 138.

(6) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص ص 243، 244.

حاول "كيريبي" تبرير فشله بتقديم خمسة عشر ألف ريال بندقي كهدية شخصية للوزير، الذي رفض وطلب منه مغادرة تونس، وأمر الباي بكسر صاري العلم البندقي في سنة 1198هـ / 22 جانفي 1784م⁽¹⁾، وبهذا أصبحت الحرب بين تونس وجمهورية البندقية على الأبواب.

1- جمهورية البندقية تعلن الحرب:

في شهر جويلية 1784م أصدر مجلس أعيان جمهورية البندقية أمرا للأميرال "يمو" (Emo) بالتوجه إلى تونس على رأس أسطول ضخم وصل إلى حلق الوادي في أول سبتمبر، وفرض عليها حصار حاول أثنائه "يمو" الاتصال بالسيد "قازو" (Kazzou) قنصل البندقية الذي لم يغادر الايالة بسبب تأخر إنهاء تدابير الطرد التي لحقت بالرعايا البنادقة، ولأنه كان في نفس الوقت طبيب الباي "حمودة باشا"، لكن الاتصال لم يتم؛ فلجأ "يمو" إلى تهديده بتحطيم حصون حلق الوادي فحذره الباي من عواقب هذه الخطوة التي ستجعله يرفض نهائيا الصلح مع جمهورية البندقية فغادر "يمو" (Emo) من المياة التونسية لانتظار أوامر جديدة من مجلس الأعيان البندقي⁽²⁾.

2- الهجوم البندقي على سوسة:

رجع "يمو" (Emo) في أول أكتوبر من نفس السنة؛ وبدأ بقصف مدينة سوسة لمدة ثمانية أيام تكبد فيها الطرفان خسائر كبيرة تمثلت في قتل العديد من الرجال، وتحطيم ثلاثون بيتا⁽³⁾. وعاد الأسطول البندقي لقضاء فصل الشتاء وجلب المؤونة، ولتفادي إصابة جيشه بوباء الطاعون الذي تفشى في تونس بشكل كبير خاصة سنة 1198هـ / 1784م⁽⁴⁾.

عاد الأسطول البندقي مرة ثانية إلى سوسة في 26 جويلية 1785م، وقام بقصفها إلى غاية 5 أوت دمر خلالها حوالي مائة وخمسة عشر منزلا، وحطم جزءا كبيرا من حصونها. ثم توجه الأسطول إلى صفاقس، واكتفى بإطلاق مائة وخمسين قنبلة لتخويف السكان في شهر أوت 1785م⁽⁵⁾.

(1) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص ص 243، 244.

(2) رسالة من "ديسبارون" D'esparron " إلى حكومته، تونس، 9 أكتوبر 1784م. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 143.

(3) رسالة من "ديسبارون" إلى حكومته، تونس، 3 نوفمبر 1784م. أنظر: المصدر نفسه، ص 144.

(4) رسالة من "ديسبارون" D'esparron " إلى حكومته، تونس، 6 ديسمبر 1784م. أنظر: المصدر نفسه، ص 146.

(5) رسالة من "ديسبارون" D'esparron " إلى حكومته، تونس، 15 جوان 1785م. أنظر: المصدر نفسه، ص 149.

3- الهجوم البندقي على حلق الوادي:

حاول "ايمو" الدخول في مفاوضات مع "حمودة باشا"؛ فكتب له رسالة تتضمن مجموعة من الاقتراحات أبرزها، أن تدفع جمهورية البندقية تعويضات تتراوح ما بين 20 إلى 30 ألف قطعة ذهبية كهبة للباي⁽¹⁾، وختتم رسالته أنه إذا تلقى رد سلبي، فإنه سيحطم كل تحصينات حلق الوادي، وأمهله مدة أربعة وعشرين ساعة للتفكير في العرض . ونتيجة لفشل هجمات الأسطول البندقي السابقة، و التحصين الجيد الذي قام به الباي، فإن رده كان الرفض ما لم تستجب البندقية لدفع التعويضات، وحذر قائدها بأنه سيدفع تعويض عن الخسائر التي قد يسببها لتونس.

بدأ هجوم بندقي كاسح على حلق الوادي في 30 أكتوبر 1785م، أدى إلى إحداث هلع وسط الجيش التونسي؛ الذي انسحب مؤقتا من مواقعه، لكن القائد البندقي "ايمو" لم يستغل الفرصة لاحتلال حلق الوادي، بسبب عدم تلقيه أوامر تخول له ذلك . إضافة إلى عدم قدرته للحفاظ على هذا الموقع أو التقدم نحو تونس وبالتالي يخسر المكاسب التي حققها. كانت جمهورية البندقية في حربها هذه مع تونس تسعى لتحقيق شروط مشرفة لها، أي بمعنى أن تحض بمكاسب داخل الإيالة كباقي الدول الأوربية⁽²⁾. فلجأ القائد "ايمو" إلى التفاوض مع الباي الذي استجاب لرغبته بإيعاز من "مصطفى خوجة"، لكن الباي طالب برفع قيمة التعويضات من أربعين ألف إلى ستين ألف محبوب⁽³⁾، ففشلت المفاوضات بين الطرفين⁽⁴⁾.

4- المرحلة الأخيرة من الصراع:

توجه الأسطول البندقي في 1200هـ/12 مارس 1786م؛ إلى صفاقس وقام بقصفها إلى غاية أن تلقى القائد "ايمو" رسالة من مجلس أعيان البندقية لاطلاع الباي على رغبتهم في التفاوض، لكن "حمودة باشا" رفض هذا، واستمر الهجوم البندقي على صفاقس، ثم توجه نحو بنزرت في 24 جويلية، ثم العودة إلى سوسة في 19 سبتمبر من نفس السنة، إلى غاية انسحاب الأسطول البندقي⁽⁵⁾

(1) رسالة من "ديسبارون" إلى حكومته، تونس، 10 سبتمبر 1785. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 150.

(2) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص ص 251-253.

(3) عملة ذهبية عثمانية ضربها السلطان سليم الأول (1512-1520)، وهي تزن 3.5 غرام أنظر: أحمد سعيد الطويل:

المرجع السابق، ص 228.

(4) رسالة من حكومة فرنسا إلى "ديسبارون" D'esparron"، فرساي، 9 أبريل 1786م. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق

ص 154.

(5) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 253.

إلى جزيرة مالطة لجلب المؤونة، وإصلاح الأعطاب التي لحقت بالسفن . لكن القائد "ايمو" توفي فجأة بهذه الجزيرة، فقرر مجلس الأعيان البندقي، إعادة النظر في الحرب مع تونس⁽¹⁾.

5- ظروف الصلح:

وقعت عدة أمور أجبرت الطرفين لإنهاء حالة الصراع، ولعل أبرزها وفاة "ايمو" الذي يعتبر العدو الشخصي للباي . إضافة إلى ارتفاع تكاليف هذه الحرب بالنسبة لجمهورية البندقية، والتي وصلت إلى مليون محبوب، بسبب قوة التحصين التونسي . ومن الجانب الآخر تخوف "حمودة باشا" من تأزم العلاقة مع الجزائر⁽²⁾، وهذا سيوقعه في مواجهة جمهورية البندقية من جهة، والجزائر من جهة ثانية في نفس الوقت⁽³⁾.

6- السلام الغالي:

استغل حمودة باشا ظروف البندقية من جهة وتخوفه من جهة ثانية، للدخول في مفاوضات مطولة انتهت في الأخير بعقد صلح بين البلدين في 20 ماي 1792م؛ تضمن أربعة وعشرون بنداً⁽⁴⁾؛ أهم ما جاء فيها أن تدفع جمهورية البندقية مبلغ ثمانون ألف محبوب كتعويض، وتقديم هدايا ثمينة للباي. وبهذا تكون البندقية قد اشترت السلام غاليا بعد ما يقرب تسع سنوات من الصراع، كما استعاد "حمودة باشا" هيبه بلاده، وذلك بإجبار البندقية لتنفيذ مطالبته⁽⁵⁾.

رابعا- علاقة تونس مع نابل وصقلية :

1- العلاقة مع مملكة نابل:

حاولت مملكة نابل أن تنهي الصراع القائم بين البلدين، في إطار نشاط القرصنة، فطلبت من السيد "فامان" - مندوب فرنسا بتونس - سنة 1212هـ / 1797م؛ التوسط لعقد السلام معها . لكن هذا المسعى لم ينجح⁽⁶⁾. وزاد التوتر بعد استيلاء القراصنة التونسيين على سفينة نابولية، متوجهة

(1) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 253.

(2) تعرض "حمودة باشا" أثناء حربه ضد جمهورية البندقية لضغط شديد من طرف باي قسنطينة "صالح باي" سنة 1787م عندما طلب منه دفع التعويضات عن الذين فروا من بايليك قسنطينة إلى البلاد التونسية، لكي لا يدفعوا الضرائب أنظر: عمار بن خروف: علاقات الجزائر السياسي مع تونس، المرجع السابق، ص 389.

(3) Maggil, Tomas: Op.cit, p 32.

(4) للاطلاع على بنود الصلح بين تونس وجمهورية البندقية أنظر: ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 562.

(5) رسالة من "دوفواز" "Devoiz" إلى حكومته، تونس، 26 نوفمبر 1795. أنظر: أ. بلاتي: المصدر السابق، ص 273.

(6) رسالة إلى "هيركولي" "Herculais"، تونس، 19 فيفري 1797م. أنظر: المصدر نفسه، ص 315.

إلى ميناء طولون؛ فتدخل الوزير الفرنسي "تاليرون" (Talleyrand)؛ وكلف القنصل "دوفواز" باسترجاع السفينة، والعمل على ضمان احترام السفن التي تعمل لصالح فرنسا⁽¹⁾.

وفي سنة 1221هـ/ 1806م قامت فرنسا بضم مملكة نابل، فأرسلت إلى الباي رسالة لإعلامه بهذا وطلبت منه احترام النابوليتانيين لأنهم أصبحوا فرنسيين، وأن القنصل الفرنسي هو الذي يدير مصالح مملكة نابل بتونس⁽²⁾.

حاول ملك نابل "مورات جواشيم" (Joachim Murat)⁽³⁾ التفاوض مع الباي . فأرسل السيد "ريناتو دو مارتيني" (Renato de Martini)⁽⁴⁾؛ - ابن أخت أمين الباي "ماريانوستينكا" - للتفاوض مع الباي مستغلا هذه القرابة لتحقيق أهدافه⁽⁵⁾. لكن "حمودة باشا" رفض التفاوض بشأن الصلح مع نابل؛ وطلب من المفاوض أن يحضر له طلب خطي من الملك⁽⁶⁾.

وعلى اثر هذا اقترحت مملكة نابل منح الباي مائة وخمسون ألف بياستر من أجل عقد الصلح وتحرير العبيد النابوليتانيين الموجودين في تونس . استغل "حمودة باشا" إلحاح مملكة نابل على عقد الصلح فطالب بأربع مائة ألف بياستر، لكن عرضه قوبل بالرفض، ورغم ذلك بقي ممثل نابل مقيم عند القنصل الفرنسي بتونس⁽⁷⁾.

انطلقت المفاوضات من جديد بين الباي، ومملكة نابل بسبب أسر قراصنة تونس السيد "سيراتي" (Serati)، وهو أحد أثرياء مملكة نابل؛ سنة 1228هـ/ 1813م،⁽⁸⁾. فاستغل الباي هذا

(1) رسالة من "تاليرون" Talleyrand " إلى "دوفواز" ، باريس، 11 سبتمبر 1804. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص ص 438، 439.

(2) رسالة من "تاليرون" Talleyrand " إلى "دوفواز" ، باريس، 20 جوان 1806. أنظر: المصدر نفسه، ص 465.

(3) هو ملازم وعقيد في الجيش الفرنسي سنة 1794م، ساعد نابليون بونابرت في حروبه ضد الولايات الايطالية و مصر ثم أصبح حاكم باريس سنة 1804م، ثم أصبح ماريشال وأمير سنة 1805م، وبعدها ملكا لنابل من سنة 1808م إلى 1812م. أنظر: المصدر نفسه، ص 251.

(4) عمل كرئيس قسم في وزارة الشؤون الخارجية النابوليتانية، ثم قنصل نابل في تونس أنظر:

Nouvelle Biographie: Op.cit, T 13, p 392.

(5) رسالة من "بيلون" Billon " إلى دوق دو باسون Duc De Bassano ، تونس، 4 مارس 1812م. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 500.

(6) رسالة من "دوفواز" Devoize " إلى دوق دو باسون، تونس، 31 ماي 1812م. أنظر: المصدر نفسه، ص 502.

(7) رسالة من "بيون" Billon " إلى دوق دو باسون، تونس، 4 ماي 1813م. أنظر: المصدر نفسه، ص 507.

(8) رسالة من "بيون" Billon " إلى دوق دو باسون، تونس، 18 ماي 1813م. أنظر: المصدر نفسه، ص 508.

الوضع ليحصل على فدية كبيرة، وخاصة أنه يعلم بالتوتر القائم بين مملكة نابل، وفرنسا بسبب مطالبة مملكة نابل من فرنسا بوضع أعوان منهم في الموانئ التونسية، التي يصطادون فيها المرجان⁽¹⁾.

أ- عقد الهدنة بين تونس ومملكة نابل 1228هـ / 1814م:

- بعد خروج مملكة نابل عن حكم فرنسا سنة 1814م؛ طلبت من مفوضها بتونس السيد "رنا تو مارتينو"، ضرورة عقد الصلح مع الباي، هذا الأخير اضطر إلى عقد هدنة لمدة سنة في 26 مارس 1814م؛ بسبب توتر العلاقة مع الجزائر. ومن أهم بنود هذه الهدنة ما يلي:
- أن تكون مدة الهدنة سنة، تجرى خلالها المفاوضات حول السلام، وحول افتداء الأسرى.
 - يسمح للقنصل النابوليتاني بالإقامة بمدينة تونس خلال هذه السنة، ويتمتع بكامل الصلاحيات، التي يتمتع بها قناصل الدول الأخرى.
 - حرية تنقل السفن التجارية النابوليتانية، التونسية على موانئ كلا الطرفين.
 - أن تمتع تجارة نابولي بتونس، بجميع الامتيازات الممنوحة للدول الأوربية الأخرى.
 - السماح للسفن النابوليتانية بصيد المرجان في المياه التونسية.
 - إذا لم يتوصل الطرفان لإبرام الصلح، يمنح لقنصل نابولي مدة شهرين لمغادرة تونس مع رعاياه، ولا يجوز استئناف الحرب، إلا بعد انقضاء الأجل.
 - وفي الأخير تتعهد حكومة نابولي بتزويد الباي، بتسعة آلاف قلة مدفع - بونبة- من العيار الثقيل، وبآلاف من أكياس البارود، وبيع بعض شحنات أخشاب بناء المراكب، كما يعد السيد "مارتينو" باسم حكومته، بتقديم هدايا قنصلية، مكونة من أسلحة، وجواهر تبلغ قيمتها الإجمالية خمسين ألف قرش تقريبا.

ورغم هذه الهدنة الموقعة بين الطرفين، إلا أن معاهدة الصلح بين تونس، ومملكة نابل تأخرت إلى غاية 1816م، بعد وفاة الباي "حمودة باشا"⁽²⁾.

2- العلاقة مع صقلية:

ظلت هذه المملكة في حرب مع تونس نتيجة لنشاط القرصنة الممارس من كلا الطرفين،

(1) رسالة من "بيون" Billon " إلى دوق دو باسون ، تونس، 25 أكتوبر 1813. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 515.

(2) ألفونزو روسو: المرجع السابق، ص ص 299، 298.

حيث كانت جزيرة صقلية قبلة القراصنة التونسيين، واستمر هذا إلى غاية السيطرة الإنجليزية على جزيرة صقلية في بداية القرن التاسع عشر، لمحاصرة جيوش نابليون بونابرت أثناء حملته على مصر⁽¹⁾. لقد ظلت إنجلترا تحاول لعقد السلم بين تونس، وحكومة صقلية، حيث أرسلت بارجة انجليزية إلى حلق الوادي للتفاوض مع الباي حول إمكانية إبرام معاهدة صلح لصالح حكومة صقلية مقابل مائة ألف قرش إسباني في سنة 1226هـ/ جانفي 1812م، لكن الباي رفض هذا العرض؛ مبدياً رغبته في حضور قائد القوات الإنجليزية من صقلية للتفاوض معه مباشرة⁽²⁾.

إن مسعى الباي هذا قصد به تبرير موقفه لفرنسا المعادية لمملكة صقلية، فاستجاب الإنجليز لطلب الباي؛ وقدم الأميرال "سيدني سميث" (Sidney Smith) في أفريل 1812م إلى تونس وعندما بدأ التفاوض حول عقد الصلح بين مملكة صقلية وتونس؛ طرح الأميرال عرضاً مفاده أن يتم إبرام المعاهدة باسم إنجلترا. رفض الباي هذا العرض بحجة أن صقلية ليست مستعمرة إنجليزية وانتهى التفاوض بتوقيع هدنة بين صقلية وتونس مرهونة بمدة الوجود الإنجليزي في صقلية⁽³⁾.

لقد استفادت إنجلترا من هذه الهدنة بعد التوسط لصقلية، بتحقيق مكسبين يتمثلان في حصولها على اتفاق يقضي بحياض تونس عن الصراع القائم في أوروبا، وهذا سيقطع من حرية حركة السفن الفرنسية، وقبول الباي لتمويل القوات الإنجليزية بالقمح. كما أن هذه الهدنة مهدت لعقد معاهدة بين تونس، ومملكة صقلية في سنة 1227هـ/ 2 ماي 1812م⁽³⁾.

(1) Maggil. Thomas: Op.cit, p 77.

(2) رسالة من دوق دو باسون، تونس، 2 مارس 1812. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 500.

(3) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 296.

رغم أن إنجلترا أوفدت ممثلاً لها بتونس منذ سنة 1790م؛ وهو السيد "ماجرا" (P. Magra) إلى غاية 1804م، إلا أنها بقيت تسعى دائماً، لتحقيق مكانة أفضل من فرنسا داخل تونس، وذلك عن طريق، الوساطة لعقد الصلح بين مملكة صقلية، وتونس. أنظر: المرجع نفسه: ص 297.

المبحث الثاني:

علاقة حمودة باشا مع فرنسا:

إن علاقة تونس مع فرنسا تعتبر ضمن الأولويات في قصر البارود، كما لها أهمية كبرى بقصر فرساي، وهذا راجع للمكانة التي حظيت بها فرنسا داخل الإيالات المغاربية عموماً، ورغم هذا فإن العلاقات بين تونس مع فرنسا كانت تتأرجح بين السلم والتوتر ويتضح ذلك من خلال:

- الوفاق التونسي الفرنسي (1196 - 1205 هـ / 1782 م - 1790 م).

- تجديد معاهدات صيد المرجان.

- حمودة باشا يستغل ظروف الثورة الفرنسية.

- دور القنصل "دوفواز" (Devoize) في عودة السلم.

- موقف حمودة باشا من حملة نابليون بونابرت على مصر 1798 م.

- السلام المؤقت 1216 هـ / 1800 م.

- السلام الأخير في عصر الباي 1218 هـ / 1802 م.

1- الوفاق التونسي الفرنسي (1196 - 1205 هـ / 1782 م - 1790 م):

لقد عمل "علي باشا" على توطيد العلاقات مع فرنسا، لأنه كان محب للصالح، وهذا بمساعدة الوزير الأول "مصطفى خوجة"، وقد لعب القنصل "دي سيزيو" أيضاً دوراً في هذا السلام القائم بين البلدين. لكن في عصر "حمودة باشا"، أصبحت العلاقات أقل من الحسنة في السنوات التي سبقت الثورة الفرنسية⁽¹⁾، حيث وضع الباي مصلحة بلاده ضمن الأولويات، مما جعل القنصل الفرنسي "دي روشيه" (Du Rocher)، يبحث عن طرق بديلة للحفاظ على مكانة فرنسا بتونس، لرعاية مصالحها التجارية⁽²⁾.

إن اهتمام الباي بالقناصل الفرنسيين، والمبعوثين والرعايا الذين يعملون داخل تونس يعد خير دليل على الوفاق التونسي الفرنسي؛ وذلك على الأقل في العشرة الأولى من عصر الباي⁽³⁾.

(1) Paul Masson: *Histoire Etablissement* , Op.cit, p 592.

(2) رسالة من حكومة فرنسا إلى "دي سبارون" D'esparran "، فرساي، 17 أبريل 1785 م. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 146.

(3) نفسه، ص ص 9، 10.

لقد قام "حمودة باشا" منذ توليه وصاية العرش بتونس، بإشعار البلاطات الأوربية بذلك، وفي رسالة مؤرخة في 10 جويلية 1782م، إلى الملك الفرنسي؛ عبر له فيها أنه سيعمل للحفاظ على المعاهدات المبرمة، وأنه سيهتم بسلامة التجارة الفرنسية⁽¹⁾.

أما من جانب فرنسا فقد صرح الملك "لويس السادس عشر" (Lousse XVI)⁽²⁾. بأنه يرفض التعامل مع تونس بنفس الطريقة التي تمارسها، والمتمثلة في الاعتداء. لذا فإنه سيحذو حذو من سبقوه من ملوك فرنسا، ومعالجة شؤون فرنسا الخارجية بالسلم، بالبحث عن صداقة تونس⁽³⁾.

لذا فقد قام الملك الفرنسي ببعض الإجراءات ليؤكد مدى صدق سياسته اتجاه تونس . فقام بتعيين "دي روشيه" (Du Rocher)، لاختيار الهدايا التي سيقدمها "حمودة باشا"؛ بمناسبة اعتلائه للعرش. ومن بينها حذاء من الذهب مرصع بالأحجار الكريمة؛ كتب عليه اسمه، وميدالية ذهبية على شكل ساعة، كما منح الوزير "مصطفى خوجة" ساعة ذهب؛ إعترافا له على خدماته⁽⁴⁾.

2- تجديد معاهدة صيد المرجان:

تم تجديد معاهدة الصلح التي عقدت في آخر عصر "علي باشا" في 24 جوان 1781م، وهذا لتأكيد النية الحسنة من طرف البلدين، وقد عقدت هذه المعاهدة بين الشركة الملكية الأفريقية⁽⁵⁾ و "حمودة باشا" بحضور الوزير الأول "مصطفى خوجة" بقصر باردو بتاريخ 8 أكتوبر 1782م. وأهم ما جاء فيها تجديد الشركة لامتياز صيد المرجان على طول السواحل التونسية من جزيرة طبرقة غربا إلى طرابلس الغرب شرقا، مقابل ثلاثة عشر ألف بياستر⁽⁶⁾. ثم سافر "دي روشيه" في

(1) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 139.

(2) تولى ملك فرنسا، وهو في العشرين من عمره سنة 1774م، إلى غاية جانفي 1793م، أين تم إعدامه، عن عمر لا يتجاوز 39 سنة. أنظر: المزارى بن عودة: المصدر السابق، ص 72.

(3) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 146.

(4) رسالة من حكومة فرنسا إلى "دي سبارون"، فرساي، 23 أبريل 1786. أنظر: المصدر نفسه، ص 154.

(5) هذه الشركة تكونت في مرسلينا تحت رعاية الملك الفرنسي لويس السادس عشر 1774 - 1791م، بمبلغ مليون ومائتي جنيه. أنظر: Venture De Paradis: Op.cit, p 18.

(6) تضمنت معاهدة الامتياز 1790م، ثلاثة عشر بنداً تنص على تجديد المعاهدة السابقة؛ إضافة إلى إلغاء الرسوم الجمركية المفروضة على المرجان عند استخراجها من شواطئ تونس. وتم تحديد مدة الامتياز هذا بستين قابلة للتجديد، كما طالبت الشركة بحقوق العمال الذين يستخرجون المرجان بتوفير منازل لهم مثلما هو الحال للفرنسي، والعمل على ضمان أمن السفن في موانئ تونس. للاطلاع أكثر على نص المعاهدتين أنظر:

إجازة وخلفه "ديسبارون" (D'Esparron) لتسير شؤون القنصلية الفرنسية بتونس⁽¹⁾. كما قامت الشركة الملكية الأفريقية بتجديد هذه المعاهدة، في سنة 1205هـ/ جوان 1790م بنفس الشروط السابقة⁽²⁾.

3- حمودة باشا يستغل ظروف الثورة الفرنسية:

لقد بدأت العلاقة بين تونس وفرنسا تتوتر ابتداءً من عام 1199هـ/ 1785م، أين بدأ التقلب في سياسة الباي، وذلك عندما بدأ يشتكي أن فرنسا لا تقدم الهدايا الكافية، حيث ذكر القنصل "دي روشيه" في رسالة إلى حكومته أن مصالح فرنسا بتونس بدأت تتأثر، ومن الواجب إصلاح الأمور مع باي تونس⁽³⁾.

لكن "حمودة باشا" لم يستطع إخفاء عناده وطمعه إزاء التقلبات التي عرفتها فرنسا أثناء قيام الثورة بها من سنة 1204هـ/ 1789م إلى غاية سنة 1213هـ/ 1798م⁽⁴⁾. فقرر "حمودة باشا" تقليد الجزائر في عدائيتها لفرنسا⁽⁵⁾ حيث وجد فيها فرصة سانحة لقطع المعاهدات التي كانت بين البلدين، وهذا ما أثر في سير العلاقات بين البلدين⁽⁶⁾.

ولعل من أبرز هذه التقلبات التي استغلها "حمودة باشا"، هي سقوط النظام الملكي في فرنسا سنة 1206هـ/ 1791م، حيث أرسل قراصنته لمهاجمة السواحل الفرنسية معتبرا نفسه غير مرتبط بأي ميثاق مع الحكومة الفرنسية الجديدة⁽⁷⁾، مما جعل هذه الحكومة ترسل بارجة حربية تحمل تعليمات إلى القنصل الفرنسي بتونس من طرف السيد "دي شاتانوف" (Dechateauf)، للتفاوض بهذا الشأن، وتطلب من "حمودة باشا" الاعتراف بالعلم الفرنسي الجديد⁽⁸⁾.

(1) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 239.

(2) E, Rouard De Card: Op.cit, p 203.

(3) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 11.

(4) نفسه، ص 10.

(5) Paul Masson: Op.cit, p 592.

(6) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 10.

(7) بعد سقوط النظام الملكي في فرنسا 1791م، حلت محله الإدارة العرفية، والتي أطلق عليها اسم الكونفانسيون. أنظر: عزيز

سامح ألتز: المرجع السابق، ص 374.

(8) Paul Masson: Op.cit, p 592.

وقد أبدى الباي احترامه لفرنسا، لكنه رفض في الوقت ذاته البث في قضية الاعتراف بالعلم الفرنسي الجديد ذي الألوان الثلاثة (أزرق، أحمر، أبيض). حتى يتأكد من موقف الجزائر، ليتحاشى هجومهم على السفن الفرنسية في مياه تونس . لكن في الواقع هو عدم قدرة "حمودة باشا" في البث بأمر يتعلق بقانون دولي من شأنه أن يلحق ضررا بمصالح الجزائر، أو يعكر علاقته معها⁽¹⁾.

4- دور القنصل "دوفواز" (Devoize) في عودة السلم:

إن التوتر القائم بين البلدين بسبب عدم اعتراف الباي بالنظام الفرنسي الجديد، جعل هذه الأخيرة ترسل سنة 1791م؛ فرقة بحرية على رأسها السيد "دوفواز" (Devoize)، كمستشار وقنصل عام مكلف بالعلاقات الخارجية؛ للتفاوض مع الباي من جهة، واستعراض القوة وتوفير الأمن للمفاوضات من جهة ثانية. في ظل ظهور القوات الإنجليزية، بالحوض الغربي للمتوسط.

استمرت المفاوضات بين "دوفواز" و الباي فترة زمنية استغلها؛ هذا المستشار في كسب تأييد الرعايا الفرنسيين الموجودين بتونس للحكومة الفرنسية الجديدة . كما نجح في إقناع الباي بالظرف الذي تمر به فرنسا، وبهذا نجح في إعادة السلام بين البلدين دون عقد اتفاق نهائي⁽²⁾.

إضافة لهذا منح "دوفواز" (Devoize) ثقة الفرنسيين بتعيينه قنصلا بتونس سنة 1207هـ/ 1792م؛ في مكان السيد "دي شاتانوف". وهذا بعد مساعي حثيثة بذلها كل من الباي و"مصطفى خوجة"؛ الذي أشاد بقدرات وحماس "دوفواز" لممارسة المهام القنصلية . للحفاظ على الصداقة بين البلدين⁽³⁾، كما أن "حمودة باشا" بعث برسالة إلى الملك الفرنسي "لويس السادس عشر" طالبا منه إبقاء السيد "دوفواز" (Devoize) كقنصل لفرنسا داخل تونس⁽⁴⁾.

إن هذه الأعمال تدل أن السلطة في تونس كان لها دور بشأن تعيين القناصل الأوربيين المعتمدين بالإيالة، خاصة إذا كان هذا القنصل يستجيب لمطالبهم؛ و المتمثلة أساسا في الحصول على المال والهدايا؛ وخير دليل هو استجابة "دوفواز" (Devoize) لدفع سبعة وعشرين ألف قرش⁽⁵⁾

(1) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص ص 259 - 263.

(2) Gabriel. H: **Histoire Des Colonies Française**, 3vol, librairie plon, paris S. D, T 3, p 383.

Ibid.

(4) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 209.

(5) رسالة من "حمودة باشا" باي تونس إلى لويس السادس عشر، تونس، 2 جوان 1792م. أنظر: أ. بلانتي: المصدر نفسه،

تونسي لاسترجاع ثلاث فرقاطات استولى عليها بعض القراصنة التونسيين سنة 1791م⁽¹⁾. ورغم البراعة السياسية للقنصل "دوفواز"؛ إلا أنه لم ينجح في عقد معاهدة مع الباي. فما هي الأسباب التي عطلت عقد المعاهدة؟.

إن الظروف التي تمر بها فرنسا هي التي حالت دون عقد الصلح مع تونس . فعلى الصعيد الداخلي تم إعدام الملك "لويس السادس عشر" في سنة 1208هـ/ 21 جانفي 1793م. وعلى الصعيد الخارجي فقد قامت إنجلترا بفرض حصار على ميناء طولون لمدة أسبوعين⁽²⁾.

إضافة إلى هذا تم عزل القنصل "دوفواز" (Devoize)، الذي قضى شوطا كبيرا في إحلال السلام بين البلدين وتعيين السيد "لويس د. هيركيلي" (Louis- D'Herculais)⁽³⁾، في نفس السنة بدلا منه. وقد كان شخصا غير مرغوب فيه داخل تونس نظرا لتصرفاته، مما أجل عقد المعاهدة⁽⁴⁾.

إن الظروف التي مرت بها فرنسا عطلت عقد المعاهدة ، لكنها لم تلغيها نهائيا، حيث كلف "دوفواز" (Devoize) مجددا لإبرام المعاهدة مع الباي، من قبل لجنة شعبية للسلام . ففي سنة

1210هـ/ 25 ماي 1795م؛ نجح "دوفواز" في إبرام الصلح مع الباي بتوقيع معاهدة مكاملة للمعاهدة التي عقدت في جوان 1790م، وأهم ما جاء فيها اتفاق الطرفان على تقليص المجال الجغرافي لقراصنة تونس باتجاه الشواطئ الفرنسية والتي حدد بثلاثين ميلا من السواحل التونسية⁽⁵⁾.

ولدعم هذه المعاهدة أرسل "حمودة باشا" إلى باريس سفارة برئاسة "محمد خوجة"⁽⁶⁾، في شهر شعبان 1211هـ/ جانفي 1797م؛ حاملا معه مجموعة من الهدايا و رسالة من الباي إلى الحكومة الفرنسية يطلب فيها إعادة "دوفواز" (Devoize) إلى منصبه بتونس، بعد استدعائه إلى⁽⁷⁾

(1) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 21.

(2) فريمو جاك: فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران، ترجمة هاشم صالح، ط1، دار قرطبة، ب م 1991، ص 18.

(3) هو لويس أليكس دالوا "Louis-Alexandre d'Herculais" ولد في سرنه 1754م عمل في الجيش الفرنسي وخاصة في البحرية. رافق الكونت "ديكسبيلي" "d'Expilly" إلى الجزائر سنة 1784م للتفاوض حول السلم ثم أصبح مفوض فرنسا في تونس أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 24.

(4) Gabriel. H: Op.cit, p 283.

(5) E. Rouard De Card: Op.cit, pp 202, 203.

(6) أحد وزراء حمودة باشا تولى منصب كاهية بنزرت في عصر علي باي، ثم أمين للأسلحة في حلق الوادي، ثم أرسل كسفير إلى فرنسا وإنجلترا. أنظرا لما يتمتع به من حنكة أنظر: رشاد الإمام: المرجع السابق، ص 132.

(7) رسالة من "حمودة باشا" باي تونس إلى المدير الخاص للأمة الفرنسية بتونس، ديسمبر 1796. أنظر: أ. بلانتي: المصدر

السابق، ج 3، ص ص 308، 309.

فرنسا نتيجة الخلاف الذي نشب بينه وبين مبعوث الحكومة الفرنسية المكلف بمراقبة القناصل في شمال الإيالات المغاربية السيد "لويس د.هيركليي" (Louis D'Herculais)، والذي اتهم القنصل "دوفواز" (Devoize) بمعاداته للجمهوريين؛ وأنه موالي للملكيين في فرنسا⁽¹⁾.

كان هدف "حمودة باشا" من هذه السفارة تقوية و تعزيز علاقته مع الحكومة الفرنسية⁽²⁾ للحصول على بعض المساعدات منها خاصة الأسلحة . وفي نفس السنة أرسل الباي سفارة ثانية برئاسة "مصطفى أغا"؛ حمل رسالة شكر منه إلى الحكومة الفرنسية، مع بعض الهدايا لتجديد روابط الصداقة بين البلدين⁽³⁾.

5- موقف حمودة باشا من حملة نابليون بونابرت على مصر 1213هـ/ 1798م:

بعث السلطان العثماني "سليم الثالث" ثلاثة رسائل إلى الإيالات المغاربية (طرابلس الغرب، تونس، الجزائر)؛ وذلك بعد حملة نابليون على مصر في جويلية 1798م، لتحذيرهم من الفرنسيين؛ وإعلامهم بأنه سيرسل لهم فرمان يجب العمل به لمواجهة فرنسا⁽⁴⁾.

وصل فرمان العثماني، في 20 أكتوبر 1798م، الذي ورد فيه أن الباب العالي قطع علاقته مع فرنسا؛ ويجب على الإيالات المغاربية قطع علاقاتها مع فرنسا، ومنع المؤونة عنها وحرصهم بالاستيلاء على سفنها، و إرسال قواتهم البحرية للتوحد مع القوات العثمانية⁽⁵⁾.

وعلى إثر هذا قام الباي بنقض الصلح مع فرنسا في 17 رجب 1213هـ/ 25 ديسمبر 1798م⁽⁶⁾، لكنه لم يلتزم بالأمر القاضي بانتزاع أملاك التجار الفرنسيين المقيمين بالإيالة، أو إرسال مراكبه لمطاردة السفن الفرنسية، متحججا بقوله: «...إن الخلطة بين أهل تونس والفرنسيين في المتاجر كثيرة جدا لا يمكن فصلها إلا بعد زمن يطول...»⁽⁷⁾.

(1) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 309.

(2) نفسه، ص 324.

(3) رسالة من "دوفواز" "Devoize" إلى "تاليرون" Talleyrand"، تونس، 25 سبتمبر 1798م. أنظر: أ. بلانتي: المصدر نفسه، ج 3، ص 362.

(4) رسالة من "دوفواز" إلى "تاليرون"، تونس، 30 أكتوبر 1798م. أنظر: أ. بلانتي: المصدر نفسه، ص 365 - 367.

(5) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 45.

(6) زهير الذواودي: المرجع السابق، ص 47.

(7) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 45.

واكتفى الباي بإنزال العلم من القنصلية الفرنسية بتونس⁽¹⁾. رغم احتجاجات سكان تونس على وجود الفرنسيين بعد الحملة على مصر، إلا أن الباي عامل القنصل الفرنسي باحترام، وطلب منه حرية الاختيار إما البقاء؛ أو الم غادرة بكل أمان⁽²⁾، وتعهده له بحماية ممتلكات الفرنسيين في غيابه، حتى قال بعضهم «...نحن الآن بدون قنصل خير منا بوجود قنصل...»⁽³⁾.

وفي هذا الصدد ذكر القنصل "دوفواز" (Devoize) في رسالة إلى وزير الشؤون الخارجية "تاليران" (Charles-Maurice de Talleyrand)⁽⁴⁾ يقول فيها: «...إن الداوي والباشا لم يصدر منهما أية استعدادات لأخذ جانب السلطان في قضية لا تعنيهم كقضية مصر، وهم لا يتكلمون فيما يختص برغبتهم في عقد اتفاقيات مع فرنسا رغم مخالفتهم لأمر السلطان بهذا السلوك، وهذا ما يدل على تمام معرفتهم لحقيقة استقلالهم...»⁽⁵⁾.

وقد ماطلت الإيالات المغاربية الثلاث (طرابلس الغرب، تونس، الجزائر)، كثيرا في إعلان الحرب ضد فرنسا، ثم مالبت أن أبرمت معها بصفة منفصلة اتفاقات هدنة غير محددة، ولم تقبل بإعلان الحرب مجددا ضدها إلا بضغط وتهديد قويين من طرف الباب العالي وانجلترا⁽⁶⁾.

6- السلام المؤقت 1216هـ / 1800م:

تغاضى "حمودة باشا" عن قرارات الباب العالي، التي تلزمه بقطع العلاقة مع فرنسا، و قام

(1) Gabrial, H: Op.cit, p 384.

(2) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 46.

(3) هي حكومة الإدارة التي أقامتها الثورة الفرنسية في ديسمبر 1795م، إلى غاية تولي نابليون الحكم سنة 1799م. أنظر: أحمد سعيد الطويل: المرجع السابق، ص 202.

(4) هو شارل موريس تاليران بيريجورد (Charles-Maurice de Talleyrand-Périgord) ولد في باريس في 13 فيفري 1754م، و توفي في 17 ماي 1838م. و سنة 1792م عين سفيراً لفرنسا في لندن . وعين أربعة مرات وزيرا للشؤون الخارجية الفرنسية، و ذلك من 19 جويلية 1797م إلى 19 جويلية 1799م. ثم من 22 نوفمبر 1799م إلى 17 جوان 1807م. ثم من 13 ماي إلى 10 سبتمبر 1814م، و في الأخير من 8 جويلية 1815م إلى 23 سبتمبر 1816م. أنظر:

Nouvelle Biographie: Op.cit, pp 809 - 810.

(5) نقلا عن أحمد سعيد الطويل: المرجع السابق، ص 200.

(6) تذكر المصادر الغربية أن الجزائر وتونس لم تقبلا بإعلان الحرب مرة ثانية ضد فرنسا، أو أن تلغي اتفاقات السلام والهدنة التي أبرمتها مع فرنسا، إلا بعد أن تم القبض على مبعوثيهما اللذان كانا قد ذهبا إلى القسطنطينية للتبشير بهاتين الاتفاقيتين، ورفض تقبل هداياهما من طرف السلطان ومصادرة أموال رعايا بلديهما المقيمين هناك. للإطلاع أكثر. أنظر:

Georges Grosjean: La Maitrise De La Méditerranée et La Tunisie Pendant La Révolution Française, Paris 1914, pp 257, 258.

بعقد هدنة بتاريخ 7/هـ/1216 أوت 1800م، مع القنصل الفرنسي "دوفواز" "Devoize"، المكلف من طرف حكومة القنصلية⁽¹⁾، والتي تنص على:

- 1- تحديد يوم 9 أوت؛ لوقف كل النزاعات بين البلدين
 - 2- أن يصدر الباي أمرا بعدم تعرض قراصنة الإيالة للسفن الفرنسية، وإعادة كل ما سلب من سفنهم، كما يتعهد القنصل "دوفواز" باستصدار أمر من حكومة القنصلية الفرنسية، وبالخصوص للسفن الكورسيكية، للكف عن الاعتداء على السفن التونسية.
 - 3- إعادة كل طرف للسفن التي قد يستولى عليها بعد هذا التاريخ.
 - 4- حرية انتقال السفن بأمان في موانئ البلدين، حتى سفن الدول التي دخلت تحت وصاية فرنسا
 - 5- في حالة حرق بنود الهدنة؛ يتم الإعلان عن عودة الحرب شهرين قبل بدايتها⁽²⁾.
- حاولت فرنسا من خلال هذه الهدنة ضمان أمن سفنها في الحوض الغربي للمتوسط، وأن تحصل على اعتراف الباي بالممالك - نابل والبندقية - اللتان أصبحتا تحت سلطة فرنسا، لكن هذه الهدنة لم يكتب لها النجاح بسبب ضغط الباب العالي على "حمودة باشا". وإعلان إنجلترا الحرب على فرنسا، وطرده جيوشها من جزيرة مالطا 1800م⁽³⁾.

7- السلام الأخير في عصر الباي 1219هـ/ 1802م:

على إثر الوفاق العثماني الفرنسي في خريف 1801م، بعد انسحاب نابليون من مصر. بدأت فرنسا تحاول استرجاع مكائنها في تونس، بمجموعة من الشروط التي وضعت كأساس لعقد الصلح معها؛ والمتمثلة في:

- 1- تجديد كل المعاهدات السابقة والمصادقة عليها.
 - 2- أن تحض فرنسا بمكانة مميزة بتونس⁽⁴⁾.
- وفي 21 شوال 1216 هـ / 23 فيفري 1802م؛ أمضيت المعاهدة بين البلدين، وأبرز ما جاء فيها:

(1) تشكلت في 10 نوفمبر 1799م، بعد الانقلاب الذي قاده نابليون بونابرت - انقلاب برومير - ضد حكومة الإدارة التنفيذية. أنظر: زينب عصمت راشد: المرجع السابق، ص 175.

(2) J. J. Marcel: Op.cit, p 198.

(3) ألفونصو روسو: المرجع السابق، ص 269.

(4) رسالة من "تالليون" "Talleyrand" إلى "دوفواز" "Devoize"، باريس، 9 ديسمبر 1801. أنظر: أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 425.

- 1- يتم تجديد جميع المعاهدات القديمة القائمة بين إيالة تونس والجمهورية الفرنسية، وعلى الأخص معاهدة 1742م.
 - 2- إبقاء كل الامتيازات التي كانت تتمتع بها فرنسا في تونس، وأن تحض باستثناء خاص دون غيرها من الدول الأخرى، لأنها أكثر نفعا لتونس.
 - 3- لا يمنع القنصل الفرنسي من التوجه إلى ميناء حلق الوادي لاستقبال السفن الفرنسية.
 - 4- يعطى للقنصل الفرنسي حق تغير و اختيار المترجم.
 - 5- تحديد الرسوم الجمركية على السلع الفرنسية التي تدخل ميناء تونس ب 3 % ولا يحق لأمناء الجمارك أن يطالبوا بالرسم الجمركي "عينا" بل يكتفون بتحصيله بالعملة المتعامل بها في تونس . وستعامل الجمهورية الفرنسية التونسيين بنفس المعاملة.
 - 6- في حالة الحرب بين فرنسا ودولة ما، فان الدولة المحايدة والتي هي صديقة لتونس ستنقل البضائع الفرنسية إلى تونس ولن تدفع سوى 3 % من الرسوم، والمعاملة بالمثل إذا دخلت تونس في حرب مع دولة ما.
 - 7- إن السماسرة اليهود وغيرهم من الأجناس المقيمين في تونس تحت خدمة التجار الفرنسيين هم في حماية الجمهورية الفرنسية، وهؤلاء السماسرة عندما يجلبون بضائع إلى تونس يدفعون الرسم الجمركي تباعا للدولة التي يتبعونها من حيث الجنسية والرعاية، وفي حالة النزاع بين هؤلاء وطائفة أخرى فإن القنصل الفرنسي سينظر في قضيتهم.
 - 8- إخلاء سبيل كل الأسرى الفرنسيين المتواجدين في تونس، إلا من أسر وهو في خدمة دولة معادية لتونس.
 - 9- حماية القنصل الفرنسي في حالة الحرب بين تونس و فرنسا، وتعطى له مهلة ثلاثة أشهر لتدبير شؤونه، ثم يؤذن له بالرحيل من تونس⁽¹⁾.
- بعد هذه المعاهدة انتهجت فرنسا دبلوماسية جديدة بتونس، حيث لم تقدم للباي الهدايا كما جرت العادة عند إبرام الصلح، بل طلبت من الباي الاعتراف بالدويلات الإيطالية؛ التي أصبحت تابعة لها نتيجة توسعات نابليون، لكن "حمودة باشا" رفض بحجة أنه يرى ضرورة عقد معاهدات مع هذه الدويلات أولا. وأنه سيحذو حذو الدول الأخرى بشأن هذا الأمر⁽²⁾.

(1) دفتر خط همايون، العدد 14081.

(2) Maggil, Thomas: Op.cit, pp 429, 430.

المبحث الثالث:

علاقة حمودة باشا مع إسبانيا ونتائج علاقاته الخارجية.

بدأت إسبانيا في نهاية القرن الثامن عشر؛ تطوي مرحلة الصراع القائم مع البلاد المغاربية عموماً، فاستغل الباي هذه المساعي الإسبانية لعقد الصلح، حتى يحقق أهدافه المتمثلة في الحصول على عروض مشرفة، تساهم في اتمام إنجازاته، ومشاريعه داخل تونس، و يتضح ذلك من خلال:

- التقارب التونسي الإسباني في نهاية القرن 18م.
- الوساطة الجزائرية لإبرام الصلح بين تونس وإسبانيا.
- أسباب تأخر الصلح بين تونس وإسبانيا.
- المفاوضات الناجحة.
- معاهدة السلام بين تونس وإسبانيا 1206هـ / 1791م.
- التوتر بعد السلام.
- ديون القنصل "سيقي (seguí) بتونس.
- إنجازات حمودة باشا.

1- التقارب التونسي الإسباني في نهاية القرن 18م:

قامت إسبانيا في أواخر القرن الثامن عشر بعقد سلسلة من المعاهدات، مع الإيالات المغاربية العثمانية والمغرب الأقصى، كانت آخرها مع تونس 1791م. هذا التوجه الجديد في سياسة إسبانيا، يهدف إلى الحد من نشاط القرصنة المغاربية؛ التي عطلت مصالحها التجارية⁽¹⁾.

ظهر هذا التغيير بعد تولي الوزير الأول "فلوريدا بلانكا" (Floridablanca)؛ من 1777م إلى غاية 1792م. أي في عهد الملك "كارلوس الثالث"؛ وابنه "كارلوس الرابع". حيث كان يميل لسياسة المهادنة؛ فحقق السلام مع سلطان المغرب الأقصى "محمد بن عبد الله" سنة 1782م⁽²⁾. ومعاهدة مع الدولة العثمانية في نفس السنة، ومع طرابلس الغرب سنة 1784م، ومع الجزائر 1786م. ولم يتبق لها إلا تونس⁽³⁾.

(1) نور الدين الحلاوي: المرجع السابق، ص 87.

(2) يحي بوعزيز: إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس، في م. د. ت، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1988، العدد 4، ص 53.

(3) يحي بوعزيز: إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس، المرجع السابق، ص 54.

فطالبت إسبانيا من داي الجزائر "محمد بن عثمان باشا"، التدخل والتوسط لإبرام الصلح بين إسبانيا وتونس⁽¹⁾.

2- الوساطة الجزائرية لإبرام الصلح بين تونس وإسبانيا:

طلبت إسبانيا من داي الجزائر "محمد عثمان باشا"؛ التوسط لعقد الصلح مع تونس⁽²⁾. حيث أرسل الكونت "فلوريدا بلانكا" (Floridablanca) إلى "حسن وكيل الحرج"⁽³⁾ رسالة في 1785م؛ يخبره فيها أن الملك الإسباني - كارلوس الثالث - يطلب منه أن يبذل كل جهده لإبرام هذا الصلح. كما أبدى "مصطفى خوجة" استعداد تونس لعقد السلام مع إسبانيا، عندما أرسل رسالة إلى "حسن وكيل الحرج" في 25 ربيع الأول 1200هـ / 20 جانفي 1786م؛ يخبره فيها أنه سمع وصول المبعوث الإسباني "دي سيبلي" (Désclilly)؛ إلى الجزائر للتفاوض من أجل الصلح بين الجزائر وإسبانيا، وأنه يتنى قدومه إلى تونس لنفس الغرض⁽⁴⁾.

في 3 فيفري 1786م؛ وصل السيد "بازليني" (basselini) إلى تونس قادما من الجزائر، للتفاوض مع الباي، وتمكن من عقد هدنة مشرفة - وقعت بدون أي شرط - لمدة ستة أشهر⁽⁵⁾؛ ابتداء من أول مارس 1786م، وعلى إثر هذا أرسلت الجزائر بعثة إلى تونس لإقامة الصلح بين البلدين، حسب ما جاء في رسالة "علي برغل"، إلى "فلوريدا بلانكا" 19 مارس 1786م⁽⁶⁾.

3- أسباب تأخر الصلح بين تونس وإسبانيا:

نظرا لحرص إسبانيا على ضرورة عقد الصلح مع تونس، قامت بإرسال مفاوض ثاني للإيالة هو السيد "خوان صولير" "juan soler"؛ الذي قام بإلغاء الهدنة السابقة، باعتباره المبعوث الرسمي لإسبانيا للتفاوض من أجل السلام. وأن "بازليني" لا يملك المؤهلات لتوقيع الهدنة، هذا ما أدى إلى

(1) يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدير (1780-1798)، د. م. ج، الجزائر 1993، ص 60.

(2) عمار بن خروف: علاقات الجزائر السياسية مع تونس، المرجع السابق، ص 391.

(3) يمثل وكيل الحرج أحد وزراء الدولة الجزائرية العثمانية، وهو مكلف بكل الأمور البحرية. أنظر: أحمد الشريف الزهار: مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، دار البصائر، الجزائر 2008، ص 83.

(4) يحي بوعزيز: المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف، المرجع السابق، ص 61-65.

(5) ألفونزو روسو: المرجع السابق، ص 258.

(6) يحي بوعزيز: إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس، في د. ت. م، وهران 1987، العدد 1، ص 66.

تعطيل النتائج التي استطاعت الجزائر أن تحققها مع "حمودة باشا"⁽¹⁾.

وفي غضون ذلك حاول الباي استغلال هذا الوضع لفرض شروطه على إسبانيا، حيث طالب أن تكون المعاهدة مع تونس على نفس شاكلة معاهدة إسبانيا مع الجزائر . على أن يتأكد مسبقا من الهدايا التي يرسلها البلاط الإسباني إليه، وضبط الرسوم الجمركية لتجارة إسبانيا بالموانئ التونسية. هذه الشروط أعاققت مهمة "خوان صولير"، وبدأ "فلوريدا بلانكا" يبحث عن مفاوض جديد⁽²⁾.

4- المفاوضات الناجحة:

تم اختيار مفاوض ثالث هو السيد "بيدرو سوتشيتا" (Pedro suchita)⁽³⁾، الذي قدم من الجزائر إلى تونس في 21 فيفري 1787م، رفقة أمينه "فانتورا بوزاران" (ventura buzàran). وخلال اللقاء الأول مع الباي استطاع تمديد الهدنة إلى غاية شهر ديسمبر من نفس السنة، ومع ذلك رفض الباي التفاوض لعقد السلام النهائي؛ كما أن البلاط الإسباني لم يظهر استعدادة لقبول الشروط المالية التي فرضها "حمودة باشا"، والمقدرة بأربعة مائة ألف بياستر.

إن رفض إسبانيا لدفع هذا المبلغ؛ كان بضغط من الجزائر التي رفضت أن تحض تونس بنفس مكانة الجزائر، التي تمثل رأس القوة العثمانية في شمال إفريقيا، وتعتبر تونس إمارة خاضعة لقراراته السياسية. لكن "بيدروسوتشيتا" (Pedro suchita) استطاع أن يعمل على تخفيض المبلغ من أربعة مائة ألف إلى مائة ألف بياستر؛ وهذا يدل على إبداء السلطة التونسية لنية الصلح.

استقبل بلاط مدريد هذا العمل برضا كبير، مما أدى في الأخير إلى عقد معاهدة مفتوحة سنة 1789م، بسبب تخوف "فلوريدا بلانكا" من التوتر الذي قد يحدث مع الجزائر، لأن تونس حظيت بمعاهدة أفضل منها . كما أنه حاول أن يحصل من خلال هذه المعاهدة على نفس الامتيازات الفرنسية بتونس، وأدرج بند سري خاص بالحقوق الجمركية المفروضة على السلع الإسبانية بتونس⁽⁴⁾.

Chakib Benafri: **Las Relacioes Entre Espana, El Jmperio Otomano Regencias y Las Berberisccas En el Siglo XVIII (1759- 1792)**, cataedrático de historiria moderna universidad complutense de madrid 1994, pp 599, 600. (1)

Ibid, pp 601, 602, 603. (2)

(3) يتمتع بمعرفة شاملة بتقاليد الايالات المغاربية، لأنه متخصص في التجارة معهم، إضافة إلى إتقانه اللغة العربية، وعمل في

الجزائر كأمين للكونت "دي اكسبلي" (Désoplly) أنظر: Chakib Benafri: Ibid, p 604.

Ibid, pp 606, 607, 608, 609. (4)

أثناء مراجعة النص العثماني للمعاهدة في مدريد من طرف كاتب الدولة "باسكوال استيفاني" (Pascual Estefani)، تبين له أن "بيدروسوتشيتا" (Pedro Suchita) أخطأ في تقدير محتوى البند

السري؛ والبند "11"⁽¹⁾ فطلب من "فلوريدا بلانكا" توضيح هذا لتونس لتجنب توتر العلاقة معها وفي 20 أوت 1789م، عاد "بيدروسوشيتا" (Pedro Suchita) إلى تونس لتصحيح هذه المغالطة ثم أغلقت معاهدة السلام بين تونس وإسبانيا بشكل نهائي.

5- معاهدة السلام بين تونس وإسبانيا 1206هـ/ 1791م:

صادق "حمودة باشا" على نص المعاهدة بتاريخ 18 فيفري 1791م، وفي 19 جويلية من نفس السنة وقع عليها الملك الإسباني "كارلوس الرابع"، وعين "بيدروسوشيتا" قنصلا عاما بتونس. وتم تسليم المبلغ المتفق عليه لعقد السلام، ومجموعة من الهدايا المتكونة من زوجين من المسدسات المزخرفة بالذهب، ومجموعة جواهر وساعات ذات قيمة كبيرة.

وقد تضمنت هذه المعاهدة ستة وعشرون مادة، وكانت تهدف في مجملها إلى ضرورة تنظيم العلاقة البحرية بتحديد طرق وأساليب التعامل؛ للحد من نشاط القرصنة التونسية، واتخاذ إجراءات لمعاقبة القرصنة، على أن تتمتع إسبانيا بنفس الحقوق والامتيازات الممنوحة للرعايا الفرنسيين. وفي المقابل تم تخصيص ثلاث موانئ إسبانية للتجار التونسيون وهي ميناء (مالقة؛ و أليكانت؛ و برشلونة)، مع دفع 10% كرسوم جمركية، غير أن إسبانيا تعهدت في البند السري بتخفيض الرسوم على سلع تونس فقط إلى 3%.

كما نصت الاتفاقية على وضع قوانين تسليم السلع، والاعتراف بجوازات السفر الخاصة بالبحرية الإسبانية، التي يوزعها القنصل الإسباني بتونس على التجار والقرصنة التونسيين. ويحق للقنصل تعيين المترجم؛ والمكلف بجمع الضرائب من الرعايا الأسبان بتونس بكل حرية، وله الحق أيضا في رفع العلم الإسباني فوق مبنى القنصلية؛ وحق الأسبان في ممارسة الشعائر الدينية، وإلزام كل رؤساء موانئ إيالة بتحية السفن الحربية الإسبانية بنفس عدد الطلقات التي يستقبل بها الأسطول الفرنسي. وتم الاتفاق في الأخير، أنه في حالة وقوع حرب بين البلدين، فإن القنصل⁽²⁾

(1) يتعلق البند السري بتحديد إسبانيا للمواد التي تحتاجها من تونس وهي (الشمع؛ الزيت، الجلود، الصوف)، والتي ستخضع ل 3% كالرسوم الجمركية، أما باقي المواد التي تجلب من مناطق أخرى فإنها ستخضع لرسوم جمركية 10%، أما المادة 11 فهي متعلقة بمعاينة التونسيين الذين يستعملون سفن معادية لإسبانيا أنظر: Chakib Benafri: Op.cit, p 610.

(2) Ibid, pp 611- 615.

الإسباني تمنح له ثلاثة أشهر حتى يتمكن من ضبط شؤون رعاياه داخل تونس، ثم المغادرة إلى إسبانيا دون أن يتم التعرض لهم بأي سوء⁽¹⁾.

6- عودة التوتور بعد معاهدة السلام:

لقد تعمد "حمودة باشا" على تعكير العلاقة مع إسبانيا بسبب رداءة الهدايا التي أرسلت إليه، حيث أمر بالقبض على بعض الرعايا الأسبان دون إعلان مسبق بالقطيعة في سنة 1802م، هذا جعل إسبانيا التي تعاني من مشاكل مع فرنسا أن ترضخ لمطالب الباي وأرسلت له ثمانين ألف بياستر وسنكين شراعيين زود كل واحد منها بستة وعشرون مدفعا مع السيد "سيقي" (segui)؛ الذي عين قنصلا بتونس ابتداء من سنة 1804م. فقام الباي بإطلاق سراح الرعايا الأسبان⁽²⁾.

7- ديون القنصل الإسباني "سيقي" (Segui) بتونس:

منذ أن تولى الملك "جوزيف" شقيق نابليون عرش إسبانيا سنة 1222هـ / 1807م⁽³⁾؛ والقنصل الفرنسي بالإيالة هو الممثل الرسمي للملك، إلا أن الجماعة العسكرية المعارضة للملك في اشبيلية أبقّت على "سيقي" كممثل خاص بهم. وبعد المشاكل التي أثّرت حوله بسبب تماطله في تسديد ديون بعض أثرياء تونس⁽⁴⁾، الذين اشتكوا للباي بخصوص تأخره في الدفع. تم عزل القنصل "سيقي" سنة 1807م، وحل مكانه القرصل "أرنولد سولير" (Arnoldo Soler)؛ الذي أعلم حكومته بالمشكلة التي أحدثتها ديون "سيقي" بتونس⁽⁵⁾.

لقد أكد "أرنولد سولير" (Arnoldo Soler) في رسالة أخرى بتاريخ 9 أكتوبر 1808م؛ إلى حكومته على ضرورة تسديد الديون، وإلا ستتوتر العلاقة⁽⁶⁾. فأرسلت حكومة اشبيلية إلى الباي في 25 أبريل 1809م؛ رسالة تحبّره فيها بأنها ستسدد جزء من الدين أما الجزء الباقي فإنها ستقوم بإعفاء التجار التونسيون الذين لديهم ديون على "سيقي"؛ من الرسوم الجمركية في ميناء أليكانت الإسباني؛ إلى غاية استوفاء ديونهم. وبهذا انتهت مشكلة ديون القنصل "سيقي" (segui)⁽⁷⁾.

(1) Chakib Benafri: Op.cit, p 615.

(2) روسو ألفونصو: المرجع السابق، ص 271.

(3) إسماعيل ياغي وعبد الفتاح أبو عليّة: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، السعودية 1993، ص 296.

(4) روسو ألفونصو: المرجع السابق، ص 288.

(5) Arnoldo. Soler: **Chargé d'affaires d'Espagne a Tunis et Sa Correspondance 1808** – (5) 1810, in R. T, Tunis 1905, N^o12, pp 306, 307, 308.

(6) Ibid, p 309.

(7) Ibid, in R. T, Tunis 1905, N^o 49, p 383.

وعلى الرغم من المشاكل التي أحدثتها القنصل "سيقي"، إلا أن "حمودة باشا" رفض العرض الذي قدمه له "نابليون بونابرت" لاستعمال موانئ تونس لضرب القوات الإسبانية، لذا قدم الملك الإسباني "دون فرناندو السابع"⁽¹⁾ رسالة شكر إلى الباي على موقعة بتاريخ 13 سبتمبر 1810م⁽²⁾.

8- نتائج علاقاته الخارجية:

أ- بناء الموانئ:

إن المداخل التي تحصل عليها "حمودة باشا"، سواء من نشاط البحرية التونسية، أو من ثمن المعاهدات مع دول غرب أوروبا، وجهها لإعادة بناء الإيالة، ولعل أهم إنجازاته على المستوى الداخلي اهتمامه بإنشاء، وإعادة ترميم الموانئ مما يبين لنا الأهمية التي حظيت بها البحرية في عهده. فقد طلب "حمودة باشا" من حكومة هولندا في رسالة مؤرخة في 30 نوفمبر 1794م، بإرسال له مهندسا للأعمال الهيدروليكية متمكنا ومعه مساعدين لبناء ميناء بحلق الوادي⁽³⁾.

وبعد مضي وقت وافقت الحكومة الهولندية على إرسال ثلاث مهندسين إلى تونس وهم :
"أوجيست هنريش فرانك" "August Heinrich Frank"؛ وابنه "كرستيان فرديناند" "Christian Ferdinand"؛ و"جون إميل امبرت" "Jean Emile Humbert"⁽⁴⁾، الذين وصلوا إلى تونس في 17 مارس 1796م؛ وباشروا العمل بتفقدتهم لميناء حلق الوادي و ميناء غار الملح؛ وميناء بنزرت . ثم قدم الأب "فرانك" "Frank" مخطط العمل للباي "حمودة باشا" الذي رفض هذا المخطط بسبب أنه مكلف، فلجأ الأب فرانك في الأخير إلى تحديد ميناء حلق الوادي فقط . وقد استغرق بناء الميناء في حلق الوادي ثمانية سنوات. وكان الباي يهدف من إنجاز هذا المشروع:

- رغبته بتشريف بلده بميناء يساير العصر ومجهز بأحدث المعدات كان له ما يبرره، ففي الشتاء تهب الرياح الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية جعلت مرسى حلق الوادي خطيرا جدا⁽⁵⁾.

(1) قام نابليون بونابرت بتنحية فرديناند السابع عن ملك عرش إسبانيا بحجة تنازعه مع أبيه شارل الرابع على العرش. ونصب بدلا منهما أخيه جوزيف نابليون 1807م. وبعد انسحاب نابليون من الأراضي الإسبانية سنة 1813م، عاد فرديناند السابع لملك عرش إسبانيا إلى غاية 1833م. أنظر: ناصر الدين سعيدوني: مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط 1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر 2003، ص 210.

(2) نور الدين الحلاوي: المرجع السابق، ص 90.

(3) Gérard Van Krieken: Op.cit, p 222. (3)

(4) Paul Sebag: Grands Travaux à Tunis à la Fin du XVIII siècle, in R. L. M. M., paris (4) 1973, N° 15-16, p 313.

(5) Gérard Van Krieken: Op.cit, pp 223, 224. (5)

- بناء ميناء كبير في حلق الوادي سيسمح ببناء السفن وخاصة الفرقاطة، ويسهل عملية صيانة الأسطول.

- تشجيع وتسهيل التجارة الخارجية نحو مرسيليا و ليفورنو.

- تكوين بعض التونسيين على يد الهولنديين، ليواصلوا بعد ذلك صيانة الميناء⁽¹⁾.

ب- الإنجازات العسكرية:

استطاع "حمودة باشا" أن يحقق عدة إنجازات داخل تونس، وخاصة العسكرية منها، نظرا لاهتمامه الكبير بالحياة العسكرية، ومن أبرزها بناء خمس قشل⁽²⁾ وهي: قشلة العطارين، و الباشامقية، والزنايدية، وسوق الوزر، سيدي عامر⁽³⁾. ويشير هنا "توماس ماجيل" "Thomas Maggil"، أن هذه الإنجازات كلفته أمولا كبيرة⁽⁴⁾. إضافة إلى التحفيز المالي الذي كان يقدمه للجنود، ويضيف أحمد بن أبي الضياف أن الباي كان شديد العناية بالجنود حيث قال: «... في شهر رمضان تخرج منهم طائفة بالليل بمشاعل ولعب ما يسمى في البلاد غولة رمضان، فيأتون باردو ويقى بابه مفتوحا إلى خروجهم، ويحسن إليهم بمال...»⁽⁵⁾.

كما قام الباي بإنشاء ثلاثة مصانع للأسلحة، حتى يتخلص من التبعية الأوربية في هذا المج ال ومن بينها مصنع للمدافع، لكن الباي واجه مشكلة ثقب المدافع⁽⁶⁾، فتقدم بطلب إلى فرنسا لتزويده بالة الثقب، وإرسال تقني فرنسي مختص لتكيب الآلة وتدريب بعض التونسيين عليها⁽⁷⁾. ونتيجة لهذا استطاع "حمودة باشا" أن ينجز عددا كبيرا من المدافع، حيث تشير الإحصائيات ، أن عدد المدافع بتونس وصل عددها سنة 1798م، إلى 1052 مدفعا. ولم يتوقف طموح الباي عند هذا الحد بل قام ببناء الطبخانات الأرضية⁽⁸⁾.

(1) Gérard Van Krieken: Op.cit, p 224.

(2) كلمة عثمانية أصلها قيشلق ويقصد بها المأوى الخاص بالجنود في فصل الشتاء، ثم أصبح يطلق عليها قلاع الجنود . أنظر:

محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط 1، دار النفائس، بيروت 1981، ص 382.

(3) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 35.

(4) Thomas Maggil: Op.cit, 88.

(5) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ص 70.

(6) سليمان مصطفى زيبس: آثار الدولة الحسينية بالقطر التونسي، مطبعة سابي، تونس 1955، ص 44.

(7) أ. بلانتي: المصدر السابق، ج 3، ص 191.

(8) لفظ تركي ويقصد به إدارة رماة الأسلحة والمدافع، والمختص في رمي المدافع يعرف بالطوبجي . أنظر: محمد بن عمر التونسي:

المصدر السابق، ص 241.

بالإضافة إلى اهتمام الباي بصناعة المدافع أولى اهتماما كبير بصناعة البارود، حيث أنشأ معملا خاص في القصبه (1)، وما شجعه على هذه الصناعة هو توفر المادة الأولية لصنع البارود بكميات كبيرة في تونس، والمتمثلة في ملح البارود . وقد أبعد الباي التونسيين من هذه الصناعة فاعتمد على الفرنسيين، وكانت حجته في ذلك أن الفرنسيون يتقنون الصناعة أحسن من الأهالي إضافة إلى تخوفه من انتشار الصناعة بين الناس مما قد يهدد الأمن العام للبلاد(2).

إن التحدي الخارجي الذي تواجهه تونس، سواء من دول غرب أوروبا، أو من الجزائر فرض على "حمودة باشا" تعزيز تحصيناته الدفاعية، وذلك ببناء الأبراج والقلاع والأسوار، حتى وصف الباي بأنه من أكثر البايات الحسينيين عناية بالأسوار والحصون الواقعة حول تونس (3). وقد استعان بالمهندسين الأجانب حتى يضمن إنجازات حديثة ومتقنة، وكان شديد الحرص على إتمام الأ شغال في وقتها، ودليل ذلك أنه كان يراقب الأعمال بنفسه.

لقد ركز الباي على تحصين المناطق الإستراتيجية في تونس ليقوم حولها الأسوار، فكلف المهندس الهولندي "همبير" ببناء سور حول حلق الوادي سنة 1212هـ / 1797م(4)، كما أنشأ نفس المهندس سنة 1802م سور مدينة تونس حول باب السويقة وباب الجزيرة(5)، وبعد إتمامه لهذا السور قام الباي بتحسين سور مدينة سوسة بعدة أبراج(6). ومن أبرز هذه الأبراج التي أنشئها:

- **برج صاحب الطابع**: وهو برج بجانب برج الباب الخضراء(7)، وقد تكفل "يوسف خوجة" ببناء هذا البرج من ماله الخاص، حيث كلف الوزير أبو عبد الله محمد العربي رزوق(8)، ببناؤه قائلا له:

(1) أبي عبد الله بن عثمان السنوسي: المصدر السابق، ص ص 119، 120.

(2) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا الخارجية، المرجع السابق، ص 215.

(3) محمد بن الخوجة: تاريخ أبواب تونس، في المجلة الزيتونة، المطبعة التونسية 1939، ج 7، ص 214.

(4) سليمان مصطفى زيبس: المرجع السابق، ص 35.

(5) محمد بن خوجة: المرجع السابق، ص 216.

(6) سليمان مصطفى زيبس: المرجع السابق، ص 35.

(7) برج باي الخضراء شرع في بنائه يوم الأحد 4 ربيع الأول 1211هـ / جويلية 1802. أنظر: أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 53.

(8) هو من أعيان مدينة تونس كان والده من الشخصيات التي كانت لها مكانة في القصر ، مما سهل للابن التقرب من حمودة باشا، حيث أصبحت لديه مكانة كبيرة عند الباي، وهذا ما أثار غضب صاحب الطابع، فنشأت بينهما عداوة كبيرة انتهت بمقتل

صاحب الطابع. أنظر: S. Zmerli: **Une Fuguer Oubliée: Youssef Saheb Et- Tabaà**, in R. T.

Tunis 1935, N° 21, pp 37, 38.

«...اشرع في بنائه وسائر ما يصرف عليه اقبضه مني، ولا تدخله في حساب الدولة...»⁽¹⁾.

- برج خليف: بدأ بنائه منذ سنة 1745م، في عهد "علي باشا بن محمد علي تركي"، وأكمله "حمودة باشا" سنة 1795م⁽²⁾.

بالإضافة إلى هذا فقد تم إنجاز العديد من الأبراج الأخرى ومنها: برج سيدي يحيى، وبرج باب سيدي عبد السلام، وبرج باب سعدون، وبرج باب خالد، وبرج باب العسل⁽³⁾.

ج- الإصلاحات الاقتصادية:

1- دعمه للصناعة المحلية:

أولى "حمودة باشا" عناية كبيرة بالصناعة المحلية، محاولاً أن يعيد لها مكانتها بعدما تراجعت بسبب تدفق المنتجات الأوربية داخل تونس، ولم يعد التجار التونسيين سوى باعة للبضائع المستوردة، وتخلوا عن منتجاتهم التقليدية⁽⁴⁾، وقد أشار السنوسي بقوله: «...تكدست الصناعات المحلية وبالتالي راجت السلع الخارجية...»⁽⁵⁾. وأمام تردي الوضع بدأ الباى بمجموعة من الإجراءات أهمها تشجيعه للصناعة المحلية، وأصبح يلبس من الإنتاج المحلي هذا جعل رجال البلاط يقلدونه، وتشجيعاً للإنتاج المحلي بدأ يتباهى بإنتاج البلاد⁽⁶⁾.

ومن بين الإجراءات التي قام بها لتشجيع الصناعة المحلية، انه حصر الهدايا التي كان يعيها للباب العالي والدول الأوربية بالمنتجات التونسية ذات الجودة العالية، وحتى يضمن هذه الجودة فانه ملزم بجلب أحسن وأجود الأصواف لصنع الشاشية، وهذا ما حصل عندما عقد السلام مع إسبانيا . وبذلك أصبحت صناعة الشاشية من أهم الصناعات المحلية بتونس، وهذا ما يؤكد طيب الباى " فرانك"⁽⁷⁾ "Franek" بقوله: «... إن أهم الصناعات الحرفية بتونس هي بدون منازع صناعة الشاشية التي كانت تحظى في تونس برواج يفوق رواج الشاشية المصنوعة في أوروبا بفضل شكلها⁽⁷⁾»

(1) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 7، ص 94.

(2) سليمان مصطفى زيبس: المرجع السابق، ص 32.

(3) أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ص 53.

(4) أندري رمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة 1990، ص 173.

(5) أبي عبد الله بن عثمان السنوسي: المصدر السابق، ص 121.

(6) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 101.

J. J. Marcel: Op.cit, p 129.

(7)

وجمال لوئها... ولم تكن تنقص التونسيين بصفة عامة الخبرة في مجال العديد من الصناعات الحرفية...»⁽¹⁾.

بالإضافة إلى صناعة الشاشية؛ فقد راجت في تونس في ع هد الباي؛ عدة صناعات نسيجية أخرى مثل صناعة الحرير ونسيج الصوف بعدة مناطق مثل سوسة، والحمامات، وجزيرة جربه⁽²⁾ وانتشرت معامل النسيج في اغلب أحياء تونس، وأصبحت تنتج منسوجات حريرية بشكل متقن⁽³⁾ إلى درجة أنها قاربت الصناعة الأوربية⁽⁴⁾. كما برزت صناعة العطور نظر التوفر الأشجار المزهرة المختلفة الأنواع، وأصبحت تونس من بين الدول المصدرة للعطور، والتي لا تقل جودة عن تلك التي تنتج في بلاد الهند⁽⁵⁾، ووصف التاجر البريطاني "ماجيل" "Maggil" عطور تونس أنها كانت من النوعية الجيدة، ذات الرائحة الجميلة، وهي جديرة بأن تكون ضمن صادرات تونس⁽⁶⁾.

بعدها استطاع "حمودة باشا" إحياء الصناعة المحلية، بدأ يهتم بتوسيع دائرة التاجر التونسي داخلها، حيث بدأ ببناء سوق جديدة عرفت باسم "سواق الباي"⁽⁷⁾. ويعتبر هذا السوق من أحسن أسواق تونس من حيث الموقع والكبر⁽⁸⁾، وأمر بتنظيم الأسواق القديمة، وإزالة المصاطب من أمام الدكاكين، والتي كانت تعيق حركة الناس؛ فأصدر بشأن ذلك قرار مفاده : «... كل من يتأخر عن إزالة المصاطب يهدم عليه دكانه غصبا، ويلزمه أجر الهادم ...»⁽⁹⁾.

2- تنظيم القطاع الزراعي:

تعتبر الزراعة في تونس، أهم قطاع اقتصادي، نظرا لم ا يوفره من حاجيات للسكان، ومصدرا مهما في التجارة الخارجية. لذا أولى "حمودة باشا" اهتمام كبيرا بهذا القطاع، وذلك من خلال جملة من الإجراءات، التي تصب في مصلحة الفلاح بالدرجة الأولى.

(1) J. J. Marcel: Op.cit, p 129.

(2) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 101.

(3) J. J. Marcel: Op.cit, p 100.

(4) لوسات فلنزي: المرجع السابق، ص 71.

(5) Marcel Emérit: Op.cit, p 165.

(6) Thomas Maggil: Op.cit, p 163.

(7) عمر الركباني: الرجع السابق، ص 136.

(8) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا الحسيني، المرجع السابق، ص 85.

(9) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 48.

فقد لاحظ الباى منذ توليه، الفوضى السائدة فى مجال جباية الضرائب من الفلاحين، لذا طلب من بعض الوزراء البحث له عن قوانين جديدة لجباية الضرائب، تكون أكثر تيسيرا للفلاحين، حيث قال لهم: «... قد طلبت منكم تدبيرا فى شأن الجباية يناسب الوقت والحال..»⁽¹⁾.

لقد تعرض الفلاحون قبل الشروع فى التغييرات التى أحدثها الباى، إلى عملية النهب من طرف مستخلصى الضرائب، وقد استعملوا عدة طرق لهذا الأمر مثل "الوهبة" و"الضيقة"، إضافة إلى ضريبة "العشر"، التى تخرج على المحاصيل الزراعية، وزكاة المواشى⁽²⁾.

لكن استطاع الباى أن يجد حلا لهذه المشاكل، حيث كلف "يوسف صاحب الطابع" لمراقبة هؤلاء السماسرة، حيث يشير ابن أبى الضياف قائلا: «... أذن له الباى فى الركوب إلى حلق الوادى أو غيره من بساينه ليجتمع بالناس، ويبلغ للباى ما يتلقاه منهم...»⁽³⁾. وبهذا الإجراء حاول الباى أن يحصل على دخل ثابت طيلة السنة، ويشير الطبيب الخاص للباى "فرانك" "Frank"، أن الباى استطاع أن يجنى أموالا تفوق الأموال التى كان يجنيها من الأعشار⁽⁴⁾.

ومن المشاكل الأخرى التى كان يعاني منها الفلاح بتونس، ظلم الملتزمين⁽⁵⁾، الذين حاولوا الاستيلاء على أراضي الفلاحين، بحجة أنها أراضي تابعة للسلطة، وأن هذه الأخيرة هى التى حولت لهم ذلك. هذا جعل الباى يصدر أمرا للفلاحين، الذين نهبت أراضيهم برفع تظلماتهم إلى وكيل الباى، حتى يتسنى لهم الأمر باسترجاع أراضيهم⁽⁶⁾.

لم يكتف الباى بهذه الإجراءات، بل شجع الأهالى على ممارسة الزراعة، حيث كان ينزل بنفسه إلى الحقول، ويعمل فيها أحيانا، ويقول أبى الضياف فى هذا الصدد: «... كان يباشر الفلاحة

(1) أحمد بن أبى الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 23.

(2) نفسه، ص 21.

(3) اقترح الشيخ حمودة بن عبد العزيز نظاما يدعى بالمشاركة المالية، يجعل من المحلة التى تقوم بجباية الضرائب مجرد جهاز للمراقبة وتم توظيف عمالا جدد لجبايتها، حيث يدفع كل عامل منهم مبلغا من المال يعادل، المبلغ الذى سيقوم بجبايته، يسلمه إلى صاحب الطابع. أنظر: المصدر نفسه، ص 22.

(4) Marcel. Emérit: Op.cit, p 66.

(5) نسبة إلى نظام الالتزام، الذى كان معمولا به فى تونس، منذ العصور القديمة، وهو عبارة عن قطعة أرض تمنحها الدولة للملتزم مقابل دفع قسط من المال يعادل حصة السنة من الضريبة المفروضة على الأرض أنظر: إبراهيم الدسوقي ماهد: بدايات الإصلاح فى الدولة العثمانية وأثر الغرب الأوروبى فيها (1789-1807)، منشورات المعارف، الإسكندرية 2006، ص 46.

(6) رشاد الإمام: سياسة حمودة باشا، المرجع السابق، ص 268.

بهنشير المرقية، ويركب غالبا في كل أسبوع، ليقندي به غيره ...»⁽¹⁾. وكان يزود الفلاحين بالحبوب بقروض لمدة طويلة⁽²⁾، مما دفع الفلاحين لاستصلاح الأراضي الزراعية⁽³⁾. وقد استعان الباي ببعض المختصين الزراعيين من فرنسا، حتى يقدموا له التقنيات الحديثة لزيادة مردودية الإنتاج⁽⁴⁾. ونتيجة لهذا ازدهرت الزراعة، واتسع نطاقها بتونس⁽⁵⁾.

إن الانجازات التي قام بها "حمودة باشا" لإعادة بناء الإيالة تدل على أنه صرف أموالا كبيرة لتحقيق هذه الانجازات التي ذكرنا جزءا فقط منها. مما يبرز لنا الدور الذي لعبته البحرية التونسية، والمعاهدات المبرمة مع دول غرب أوروبا، كمصدر هام لمداخيل تونس في عصر "حمودة باشا".
يتضح من ثنايا هذا العرض أن:

- "حمودة باشا" قام بتوسيع دائرة علاقاته الخارجية، والدليل هو ارتفاع عدد الممثلين لمختلف الدول الأوربية.

- نجح سياسته الخارجية، والتي كانت تهدف إلى إحداث توازن بين ممثلي هذه الدول داخل تونس حتى لا تنفرد فرنسا بأغلب الامتيازات هذا من جهة، ومن جهة ثانية رفع عدد الممثلين يخلق تنافس بين هذه الدول على تونس، وهذا سيجعل الباي يستفيد أكثر.

- رغبة الباي في تنويع الأسواق الأوربية حتى يضمن استمرارية تجارته الخارجية إذا حدث و أن تعكرت علاقته مع أي دولة.

- قدرة الباي في التنسيق بين سياسته الداخلية والخارجية، مستفيدا من الظروف الدولية عموما، كضعف الدولة العثمانية من جهة، وانشغال الدول الأوربية في الحروب الطاحنة التي اجتاحتها بعد نهاية الثورة الفرنسية، ونخص بالذكر حروب نابليون بونابرت.

- مهادنة الدول الأوربية وعقد معاهدات معها وأحيانا يلجأ إلى قطع العلاقات بنقض المعاهدة إن رأى أنها تخدم مصالحه قصد تجديدها؛ مثل ما قام به مع فرنسا.

- استعمال القوة إذا تعلق الأمر بهيبة تونس مثل حربه مع البندقية. إذن هذه التقلبات في سياسة

(1) أحمد بن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 3، ص 102.

(2) نفسه.

(3) محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الإزهار والذبول، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ب ت، ص 296.

(4) Thomas Maggil: Op.cit, p 64.

(5) محمد الهادي العامري: المرجع السابق، ص 296.

"حمودة باشا" تحكمت فيها بالدرجة الأولى الظرفية المتوسطة في هذه الفترة.

- الاستفادة من الأموال، التي حصل عليها من معاهدات السلام، التي أبرمها مع دول غرب أوروبا،

أو من الهدايا السنوية التي كان يتحصل عليها، لخدمة مشاريعه الإصلاحية داخل تونس.

- اهتمامه بالإصلاحات العسكرية، يدل على أن "حمودة باشا"، أراد أن يأخذ بأسباب القوة، حتى

يفرض نفسه، داخل وخارج تونس.

في ختام هذه الدراسة لموضوع: "علاقات تونس مع دول أوروبا الغربية المتوسطة وتأثير البحرية فيها في عهد حمودة باشا من 1782م إلى 1814م". توصلت إلى بعض الملاحظات والنتائج يمكن حصرها فيما يلي:

- 1- ان حدوث الاضطرابات السياسية داخل تونس، قبل عهد "حمودة باشا"، كان نتيجة الصراع القائم حول السلطة، رغم أن مؤسس الدولة الحسينية "حسين بن علي تركي"، جعل الحكم بها وراثيا.
- 2- حظيت فرنسا بمكانة مميزة داخل تونس، دون غيرها من دول غرب أوروبا، إلى درجة أنها كانت تفرض شروطها على البايات الذين سبقوا حمودة باشا، عند عقد الصلح.
- 3- يعود ضعف النشاط التجاري لتونس، إلى الضغط الممارس عليها، سواء من طرف قراصنة القديس يوحنا بمالطة، أو هيمنة السفن الأجنبية على نقل البضائع من تونس قبل عهد حمودة باشا.
- 4- قوة شخصية حمودة باشا وذكائه، أهله أن يكون حاكما على قدر المسؤولية، في تسيير شؤون الإيالة، إضافة إلى أنه أحاط نفسه برجال لا يقلون عنه شأنًا على مستوى التسيير، مما كان له الأثر الكبير، في توجيه سياسة الباي الداخلية والخارجية.
- 5- يعتبر عصر حمودة باشا فترة انتعاش للبلاد التونسية، بفضل سياسته الإصلاحية، التي انتهجها في مختلف الميادين، للنهوض بالبلاد من جهة، واسترجاع مكانة وهيبة تونس من جهة ثانية.
- 6- استغل حمودة باشا كل الظروف، التي أتاحت له لخدمة مصالح بلاده، ونخص بالذكر الصراعات الطاحنة، التي مرت بها أوروبا من جراء حروب نابليون بونابرت، مما انعكس على سير العلاقات الخارجية لتونس.
- 7- أثرت جملة من العوامل في توجيه هذه العلاقات، وفق الهدف الذي سعى إليه حمودة باشا، ولعل أبرزها، أخذه بأسباب القوة، ولكي يحقق هذا، لجأ إلى مهادنة بعض الدول الأوروبية، للحصول على الأسلحة والذخائر الحربية.
- 8- تفتن "حمودة باشا" لأهمية نشاط البحرية، حتى يعزز من سلطته داخل تونس، فقام بتوجيه نشاط البحرية، باتجاهين، القرصنة البحرية والتجارة الخارجية.

9 - يعتبر نشاط القرصنة من العوامل المؤثرة في العلاقات بين الضفتين بشكل عام، إلا أنه عرف خصوصية بتونس، تمثلت في أن هذا النشاط تعاطاه العلوج، والمورسكيون خلال القرن السابع عشر، وبداية القرن الثامن عشر. أما في عصر حمودة باشا، فقد أصبح رجال البلاط هم الذين يحتكرون نشاط القرصنة، ضف إلى ذلك تحول مركز نشاط القرصنة، من ميناء غار الملح إلى ميناء حلق الوادي في عصر حمودة باشا.

10- رغم أهمية نشاط القرصنة بالنسبة لحمودة باشا للحصول على المال، إلا أن هذا النشاط تراجع في بداية القرن التاسع عشر، بسبب معاهدات الصلح، التي عقدها الباي مع دول غرب أوروبا . مما أدى إلى اهتمام الباي بالتجارة الخارجية، باعتبارها البديل الأساسي لنشاط القرصنة.

11- لعبت التجارة الخارجية دورا كبيرا، في إحداث تقارب بين "حمودة باشا"، ودول غرب أوروبا المتوسطية، مما ساهم في تدفق الأموال على تونس، وبهذا أصبحت تونس مركزا تجاريا هاما . وقد انعكس هذا على النشاط التجاري، وعمل على تقوية بعض الصناعات المحلية ، والترويج لها في الأسواق الأوربية.

12- لاحظ حمودة باشا هيمنة التجار الأجانب على تجارة تونس، فبدأ بالعمل لإضعاف هذه الهيمنة، وذلك بتعيين وسطاء تجاريين بين التجار الأجانب، والتجار المحليين، وبهذا أصبحت التجارة الخارجية تحت سلطة رجال البلاط.

13- برز مظهر الشدة في علاقات "حمودة باشا" الخارجية، في حربه الطويلة ضد جمهورية البندقية، لأن الأمر يتعلق بهيبة تونس، كما أنه رفض مساعي كل من فرنسا وإنجلترا، لعدم التعرض لمملكتي نابل وصقلية، حتى يعقد الصلح معهما.

14- برزت صفة الباي المتقلبة، في علاقته مع فرنسا، عندما استغل ظروف الثورة بها، فكان يلغي المعاهدات، ويجدها كلما نصبت حكومة فرنسية جديدة . ويختلف الأمر في علاقته مع إسبانيا، حيث ظهرت فيه صفة التروي، بسبب إلحاح إسبانيا على عقد الصلح، حتى تستكمل سياسة المهادنة مع البلاد المغاربية.

15- لعل اطلاع حمودة باشا على التطورات العلمية، التي تشهدها أوروبا، ساهم في انفتاح التونسيين على مظاهر الحضارة الغربية، ومن مظاهر ذلك جلب حمودة باشا، للمهندسين والأطباء للعمل بتونس.

إن الاستقرار الداخلي لتونس طيلة عهد حمودة باشا، لدليل واضح على أنه قد نجح في تحقيق سياسته الداخلية، التي حققت بفضلها العديد من الإنجازات، ولعل المنشآت المعمارية التي بقيت إلى اليوم خير شاهد على ذلك. كما نجح أيضا في علاقاته الخارجية مع دول غرب أوروبا المتوسطية، ولعل هذا ما جعل أغلبها تسعى لكسب وده.

وفي الأخير أشير إلى أن هذه النتائج ليست أخيرة، ليبقى بذلك مجال البحث مفتوحا، لدراسات أخرى، قد تضرب في المجال لتكشف عن المجهول.

ببليوغرافية الدراسة

فهرس المصادر والمراجع:

أولا- الوثائق المخطوطة والمنشورة:

أ- الوثائق المخطوطة:

- الخط الهمايوني عدد 14081.

- ابن مصطفى الترجمان: كناش الشيخ بن مصطفى الترجمان، مخطوط تحت رقم 1618.

ب- الوثائق المنشورة:

1- Grandchamp Pieere: **Documents Relatifs Aux Corsaires Tunisien**

(2 octobre 1777- 4 mai 1824), Tunis 1929.

2- Grandchamp Pieere: **Documents Concernant la Course Dans la Régence de Tunis, de 1764 à 1769 et de 1783 à 1843**, in les C. T. S. D, N⁰ 19-20.

3- Plantet Eugène: **correspondance des Beys de Tunis et des consuls de France avec la cour (1770-1830)**, 3tome, Félix Algan, Paris1899, T 3.

4- Soler Arnoldo: **Chargé d'affaires d'Espagne a Tunis et Sa Correspondance 1808 – 1810**, in R. T. Tunis 1905, N⁰ 12.

5- بوعزيز يحيى: **المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780-1798)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993.

6- الحلاوي نور الدين: **وثائق عن العلاقات بين تونس وإسبانيا في أوائل القرن التاسع عشر**، في المجلة التاريخية المغاربية، جويلية 1979م، عدد (15-16).

ثانيا - المؤلفات المخطوطة:

1- ابن عبد العزيز حمودة: **الكتاب الباشي**، مخطوط يوجد بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 1794.

ثالثا- المصادر العربية والمعربة:

أ- المصادر العربية:

1- بيرم محمد الخامس: **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، 2 ج، دار صادر بيروت ب
ت، ج 2.

2- التونسي محمد بن عمر: تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، حققه وكتب حواشيه خليل محمد عساكر ومصطفى محمد مسعد، راجعه محمد مصطفى زيادة، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1965.

3- الزهار أحمد الشريف: مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، دار البصائر، الجزائر 2008.

4- السنوسي أبي عبد الله بن عثمان: مسامرات الظريف بحسن التعريف، تحقيق وتعليق محمد الشاذلي النيفر، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994، ج 1.

5- الضياف أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 8 ج، ط 2، تونس للنشر ب ت، ج 2، ج 3، ج 7.

6- ابن عبد العزيز حمودة: الكتاب الباشي: تحقيق محمد ماضور، قسم السيرة، الدار التونسية للنشر 1970، ج 1.

7- ابن عودة المازري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق يحي بوعزيز، ط 1، دار البصائر، الجزائر 2007، ج 2.

8- مقديش محمود: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، 2 ج، تحقيق علي الزاوي ومحمود محفوظ، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ج 2.

9- مخلوف محمد بن محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت 1929.

10- المسعودي محمد الباجي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقيا، ط 2، مطبعة بيكار تونس 1323هـ.

11- الورغي محمد: ديوان الورغي، تحقيق وتقديم عبد العزيز القيزاني، الدار التونسية للنشر، تونس 1975.

ب- المصادر المعربة:

2- ايريس: رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1732م-

1145هـ)، ترجمة وتعليق ناصر الدين سعيدوني، ط 1، دار الغرب الإسلامي، تونس 2008.

1- خوجة حمدان بن عثمان: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيدي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2006.

رابع- المصادر الأجنبية:

- 1- Armoulet. F: **Les Relation De Commerce Entre La France et La Tunis De (1815 - 1886)**, Lille 1986.
- 2- De Paradis Venture: **Tunis et Alger au XVIII siècle**, la bibliothèque arabe sindbad, paris 1983.
- 3- Grandchamp Pierre: **Auteure de Consulat de Frans a Tunis (1577- 1881)**, imprimerie j. aloccio, Tunis 1943.
- 4- Grandchamp Pierre: **Etudes D'histoire Tunisienne au XVIII et XIX^{eme} siècle**, presses Universitaires de France, paris 1966, Vol VI
- 5- **Grosjean Georges: La Maitrise De La Méditerranée et La Tunisie Pend-ante La Révolution Française, Paris 1914.**
- 6- H. Gabriel: **Histoire des Consulat de Française**, 3T, librairie plon, paris, S. D, T 3.
- 7- J. J. Marcel: **Histoire de Tunis Précédée D' un Description de Cette Régence par le Docteur Louis Frank**, Didot frères, paris 1851
- 8- Maggil. M. Thomas: **Nouveau Voyage a Tunis**, publié en 1811, Editeur de Dictionnaire des Sciences Médicales, paris 1981.
- 9- Montran Robert: **Imientaire Documents D'archives Turcs De dar el bey**, presses Universitaires de France, paris 1961.
- 10- Seghir Mohammed Ben Youssef: **Chronique Tunisienne (1705- 1771)**, Ouvrage Traduit Par Victor Serres et Mohammed Lasram, 2^{eme} Edition, Editions Bouslama, Tunis S. D.

خامس- المراجع العربية والمعربة:

أ- المراجع العربية:

- 1- الإمام رشاد: سياسة حمودة باشا في تونس 1782 - 1814م، منشورات الجامعة التونسية 1980.
- 2- بوعزيز يحيى: المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780- 1798)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993.

- 3- حسن عبد الوهاب حسني: خلاصة تاريخ تونس، دار الفنون، تونس 1373هـ.
- 4- ابن خروف عمار: العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع 2008، ج 2.
- 5- الذوايدي زهير: الاستعمار وتأسيس الحركة الإصلاحية الوطنية التونسية، ط1، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس 2006.
- 6- رزوق محمد: دراسات في تاريخ المغرب، ط1، دار إفريقيا الشرق، دار البيضاء، المغرب 1991.
- 7- الركباني عمر: خلاصة التاريخ التونسي، ط3، مطبعة النهضة، تونس 1946.
- 8- زيس مصطفى سليمان: آثار الدولة الحسينية بالقطر التونسي، مطبعة سابي، تونس 1955.
- 9- سعيدوني ناصر الدين: دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، الجزائر 2003.
- 10- طقوش محمد سهيل: العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة (698-1343هـ/ 1299-1924م)، دار النفائس، بيروت 1999.
- 11- الطويل أحمد سعيد: البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرامانلي (1795-1832)، دار الكتب الوطنية، بنغازي ب.ت.
- 12- عصمت راشد زينب: تاريخ أوروبا الحديث، دار الفكر العربي، ب.ت، ج 1.
- 13- ابن عبد الله عبد العزيز: سلا أولى حاضرتي أبي الرقراق، منشورات الخزانة العلمية الصباحية، ط1، سلا 1989.
- 14- العامري محمد الهادي: تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الإزهار والذبول، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ب.ت.
- 15- غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288-1916)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007.
- 16- غريب محمد: معركة ذات الصواري، دار الطلائع للنشر والتوزيع، مصر 1993.
- 17- فريد بك المحامي محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت 1981.

18- القلعي سلامة عبد الحكيم: الموريسلعيون الأندلسيون والجهاد البحري التونسي غار الملح بين 1609-1805م، الندوة الدولية في موضوع الجهاد البحري في التاريخ العربي الإسلامي، سلا 1997.

19- مبارك زكي : الجهاد البحري في الغرب الإسلامي ، المفهوم الإسلامي والمفهوم المسيحي، رحلة البحث العلمي السنة الإحدى والثلاثون، جامعة محمد الخامس ، الرباط 1998، عدد 45.
20- محفوظ محمد: تراجم المؤلفين التونسيين ، ط 2، 5 ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ج 2.

21- ماهد إبراهيم الدسوقي : بدايات الإصلاح في الدولة العثمانية وأثر الغرب الأوربي فيها (1789-1807)، منشورات المعارف، الإسكندرية 2006.

22- مؤنس حسين: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي ، مج 2، ط 1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت 1992، ج 2.

23- مزالي محمد الصالح : الوراثة على العرش الحسيني ومدى احترام نظامها ، الدار التونسية للنشر، تونس مارس 1969.

24- مجهول: غزوات عروج وخير الدين ، تصحيح وتعليق عبد القادر نور الدين ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر 1335هـ/ 1934م.

25- المريني محمد: اباضية جربه في العصر الحديث، دار الجنوب للنشر، تونس 2005.

26- النيفر الشاذلي محمد: الأسطول في اللغة والأدب والتاريخ، تحقيق الطاهر بن محمد الشاذلي وآمال بن حمزة، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة 2008.

27- الناصري أحمد ابن خالد : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق أحمد الناصر، 9 ج ، منشورات وزارة الثقافة والاتصال 2001، ج 7.

28- ياغي اسماعيل أحمد: الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، ط 1، مكتبة العبيكان، الرياض 1996.

29- ياغي إسماعيل وأبو عليّة عبد الفتاح : تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ، دار المريخ للنشر، السعودية 1982.

ب- المراجع المعربة:

- 1- ألتز عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا، ترجمة عبد السلام أدهم، ط 1، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت 1969.
- 2- ألتز عزيز سامح: الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا ، تعريب محمود علي عامر ، ط 1، دار النهضة العربية ، بيروت 1989.
- 3- ايفانوف نيقولاوي: الفتح العثماني للأقطار العربية العثمانية (1516-1574)، تعريب يوسف عطا الله ومراجعة مسعود ظاهر، دار الفرايبي، بيروت 1988.
- 4- أندري جوليان شارل : تاريخ أفريقيا الشمالية ، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1985، ج 2.
- 5- ب. وولف. جون: الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
- 6- برينا كوستانزيو: طرابلس من 1510 إلى 1850، ترجمة خليفة الكيسي، دار الفرجاني، طرابلس 1969.
- 7- حضرت عزت و يوسف بك أصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم محمد زينهم محمد عزب، ط 1، مكتبة مديبولي، القاهرة 1995.
- 8- روسو ألفونصو: الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر ، تعريب محمد عبد الكريم، ط 1، منشورات بنغازي 1992.
- 9- ريمون أندري: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة 1990.
- 10- الشريف محمد الهادي: تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، دار سواس للنشر، تونس 2008.
- 11- فاروقي ثريا: الدولة العثمانية والعالم المحيط بها ، ترجمة حاتم عبد الرحمن الطحاوي ، ط 1، دار المدار الإسلامي، لبنان 2008.
- 12- فريميو جاك: فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران ، ترجمة هاشم صالح، ط 1، دار قرطبة 1991.
- 13- فهمي علي محمود: التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر ميلادي، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار الوحدة بيروت 1980.

- 14- فلنزي لوسات : المغرب العربي قبل احتلال الجزائر (1790- 1830)، ترجمة حمادي الساحلي، دار سراس للنشر، تونس 1994.
- 15- فيرو شارل: الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي، ترجمة وتحقيق محمد عبد الكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي 1994.
- 15- مروش لمنور: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني ، ج 2، القرصنة الأساطير والواقع، دار القصة للنشر، الجزائر 2009.

سادسا- المراجع الأجنبية:

- 1- Armoulet. F: **Les Relation de Commerce entre La France et La Tunis de (1815- 1886)**, Lille 1986.
- 2- Chater Khalifa: **Dépendance et Mutation La Régence du Tunis (1815- 1857)**, publication de université de Tunis, Tunis 1984.
- 3- De Larive Abel Clarive: **Histoire Générale De La Tunis Depuis L'an 1590 avant jusqu' en 1883**, paris 1883.
- 4- De Card. E. Rouard: **Traites de La France avec Les Bays de L'Afrique du nord, Algérie, Tunis, Maroc**, A. Pédon, Editeur, paris 1906.
- 5- Ferry Jules: **La Tunisie Avant et Depuis L'occupation Française**, Editeur Librairie Coloniale, Paris 1893, T 1.
- 6- Masson Paul: **Histoire Etablissement et du Commerce Français dans L'afrique Barbaresque (1560- 1793)**, Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc. Librairie Hachette, paris 1903.
- 7- Panzac Danial: **Les Corsaires Barbaresques a la Fin D'Une Epopée (1800- 1820)**, paris 1999.
- 8- Sibag Paule: **Tunis Histoire D'un Ville**, Edition L'Harmattan , paris 1998.
- 9- Valensi. V: **Histoire Economique et Sociale Du Monde**, T3, paris 1978.
- 10- Valensi Lucette: **Le Maghreb Avant La Prise D'Alger (1790- 1830)**, Flammarion, France 1969.
- 11- Zouari. A: **Les Relation Commerciales Enter Sfacs et Le Vant ausc XVIII^{ème} et XIX^{ème} siècle**, institut d'archéologie et d' art, 1990.

سابعا - المقالات والدوريات العربية :

- المجلة التاريخية المغربية:

1- الإمام رشاد: سياسة حمودة باشا الحسيني في المجال التجاري 1782-1814، في م. ت. م، مؤسسة التميمي للبحث، جويلية 1974، عدد 2.

2- الإمام رشاد: سياسة حمودة باشا التجارية مع أوروبا، في م. ت. م، مؤسسة التميمي للبحث، جويلية 1976، عدد 6.

3- فليبي جون: ليفورنة وشمال أفريقيا في القرن الثامن عشر، في م. ت. م، مؤسسة التميمي للبحث، 8، 1977، عدد 7.

المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية:

1- عبيد منير: البحرية التجارية التونسية في ضوء مراسلات وكلاء وقناصل الباي، في م. ت. م. ع. د. ع، مؤسسة التميمي للبحث العلمي، سبتمبر 2000، عدد 21.

مجلة الدراسات التاريخية:

1- بوعزيز يحي: إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس، في م. د. ت، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1988، عدد 4.

الكراسات التونسية:

1- صالح محمد: المغرب وإسبانيا خلال القرن 17م، في ك. ت، مجلد 44، تونس 1991، عدد 158.

2- القفصي عبد الحكيم: تجارة الصوف، في ك. ت، المطبعة الرسمية، تونس 1991، العدد (157-158).

دفاتر التاريخ المغربية:

1- بوعزيز يحي: إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس، في م. د. ت، جامعة وهران، 1987، عدد 1.

– المجلة الزيتونة:

- 1- ابن خوجة محمد: دار البايتونس، في م. ز، مج 1، المطبعة التونسية 1942، العدد 8.
- 2- ابن خوجة محمد: تاريخ أبواب تونس، في م. ز، المطبعة التونسية 1939، ج 7.

ثامنا – المقالات والدوريات الأجنبية :

- REVUE Tunisienne:

- 1- Caroni. F: **Etienne Famin (1795- 1802)**, in R T, Tunis 1916, N⁰ 114.
- 2- De. G. R. Henry: **Etienne Famin et Son Vole Diplomatique a Tunis**, in R T, Tunis 1905, N⁰ 12.
- 3- L. Billey: **Médecins Français en Barbarie 1816- 1817**, in R. T, 1941, N⁰ 9.
- 4- Maria Ghazali: **Les Tabarquins De Tunis (1741- 1799)**, in R T, 1943, N⁰ 53- 54.
- 5- Soler Arnaldo: **Chargé d'affaires d'Espagne a Tunis et Sa Corresp ondan ce 1808 – 1810**, in R, T, N⁰12, 1905.
- 6-Zmerli. S: **Une Fuguer Oubliée: Youssef Saheb Et- Tabaà**, in R. T, Tunis 1935, N⁰ 21.

- Les Chiers de Tunis:

- 1- Emérit Marcel: **L'essai D'une Marine Marchande Barbaresque au XVIII Siècle**, in C. T, Tunis 1955, N⁰ 11.
- 2- Grandchamp Pierre: **Arabe Généalogique de La Famille Husseinite 1705- 1944**, in C. T, 1965, N⁰ 13.
- 3- Panzac Danial: **La Régence de Tunis et la mer à l'époque d'Hammouda Pacha Bey (1782-1814)**, in C. T, Tunis 1995, N⁰ 165.
- 4- Valensi. Lucette: **Le Gouvernement De Hammouda Pacha**, in C. T, Tunis 1971, N⁰ 73- 74.
- 5- Valensi Lucette et Ben Smail. M. et: **La Régence De Hammouda Pacha** in C. T, T XIX, Tunis 1971, N⁰ 73, 74. **Dans**

- Les Chiers De La Méditerranée:

- 1- Sebag Paul: **Grand Travausc à Tunis a La Fin de XVIII Siècle**, in C. M, 1973, N⁰ 15- 16.

- IBLA:

1- Van Krieken Gérard: **Hammuda Bacha et Port de La Goulette**, in R. I, T 51, Tunis 1988, N° 162.

- Revue de L'occident Musulman et la Méditerranée:

1- Sebag Paul: **Grand Travaux à Tunis à La Fin du XVIII Siècle**, in R. L. M. M, 1973, N° 15- 16.

- Annale Economies Sociétés Civilisations:

1- Mathiesc Jean: **Sur la Marine Marchande Barbaresque Au XVIII Siècle**, in A. E. S. C, 1958, Vol 13.

- Revue. La Méditerranée, Politique, Négoce et Culture:

1- Sadok Bou Baker: **Négoce et Enrichissement Individuel à Tunis du XVII Siècle au Début du XIX Siècle**, in R. M. P. N. C, S. D.

2-Windler Christian: **Diplomatie et Interculturalité: Les Consuls Fiançais à Tunis, 1700- 1840**, in R. M. P. N. C, S. D.

تاسعا- الرسائل الجامعية باللغة العربية :

1- جبار عبد الناصر : **بنو حفص والقوى الصليبية في غرب المتوسط - في القرن الثامن والتاسع للهجرة 14- 15 للميلاد-**، رسالة ماجستير في الآداب، قسم التاريخ، جامعة القاهرة، 1990.

2- ابن خروف عمار: **علاقات الجزائر السليبية مع تونس في عهد الدايات 1671- 1830**،

أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق، 1996، (غ.م).

3- محرز أمين: **الجزائر في عهد الأغوات (1659- 1671)**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر،

قسم التاريخ، 2007- 2008. (غ.م).

4- فوزي المستغامي محمد: **بلاط باردو زمن حمودة باشا (1782- 1814)**، رسالة دكتوراه في

التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2006- 2007. (غ.م).

عاشرا - الرسائل الجامعية باللغة الأجنبية:

1- Bey Mouktar: **De Rôle De La Dynastie Husseinite Dans La Naissance et La Développement de La Tunis Moderne (10 juillet 1705- 12 mai 1881)**,

Thèse pour le doctorat, 1968, T2.

2- Benafri Chakib: **Las Relacioes Entre Espana El Jmperio Otomano Regenciasy Las Berberisccas En el Siglo XVIII (1759- 1792)**, cataedrático de historiria moderna, universidad complutense de madrid 1994.

المعاجم:

1- **Le petit La rousse, France Matière Corsaire**, Grand Format Editiion 2005.
2- **Nouvelle Biographie Général depuis Les Temps Les Plus Reculés jusqu'à nos jour**, 47 Tome, Firmin, Didot, Frères, Paris 1855, T 13.

الفهارس

– فهرس الأعلام

– فهرس الأماكن والبلدان

– فهرس القبائل والجماعات

– فهرس المحتوى

1- فهرس الأعلام :

(أ)

- إبراهيم الشريف: 14، 15، 16.
أوجيه دو سورهايند: 18.
إسماعيل بن يونس: 24.
إبراهيم راييس: 25.
أحمد بن أبي الضياف : 36، 47، 48، 51،
112، 118، 52.
إسماعيل كاهية: 37، 51.
إسماعيل باي: 43، 46.
ألفونصو روسو: 47.
إبراهيم الرياحي: 48.
أنطوان نجسون: 56.
أرنولد: 56.
أحمد خوجة: 82.
إيمو: 97، 98، 99.
أرنولد سولير: 116.
اوجيست هنريش فرانك: 117.
- بكار الجلولي: 67.
بلانتي. أ: 96.
بازلييني: 113.
بيدوسوتشيتا: 114، 115.
باسكوال استفاني: 115.
التومي الشواش: 39.
التونسي: 53.
تاليرون: 109، 110.
جنات العلجية: 37.
جوتيه: 20، 22.
جاك دي لوميليني: 21.
جيتانوجيرفاصون: 24.
جويل بارلو: 61.
جيوفان مونكادا: 74، 75.
جواشيم: 76، 100.

(ب)

- بيرويك: 25. جوزيف: 116.
- بروفيس: 28. جون ايميل ايمرت: 117.
- بيرم التونسي: 39. (ح)
- بيرغرانشان: 52، 69. حسين بن علي تركي : 14، 16، 17، 19، 20.
- بيون: 53. حمودة بن عبد العزيز: 25، 37.
- بوارى: 53. حمودة باكير: 40.
- حمودة باشا: 14، 16، 23، 33، 36، 37، 104. ديسبارون: 104.
- 38، 39، 40، 41، 42، 43، 44، 45، ديشاتانوف: 105، 106. دي سبيبي: 113.
- 46، 47، 48، 49، 50، 51، 53، 57، دون فرناندو السابع: 117. 58، 59، 67، 68، 70، 72، 75، 76.
- 78، 79، 83، 86، 87، 91، 92، 93، دي هيريكور: 19. 94، 96، 97، 98، 100، 101، 103.
- حمودة الأصرم: 60. دو قيللاززيل: 23. دو بومبار: 24.
- حميدة بن عياد: 60، 67. دي سيزيو: 25، 30، 31، 32، 43. 104، 105، 106، 107، 108، 109.
- الحاج يونس: 69. 110، 111، 112، 114، 115، 116، حسين وكيل الحرج: 113. 117، 118، 119، 120، 121، 123، (خ)
124. خير الدين بربروسة: 64.
- خوان صولير: 113، 114. (د)
- رمضان باي: 15. دونيس دو سولت: 18.
- رجب خزنه دار: 29. ديمون: 19.
- رجب بونمة: 60. دوجرانبري: 19.
- رجب بن عياد: 67. دي بروف: 31.
- رينال: 53. دي ر وشيه : 32، 33، 46، 58، 103. رونشي: 54.
- ريناتو دو مارتيني: 100، 101. 104، 105.

- دوفواز: 38، 41، 42، 59، 62، 75، 76، (س)
- 100، 103، 106، 107، 108، 109، سليمان رايس الجري: 27، 29، 30.
- 110.
- دي فونتان: 54.
- دون كارلوس: 56.
- سليم الثالث: 44، 55، 93، 108.
- سليمان خزنه دار: 45.
- سيالف: 47.
- سليمان بن الحاج: 68، 82.
- سيراتي: 100.
- سيدني سميث: 102.
- سيقي: 112، 116، 117.
- فلوريدا بلانكا: 112، 113، 114، (ق)
- 115.
- فانتور بوزاران: 114.
- شارل أندري جوليان: 14.
- شعبان السبيعي: 20.
- القابوحي باتشين: 30.
- قازو: 54، 97.
- ابن أبي الضياف: 17، 40، 41، 51، 52، (ك)
- 118، 122.
- كارلوس الثالث: 112، 113.
- كارلوس الرابع: 112، 115.
- كريستيان فرديناند: 117.
- علي باشا بن حسين تركي: 14، 16، 17، (ع)
- 23، 24، 25، 26، 27، 29، 30، 31، 32، 33، 36، 37، 42، 43، 44، 45،
- 46، 51، 57، 67، 96، 104.
- علي باشا بن محمد بن علي تركي: 17، 20، (ل)
- 21، 22، 23.
- لويس الخامس عشر: 18، 19، 31.
- لويس السادس عشر: 31، 32، 104،
- 106، 107.
- لويس فرانك: 37، 39، 54، 120،
- 122.
- أبو عبد الله محمد: 37، 119.
- علي برغل: 60، 95، 113.

علي باشا القرماني: 60، 95.

عبد الرحمن بدر الدين: 95.

(ف)

فرانسيسكو خمينيس: 19.

محبوبة: 36.

محمد بن الصغير: 20.

محمود باي بن حسين: 20، 43.

محمد الرشيد: 23.

محمد حمودة باكير: 37.

محمد بيرم: 41.

مندريسي: 54.

ماجيل توماس: 18، 91، 121، 58.

محمد الأصرم: 60.

ماجرا: 60، 76، 95.

ماريانو ستنكا: 62، 100.

محمد الجلولي: 67.

محمد خوجة: 107.

محمد بن عبد الله: 112.

محمد بن عثمان باشا: 113.

محمد بن مخلوف: 39.

ابن مقديش: 39، 46، 47.

محمد الورغي: 45.

مريانو ستنكا: 47.

مصطفى الترحمان: 47.

مصطفى آغا: 108.

مصطفى خوجة: 25، 33، 36، 40، 43،

لويس د. هيركولي: 107، 108.

(م)

محمود باي: 14، 36، 38، 43، 45،

46.

(ن)

نابليون بونابرت: 41، 75، 80، 83،

86، 93، 95، 101، 103، 108،

110، 111، 116، 117، 123.

نيسان: 61.

(هـ)

همبير: 119.

(ي)

يونس بن علي باشا بن محمد بن علي

التركي: 22، 23.

يونس بن يونس الجري: 68، 82.

يوسف صاحب الطابع: 42، 59، 60،

67، 68، 69، 73، 75، 77، 79، 92،

119.

45، 57، 58، 92، 96، 98، 103، 104،
106، 113.

2- فهرس الأماكن والبلدان:

باب السويقة: 119.

باب الخضراء: 119.

باب الجزيرة: 119.

برج سيدي يحيى: 120.
برج باب سيدي عبد السلام: 120.

برج باب خالد: 120.

برج باب العسل: 120.

(ت)

تونس: 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20،
21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 28،
29، 30، 31، 32، 33، 34، 35، 36،
37، 38، 39، 40، 41، 42، 43، 44،
45، 46، 47، 48، 49، 50، 51، 52،
53، 54، 55، 56، 57، 58، 59، 60،
61، 62، 63، 64، 65، 66، 67، 68،
69، 70، 71، 72، 73، 74، 75، 76،
77، 78، 79، 80، 81، 82، 83، 84،
85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92،
93، 94، 95، 96، 97، 98، 99، 100،
101، 102، 103، 104، 105، 106،
107، 108، 109، 110، 111، 112،
113، 114، 115، 116، 117، 118،
119، 120، 121، 122، 123.

توسكانيا: 33، 84، 86، 94.

تامكرت: 29، 30، 31.

(ج)

الجزائر: 14، 15، 16، 24، 25، 34،
44، 48، 53، 61، 63، 69، 75، 93،

(أ)

الإسكندرية: 34، 52.

إسبانيا: 19، 56، 81، 83، 90، 93، 94،
112، 113، 114، 120.

الأندلس: 63.

إنجلترا: 58، 70، 75، 76، 78، 87، 92،
93، 94، 112، 113، 114، 120.

إيطاليا: 54، 68.

إشبيلية: 116.

أليكانت: 115، 116.

أوريا: 14، 16، 20، 24، 32، 40، 41،
48، 50، 52، 54، 56، 57، 58، 59،
61، 63، 64، 67، 68، 69، 73، 78،
80، 83، 86، 92، 93، 118، 119،
120، 123.

(ب)

باجة: 15، 80.

البندقية: 25، 34، 35، 52، 54، 78، 87،
94، 95، 96، 97، 98، 99، 123.

بنزرت: 27، 29، 33، 98، 117.

- البغدان: 59. 98، 101، 105، 106، 108، 112،
113
باليرمو: 74.
برشلونة: 85، 115.
بروسيا: 95.
باريس: 107.
(ح)
الحمامات: 29، 40، 121.
حلق الوادي: 18، 19، 22، 24، 26، 27،
73، 104.
28، 29، 30، 31، 34، 35، 52، 56، 96
طولون: 31، 100، 107.
طرابلس الغرب: 33، 60، 69، 95،
97، 98، 102، 111، 117، 118، 119.
(د)
الدويلات الإيطالية: 18.
الدولة العثمانية: 44، 64، 112، 123.
الدانمارك: 56.
(ر)
الرأس الأسود: 21، 22، 33.
الروس: 30.
(س)
سوسة: 20، 27، 29، 40، 80، 97، 98،
119، 120.
سردينيا: 71، 75.
سانت بيار: 71، 75.
(ش)
شمال إفريقيا: 21، 24، 69، 73، 76، 84،
114.
شبه الجزيرة الأيبيرية: 69.
(ط)
طبرقة: 17، 21، 22، 26، 27، 33،
73، 104.
طولون: 31، 100، 107.
طرابلس الغرب: 33، 60، 69، 95،
104، 108، 109، 112.
(غ)
غار الملح: 28، 29، 63، 117.
(ف)
فرنسا: 14، 16، 17، 19، 20، 21،
22، 23، 24، 25، 26، 27، 28، 29،
30، 31، 32، 33، 34، 43، 47، 53،
54، 55، 56، 58، 60، 61، 63، 70،
75، 76، 78، 83، 87، 88، 92، 93،
94، 95، 99، 100، 102، 103،
104، 105، 106، 107، 108، 109،
110، 111، 118، 123.
فرساي: 103.
(ق)
القليبية: 29.
القرنة: 84.
(ك)

كورسيكا: 26، 27، 28، 30، 110. (ص)

صقلية: 18، 71، 75، 76، 94، 101، (ل)
ليفورنو: 63، 80، 81، 85، 86، 87،
صفاقس: 34، 67، 97، 98. 94، 118.

(م) (ن)
المنستير: 20، 29. نابل: 54، 62، 74، 75، 76، 94،
مرسيليا: 24، 61، 81، 83، 84، 85، 86، 99، 100، 101.
النمسا: 33. 87، 118.

مصر: 80، 91، 95، 101، 109، 110. (هـ)
مدريد: 114، 115. هولندا: 54، 117.
مالقة: 115. الهند: 121.

مالطة: 34، 35، 64، 67، 75، 83، 85، (ي)
اليونان: 74. 86، 87، 99، 110.

3- فهرس القبائل والجماعات:

(أ)	الأسرى: 30، 74، 75، 111، 116.
(ب)	الأوروبيون: 15، 16، 42، 52، 57، 58.
(ج)	الأسبان: 64، 113، 114، 116.
(د)	الإنجليز: 102.
(هـ)	آل الجلولي: 67، 69، 77، 78، 82.
(و)	آل لومليليني: 21.
(ز)	الأتراك: 42، 95.
(ح)	التونسيون: 14، 18، 34، 55، 80، 83.
(ط)	المراديين: 15.
(ي)	المورسكيون: 63.
(ق)	المسيحيون: 23، 64، 69، 75.
(ك)	المماليك: 42.
(ل)	الجنوبيين: 22، 86.
(م)	النابوليتانيين: 100، 101.
(ن)	الحسينيين: 14، 16، 48، 65.
(س)	اليهود: 23، 39، 83، 84، 87، 88.
(ع)	الرهبان: 23.
(ف)	السردينيين: 76.
(غ)	عائلة بن عياد: 67، 69، 77، 78، 82.

فهرس المحتويات

الإهداء

الشكر والتقدير

الصفحة

1مقدمة:
	الفصل الأول : لمحة عن العلاقات الخارجية قبل سنة 1196هـ / 1782م.
14	المبحث الأول: جوانب عن علاقات تونس الخارجية من (1117- 1173 هـ / 1705-1759 م).....
15	1- لمحة تاريخية عن قيام الدولة الحسينية بتونس.....
17	2- علاقات حسين بن علي التركي (1117- 1153 هـ / 1705- 1740 م).....
20	3- علاقات علي باي بن محمد بن علي تركي (1153- 1169 هـ / 1740- 1759 م).....
23	4- علاقات علي باشا بن حسين بن علي تركي (1172- 1196 هـ / 1759- 1782 م)
36	المبحث الثاني: حمودة باشا من المهد إلى ولايته للعهد.....
36	1- حمودة باشا الحسيني: المولد والنشأة.....
42	2- ولايته في عهد أبيه.....
	الفصل الثاني: العوامل المؤثرة في العلاقات الخارجية أثناء حكم حمودة باشا.
51	المبحث الأول : العوامل الداخلية المؤثرة في العلاقات الخارجية لتونس.....
51	1- ظروف توليه الحكم.....
55	2- أثر التسليح في العلاقات الخارجية.....
57	3- دور رجال البلاط في العلاقات الخارجية.....
63	المبحث الثاني: تأثير نشاط البحرية التونسية في العلاقات الخارجية لحمودة باشا
	- تأثير نشاط القرصنة البحرية في العلاقات الخارجية.....
63	1- طبيعة الصراع الديني.....
64	2- البحرية التونسية في عصر حمودة باشا.....
68	3- تأثير القرصنة البحرية في العلاقات الخارجية.....

79	المبحث الثالث: تأثير نشاط التجارة في العلاقات الخارجية.....
79	1- سياسة حمودة باشا التجارية.....
80	2- طبيعة الصادرات والواردات في تونس.....
81	3- احتكار السلطة للتجارة الخارجية.....
82	4- سيطرة رجال البلاط على صادرات الزيت والقمح ابتداء من سنة 1795م إلى غاية سنة 1814م.....
83	5- ضعف الهيمنة التجارية الأوربية بتونس.....
83	6- دور اليهود في التجارة الخارجية.....
84	7- انتعاش التجارة الخارجية.....
84	8- الفضاء الجغرافي لتجارة تونس الخارجية.....
90	9- أسباب انعدام الأسطول التجاري بتونس.....
91	10- العملة المستعملة في تونس أثناء عصر حمودة باشا.....

الفصل الثالث: العلاقات الخارجية لتونس مع دول غرب أوروبا.

94	المبحث الأول : علاقة حمودة باشا مع بعض الدويلات الإيطالية.....
94	1- سياسة حمودة باشا الخارجية.....
95	2- الأوضاع العامة في الحوض الغربي للمتوسط في نهاية ق 18م وبداية ق 19م.....
96	3- الحرب مع جمهورية البندقية (1198 - 1207هـ / 1784 - 1792م).....
99	4- علاقة تونس مع نابل وصقلية.....

المبحث الثاني: علاقة حمودة باشا مع

103	فرنسا.....
103	1- الوفاق التونسي الفرنسي (1196 - 1205هـ / 1782م - 1790م).....
104	2- تجديد معاهدة صيد المرجان.....
105	3- حمودة باشا يستغل ظروف الثورة الفرنسية.....
106	4- دور القنصل "دوفواز" (Devoize) في عودة السلم.....
108	5- موقف حمودة باشا من حملة نابليون بونابرت على مصر 1213هـ / 1798م.....
109	6- السلام المؤقت 1216هـ / 1800م.....

110	7- السلام الأخير في عصر الباي 1219هـ / 1802م.....
112	المبحث الثالث : علاقة حمودة باشا مع إسبانيا و نتائج علاقاته الخارجية.....
112	1- التقارب التونسي الإسباني في نهاية القرن 18م.....
113	2- الوساطة الجزائرية لإبرام الصلح بين تونس وإسبانيا.....
114	3- المفاوضات الناجحة.....
115	4- معاهدة السلام بين تونس و إسبانيا 1206هـ / 1791م.....
116	5- ديون القنصل الإسباني "سيقي (Segui) بتونس.....
116	6- عودة التوتر بعد معاهدة السلام.....
117	7- نتائج علاقاته الخارجية.....
125	الخاتمة.....
128	الملاحق.....
142	بيبلوغرافيا الدراسة.....
152	الفهارس.....

